أصل الحكاية

(الجزء الأول)

انتبااه

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم العمل : انتباه (ثلاثية أصل الحكاية)

اسم المؤلف : وجدى عبد الهادى

الإخراج الفني والغلاف : إكرام عيد

رقم الإيداع : /

الترقيم الدولي : ٤-٣٢-٨٦٦٦٨-٩٧٧-٩٧٨

المدير العام : ياسر حسني

٠١٠١٤٥٥٥٧٨٤ / ٠١٠٠٦١٤١٦٤٥

لا يسمح بإعادة طبع ونشر هذا الديوان أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه في أي نظام إلكتروني أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر وإلا تعرض فاعله للمسائلة القانونية

كل الحقوق محفوظة

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة .

الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

الإهـداء

إلى كل شخصيات رواية "أصل الحكاية"..

إلى كُلِّ من عاون في إخراجها للنور..

وإلى كُلَّ قارئ يقرأ من أجل أن يحيا...

أهدي هذا العمل

وجدي عبد الهادي

الفصل الأول

(تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...) خَطَرَت الآية بقلب مُجاهِدٍ، فقال لنفسه: زَوْجةُ رجلٍ، وعنْدِك مِثْلُها، فأيْنَ تذهب.! قال ذلك من وراء قلبه، فما أسرع ما انقلب يقول: النساءُ شقائقُ الرجال، وللرجال خلقنَّ، ولهنَّ خُلِقَ الرجالُ، وأخذ يُدافع؛ فاشتعل الشَّوقُ في قلبْه فعاد يحُثُّ لنفسه: ليس في الأمْرِ شيءٌ؛ اتَّصِلْ.. ويئسَ منه، ورجع يَسْتَحْي: كيف اقْتَحِمُ على الناس بيوتهم من غير سبب؛ ارتحلت مع زوجها وانتهى الأمر. واسْتَعْصَم: ذو لِحْيَةٍ، عارفٌ بالحلال والحرام، لا يَخْلو بحديث إلى امرأة غيره.

واسْتَبَدَّ به الشوق؛ ووقع يتردد في الأمر: ولكن كيف إذا كان الزوج، واسْتُقْبِلْتَ بغير الترحاب؟ فوقع قلبه في قدميه.

ولأنه ليس من شِيمَته التجسس، فإن آنس غير صَوتها؛ يقطعُ الاتصال، أبْغَضَها طَريقةً.

ثُمَّ جرفه الشوق جرفًا بعد هنيهة- وكمن يستسلم إلى الموت – وقعَ في الاتصال، فَوجَبَ قلبه وَجِيبًا شديدًا، وأَرْهِفَ السَّمْعَ..

"أهلًا، وعليكم السلام، كنت أشعر أنَّهُ أنت؛ وأنَّك ستتصل." وتلقته مسْرورةً، فتنفَّس الصُّعداءَ، وابتسم في رصانة، كأنّما تراه:

" كيف الحال."

"الحمد لله، كيف أنت يا أستاذ مُجاهد؟" حَمِدَت في استكانة، وسأَلَتْهُ فيض مودة، فأسرع بَاشًا بها:

"معذرةً؛ أردت الاطمئنان عليكم، وجمع معها الزوج والذُّرِّية، ولم يقل عَلَيْكِ، ونأى بهَمِّ قلبه، فمضت تشتكي:

"الناس هُنا كأنهم الغرباء! كلٌّ في شأن نفسه، ولم نَتَعَوَّدْ هذا الجو الغريب." وقالت تَسْتَقْصِيه بذات الاستكانة الحزينة:

"وكَيْفَ أنْتَ؟" فصمت مُتَحَرِجًا. فاستدركت تسأل عن الزَّوْجة، فاسترسل في نبرته الباشة:

"طَيِّبــون، أردت الاطمئنان عليكم. فقالت ضاحكة؛ ترمي بسهمها الأخَّاذ:

" افتكرتك نسيتنا." فأغْفَلَ تلك العبارة؛ وسكت؛ كأن لَّمْ يسْمَعْها. فقالت تستدرك:

" نعرفك- دائمًا - سباق إلى الخير.

" لا تحرمنا دعاءك."

" أَفْعَل." وقال يزوغ:

" كيف حال الزوج، وحال البنات، أرجو أن تكونوا جميعًا بخير؟ "

" الحمد لله، على كل حال" قالت بالنّبرة المُسْتكينة..

ومضى الحديث بينهما على هذا المِنْوال؛ هو هَشٌ بَشٌ، في داخله مُحْبورًا؛ يكتم عنها مشاعره، يتحسس كلَّ كلمة قبل النطق بها في ضَبْطٍ شديدٍ. وَهِيَ في فرط مودة، ونبرة مُستكينة، تُبْلِّغُ أنَّها تعاني، حتى اختتمت تسأل عن العمل وعن الزملاء، والزميلات عنده، وألَّا ينساهم من دعائه، وأنَّهم يسعدهم اتصاله.

كان في الثلاثين، عندما عَاد من أجازته للخارج. فدخل على مدير المديرية ليُوقعَ إقرار العودة للعمل، فابْتدره مدير المديرية:

"ألم تجد غير هذا الوقت لتربي فيه ذقنك؟!" وكان رئيسًا يستطيع استمالة مَرْؤوسيه، فلحظ لِحْيَتَه. فأجابه هو، في نبرة خضوع:

" كنت قد أطلقتها هناك؛ واستحْي أن أَحْلِقُها هنا."

فنَظَرَ مدير المديرية سريعًا إلى الباب، فتأكد أنه مُوصد، وتابع يُعْلِمْهُ:

" ألم تعلم، أنهم يُمَسكون الآن أصحاب الذقون! "

فأنبأ:

" أنا لا أنتمي للجماعات" فأتبع مدير المديرية، وهو يوقع على عجل أوراق كَثيرةٍ أمامه:

" أتعرف نكتة الجمل.. ولم يُكْمِلْ: تسامعت الحَمِيرُ؛ أن ثَمَّ قبضٌ عليها فانطلقت فارة، وانطلق بينها جَمَلٌ مذعورٌ، فنوديَ: أنت جمل؟ تَذَاكَرَ مُجاهد النُّكْتَةَ؛ فتبسم. فعلق وكيل الوزارة وقد لحظه يبتسم:

"حِلِّني؛ لمَّا يعرفوا أنّك جَمَلٌ. "

قال:

".. لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا.. الآية "

وكمن يترقب هبوب العاصفةِ، مدَّ يده في رفق يتلقَّى الإقرار. وانسل خارجًا؛ رويدًا، رويدًا، وقد لَحَظَ أن حركة يد مدير المديرية، على الأوراق أمامه، ارتدت، أسْرع وأعْنف..

وكان قَدْ تَمَّ محاكمة مَنْ قَتَلُوا السادات، وحين سُئِلَ خالد الإسلامبولي، قال: نعم قتلته، لكني غير مذنب، لقد فَعلتُ ما فعلتُ، في سبيل الدين، وفي سبيل الوطـن، وقال عبد السلام فرج: قتلناه ليكون تحذيرًا لكل من يجئ من بعده، ويتعلموا منه درسًا. لقد كان هدفنا في هذه المرحلة من النضال، رَدْعُ الحُكَّامَ المقبلين.

وكان مُجاهد ذا هِمّة - قرأ القرآن على كِبَرٍ وقد جَاوَزَ الثلاثين- فقال يؤكد لنفسه: لـــن أحْلِقَها أبدًا..

وكانت المسافة بين بيته، وبين المديرية ثلاثة كيلو مترات، طريق مـزدوج، المدخل الرئيسي " للمَنْصُورة " يتوسطه رصيف للمشاة مزدوج كذلك، به زَرْعٌ، فأنشأ كلما ذهب إلى العمل صباحًا، ينطلق فوق الرصيف بيده المُصحف يقرأ، والعربات عن يمينه تُحدثُ فوووووو؛ تَمْرُقُ حاملة الناس لأشغالهم، ينظرونه، مَاشيًا يقرأ، يلاحِقُونه. فإن سعى يَسارًا فوق الرصيف الآخر، سفعته العربات بريحها وهي ترمح خارجةً من المدينة.

كان قد رأى في منامه مِرَارًا؛ أنَّه يسبح في نهر كبير، وشخص آخر – يَعْرِفُهُ - فوق الشاطئ، اتخذ النهر وراءه ظِهْرِيًا؛ يُطعم أهْلَهُ برسيمًا، فتأول النَّهرَ بالقرآن يَتَطَهَّرُ به، بينما الذي يعْرِفْهُ، الذي هو فوق الشاطئ، ينتمي لجماعة.. لا يقرأ، فثبتته تلك الرؤيا المتكررة.

وارْتابَ النَّاسُ، في الذي يغدو ويروح، بيده المصحف، يقرأ جهارًا حتى مبنى المحافظة، الدَّور الرابع، حيث ديوان المديرية. ثُمَّ إنَّهم ألِفوه؛ حتى أن بَعْضَهم أخذ - كلما مرَّ بهم- يصيح مسرورًا، وَيَرْفَعُ يده يُحيِّيه.

ومرَّ يومًا بالشخص ذي البِنْية القوية، يعهده أمـام حي شرق يذْرع الرصيف صباحًا جيئةً وَذِهابًا، فما أن اقترب منه حتى هابَ به:

"هو انْتَ عاملها مظاهرة! ألست شَّاعرًا بحال البلد!".. واستأنف يأمره لمّا صَمتَ، بنبرة ودودة، أقل حِدَّةً:

"اقرأ القرآن في دارك، اقرأه بعد الفجر، اقرأ القرآن وأنت جالس."

وَعَرَّفَهُ بنفسه: لواء جيش سابق، ورئيسُ حَيّ شرق حاليًا، وأومأ برأسه إلى المبنى المقابل، جانب الطريق الأيسر؛ مَبْنى الحَيّ. وبدا مُحترمًا؛ يتحدث بإخلاصٍ؛ وإن لم يستطع إلا أن يظل آمرًا:

"والآن، اقفلْ المصحف، وسِرْ؛ كما يسير سائر الناس."

فأرخى عنه بصره؛ ليواري غضبه؛ أنّهُ خُوّفَ بغير الله. فوقع مُسْتَنْفزًا، فقال في قطع:

" الدين النصيحة، وقد نَصَحْتَ "وعاد فَفَتحَ المصحف، أمام عيْنَيِّ رئيس الحي، وخَلَّفه.

واستأنف سيره، يقرأ. ومن قبل كان لا يجهر بالقراءة، ولا يخافت بها، يبتغي بين ذلك سبيلًا، فَوجَده، يرْفَعُ صوته بالقرآن- رغمًا عنه – ليطرد هَواجِسَه.. ففي القرية؛ كان كلما قرأ عليهم في الصلاة من القرآن جديدًا، مما حَفِظَه، عَجِبوا منه كذلك! وبالأمس- فقط- فور خروجه من صلاة المَغْرِبَ وَجَدَ الشباب يتهامسون أمام المسجد؛ وسَمِعَ ‘أحدُهُم يُحدث لهم:" الشيخ مجاهد قرأ قرآنًا ليس في المصحف"

فمرَّ بهم فقال: " السَّورة التي قرأت في الصلاة؛ سورة المطففين من جزء عَمَّ؛ آخر أجزاء المصحف!" وصابَرَ؛ وليس من طبعه الصبر؛ فيومًا قريبًا؛ كان قد وقف يَصُفُّهم للصلاة، ويسويهم، فاسْتَفَزَهُ رجل كذلك:

" لسنا في الجيش كي تَرُصَّنا، صَلِّ." فَعنَّفَهُ:

"اسْتَقِمْ." وكان الرجل في عمر أبيه، من الذين شَهِدوا حَرْبَ اليَمَنِ، لكنه رأى زَجْرَه، كي لا يعود لمثلها، فيتجرأ عليه غيره؛ فَتَلَقَّفَهُ غَيْرُهُ مُعترضًا: وهل نحن لم يعد وراءنا غير الصلاة، اقرأْ " قل هو الله أحد- ولا هِيَّ - قل هو الله أحد، ليست قرآنًا " فكظم غيظه؛ حتى لا يُحْدِثُ في المسجد هَرَجًا.

فَخَرَجَ الشَّخْصُ- بعد الصلاة - ليجلس على قهوة، مقابل المسجد، فَمرَّ به. وكان لا يزال يُفاخرُ مُنْتَصِرًا: أنا قلت له كذا، وكذا. فاستشاط غضبًا، وكان يعرف ذاك الشخص، فلاحًا غير فالح، وتاجرًا للبهائم غير أَمين، فذهب فَزَجَرَهُ: تقول اقرأ بكذا، أو لا أقرأ بكذا، فهذا ما لا تعرفه، فقط، أنت تعرف في البهائم، أما هذا القرآن فَعِلْمٌ، له أَهلُهُ. ولما ذهب عنه الغضب، رجع فلام نفسه: كان ينبغي عليك أن تكون رفيقًا بالرجل. وحزن؛ لأن ليس من طبعه الرفق، يُسْتَفَزّ سريعًا، ودائمًا يسقط في الغضب، فدعا الله، من قلبه: اللهم زيني بالحِلْمِ والعِلْمِ، اللهمَّ اغفر لي ولهذا الرجل.

* * *

كانوا في مكتب الخبرة تسعةٌ، هُوَ، ومدام أُمْنِيَة، وصاحبتها- امرأة ذات مال تَكْبُرُهم جميعًا- وامرأتان أُخْريان، وشابان، كلاهما أكبر منه، وآنسة، والمدير؛ فَرْعٌ من الريف الجِوَّاني، قَطَنَ المدينة، تخطى الخمسين، ولم يتزوجْ إلا حديثًا، في ذراعيه طول، فرغم طوله، إلا أن طول ذراعيه بالنسبة إلى طول بدنه كان

مَلْحوظًا، وكان كلما أراد أن يضطَّرهم إلى شيء، مَدَّ ذراعه الطُّويلة فوق المكتب، وأقسم: أقطع ذراعي هذا، وأرميه للكلاب إن لم يكن الشأن كذا. فتغض النساء أبصارهن حياءً، وينفجر الشابان يضحكان بعد أن يهْمِسَ أحدهما للآخر همسًا خبيثًا. وكانت الحجرة جنب السُّلم، بَابُها مستقل عن ديوان المديرية، جُعِلَت كذلك لطبيعة العمل؛ يتعاملون مع الجمهور. وعندما يصعد مجاهد السُّلَم، ينْعَطِفُ يسارًا فيدخلها، ينظر مَنْ حضر مِنْهُم، فيعطيه المصحف، ويجلس إلى جواره في حالة من النشاط فائقة يقرأ عليه من حفيظته، الجديد من القرآن الذي حفظه إبّان السَّير. وبالأمس بعد أن خَوَّفَه رئيس الحَي؛ رأى في نومه شخصًا خرج عليه فجأة من ناحية بيتِهِمُ القديم، أصحابه من حوله، يَحْفَوْنَ به، يحرصون أن لا يجاوزوه إجلالًا؛ يضع قدمه، فيضعون أقدامهم بعده، يتَّبِعونه، فأَبطَّأَ لحظة أن الْتَقِيَهُ، مُلتفِتًا إليه، لم ينتبه إلا لتلك النَّظرة؛ لمح في عينيه عَزْمٌ، لو اجتمع من في الأرض كلهم جميعًا على أن يصرفوه عنه، ما صرفوه، وقرأ في تلك النَّظرة قول تحْضيض: أَنْتَ من يقرأ القرآن وهو سائرٌ. فقام من نومه سعيدًا وقد أُشْرِبُها قَلْبُهُ، وتَأَوَّل مَنْ رأى بالنَّبي ورسَالة تحضيض: أن اقرأ، واسْتَمِرْ. وكان قد رأى من قبل مَسْجدًا به رجالٌ غلبهم النَّوم، وهم قُعُودٌ، تخفق رؤوسهم، يغشاهم نُورٌ، ما إن دخل عليهم داخِلٌ حتى انتبهوا، فنشطوا له، فعلم أنَّه: مَنْ كانَوا ينتظرونه. وأفزعه أنه لم ير من الداخل إلا قدمين كبيـرتين ضعف قدم إنْسِيّ هذا الزمان، فاستيقظ مَحْزُونًا؛ أنه حُلمٌ من الشيطان ليَصَدَّه عن السبيل، وكان قد بدأ يهتم بِفِقْهِ دينه، فَقَصَّها على صديقٍ سبقه فيه. فَطَمْأَنه: أنَّ النبي لا يَتَمَثَّلُ الشيطان في صورته. ورغم هذا ظل خائفًا، تعذبه نفسه: أن يرى الصحابة يغشاهم نور، ولم يُرِ من النَّبي إلا تلك القدمين الكبيرتين، وَيُعْلِمُ الزملاء عن نَّفْسه أنَّه: ليس بذي الذكاء الشديد، ولا الحفيظة الخارقة، إلا أنَّه يجمع في صدره يوميًا - فترة السَّير - ربعًا كاملًا من القرآن، يعينه على ذلك؛ حالة السير، وأنه يَشْرَعُ فيما يَشْرعُ فيه عقب النوم،

والذِّهْنُ صَافٍ؛ والبال خَالٍ، فبَهَرَهُم، فشرع كُلُّهم يقتني له مُصْحَفًا، يَضَعُهُ في درج مكتبه، ليقرأ فيه.

في البداية - وبعد الانتهاء من تَسْمِيعه؛ وحَرِصَ أن يقدم المدير، يُشْرِكْهُ معهم - يَعْكُفُ على سُورٍ قصيرة، يقرأها للجميع، يبدأ بأول آية يتلوها عليهم مرتين أو ثلاث، ثُمَّ يُمَرِّرُها عليهم بالتتابع، كلٌ يقرأها من مُصْحفه، يُنْصتْ إليه الجَميعُ، وبعد دورة أو دورتين للآية يناديهم:

"من يبدأ؛ من يستطيع أن يقرأ الآية من حَفِيظَته؟ وإذ يتم للجميع ذلك، يشرع في الآية التي بعدها، قبل أن يبدأ العمل، ويتوافد الجمهور. غير أن ذلك لم يُعْجِبْ المدير، فشرع يتداخل بحديث خارجي، ليَقْطَعَ القراءة. وفي كل مَرَّةٍ كانوا ينصتون إليه كارهين، لا يشاركه حديثه أَحدٌ، ينتظرونه أن يفرغ، كي يرجعوا إلى القراءة. إلى أن جاء يومٌ قالها صَرِيحةً:

" يا جماعة، أنتم بهذا الشكل تَلْفِتون الأنظار إليكم "

فردت مدام أمنية:

" يا أستاذ وِفْقِي؛ الناس يبدؤون يومهم بالقِيل والقالِ، وِنحن نبدأ بالقرآن، لم نؤذِ أحدًا"

" يا مدام، أنتم مكتب يتعامل مع الجمهور، وقراءة القرآن ستجلب لكم المشاكل"

فناهضته:

"وأين المشاكل؟ وهل نحن نسرق! "

"وأين الجمهور! يا أستاذ وفقي، الناس لم تزل نائمِة." ورأى أن الجميع يوافقها رغم الصمت، فأعلن:

" بصراحة مدير المديرية كلمني في الموضوع، والرجل معه حَقٌ، فأنتم تخالفون القانون، فهذا الوقت يَخصُ العمل. فخفضت مدام أُمنية وجهها من الانفعال، وكانت إذا انفعلت أَزْهَرَت: قراءة القرآن ولا القصص والحكايات! تَحتجُّ، ووَقَعَ الصوتُ خفيضًا، لَمْ ينهض إلى المدير فَيَسْمَعُهُ، إلا أن صاحبتها؛ ما صَدَّقَت؛ استدركت عليها تصيح:

"وما لها، يا أمنية الحكايات والقصص، تلك قَصَصٌ مُسَلِّية" وكمن مرّ فوق رؤوسهم طَلْقٌ ناريّ، فَزِعوا جميعًا، ونظر بعضهم إلى بعض دهشًا للصوت العال والنبرة المستهزئة.

وانتبه المدير فجأة، فالتفت ينظر إلى مصدر الصوت، فعلمه. خفض رأسه، ورجع إلى أشياءِ كانت له فوق المكتب، يُقَلِّبُ ويسوي فيها مُضْطَرِبًا، ولم ينبس ببنت شفة، فتفرق الجمع وراح كل في شأنه.

وكانت القراءة قد قُطِعَت، فشمل الغرفة صمتٌ كئيب، ورويدًا رويدًا توافد الجمهور، فرجع الحديث على استحياء بين الحين والحينِ، وبقي لدى النُّفوس جميعًا هاجسٌ واحدٌ، أن الحكاية هذه لن تمر على خير أَبدًا.

في اليوم التالي عرج مدير المديرية على الحجرة قبل أن يدخل مكتبه، جاء فَسَلَّمَ. فأسرعت تلك المرأة تفسح له مكانًا جانِبها، وابتسمت له، وكان مكتبها صَدْرَ الباب، وقالت تُحَيِّيه، فردَّ تحيتها باقتضاب، وجلس يُطالعُ الوجوهَ، يجول ببصره، مُتحدثًا، فسألَ عن الأحوالِ، وعن سير العمل، وأنشأ كلامًا عامًا، فمكثوا جميعًا يتابعونه في اهتمامٍ شديد، إلا أنه لم يعرج لا تلميحًا ولا تصريحًا للموضوع، وكلما توجه بالخطاب إلى مدير المكتب تمتم في ارتباك، مُؤمِنًا على القول، وكأن الزيارة لم يكن يعلمها. كان مدير مديرية داهيةً، طوَّف ببصره بعيدًا عن أصحاب المشكلة، وكان مُجَاهِد يجْلِسُ مقابلًا له، ينصتُ ولا يبتسمُ، ولم ينظرْ إليه حتى قَام،

انصرفَ فجأةً كما أقبل فجأةً، تاركًا الكُل حيران: هل المرأة ذات السلطان- تلك التي لا تخاف العاقبة - هي من سبقت فشَكت؟ أَمْ أن مدير الخبرة هو من فعلها، أمْ أن هذه الزيارة كانت تحذيرًا لقارئ القرآن هذا أثناء العمل، الذي عاند، ولم يحلق لحيته، وعَمّا قريب ليكوننَّ من المحضرين للمسائلة؟

* * *

لَمْ يَدْرِ مجاهد كيف مال قلبه إلى مدام أمنية.

فقط لَحَظَ أن خطوه بات سريعًا، كلما أقبل مُتوجهًا للعمل، إلى درجة أنْسته مَوْضِعَ عَمُودٍ من أعمدة الإنارة المزروعة في الرصيف على طول الطريق أمامه، ففوجئ بفرقعة شديدة. وعندما أفاق، ومن عَظَمِ الصدمة، علم أن جبهته هي من اصطدمت بالعمود.

وضع يده فوق المكان المَكْلوم يتحسس من شِدَّةِ الألم، فوجد قُورَته قد نَدَت بارزة؛ فوقف مهمومًا: أيرجع إلى البيت، فيمكث فترةً حتى يخف هذا الوَرَم؟ أم يستأنف سَيْرَهُ، يدفعه الشَّوقُ دفعًا؛ أن هناك جالسةً تنتظر قدومه؛ حريصةً ألا تغيب عن المكتب لحظةً واحدةً مِثله.

أحسَّ بالذنب. ورغْمًا عَنه، وجد نَفْسَه يستأنف سيره مهمومًا تشغله هذه الرأس الجديدة التي سكنت ناصيته: كيف الآن سيبدو لهم!

كان قد شرع في عَقْدِ مسابقات، نهاية كل سورة، أيهم يستطيع أن يقرأ السورة من حفيظته كاملة؛ فينْحَلَه جائزةً. لم يكن بالشخص الموسر، إلا أنه كان جادًا يَوَدُ أن يعلمهم شيئًا مِمَّا يَعْلَمُه، ويَفْرَحُ في قلبه عندما تكون مدام أُمنية هي الفائزة، وكانت تحرص- رغم تجاوزها الأربعين- أن تنفقَ الجُهْدَ. ولأن الجميع يثق به،

اسْتَحى أن يُظْهَرَ مشاعره، وجاهد الكتمان؛ وأن الكل عنده سواءٌ؛ زملاء وزميلات؛ حتى لا يَضُرّ به وبها.

وكان له رَأْيٌ في قيادة النساء، وكانت مدام أمنية هي نائب المدير، فوجد نفسه يتساهل فلم يتَرَفّعْ، أو يجد في نفسه غضاضةً أن يُطيعَها، بل قام يستشيرها في حالة تعاقد جاءته، وكان يستطيعُ أن يقْضِيَ في الحالةِ وَحَدُهُ، بَيْدَ أنه وجدَهُ يتخذها ذريعةً للقربى، ومال يُحدثها عن الحالةِ، وهي جالسةً، فارتدت للوراء قليلًا، فقال يُخبرها في غير ضغينةٍ:

"مَعْذرةً، هي رائحة الفم، يُغَيِّرها الصيَّامُ " فأسمعته كذلك:

"وهل هناك من يأنف منك." فاعتبر الجُمْلَةَ من باب المُجاملة ومعالجة الحرج، وشكرها، مُتغافلا حقيقة القصد، مُبْديًا ثباتًا شديدًا، وإن لم يسعده في حياته كلها قَوْلٌ كقولها. ولم يَقِفْ للعبارة، وتركها تمُرُّ، وقال لنفسه: انتبه؛ ليس من حقك هذا. وُحَذَّرَه: المرأة إن جُوريت خَضَعَتْ، وإنَّ من أشد الذنوب إفساد الزوجة على زوجها. وكان زَوْجُها إذا حضر- في إجازة - استأذنت مُنْطَلِقَةً إليه. فيغضب في نفسه: امْرَأَةٌ تلعب. ويقع في الحُزْنِ.

ثُمَّ ما أسرع، ما يغفر لها؛ يأْخُذُهُ حَدِيثٌ كهذا: امرأة تَعِفُّ نفسها بزوجها، أَتحجر عليها ما أنت تفعله. ويجاهد- كأن لم يحزن لغِيابِها؛ يُقْرِؤهم في كل وقت لا تأتيهم فيه حالات للفحص، يصلح باله، ويطرد الخاطرة المُحزنة. وفي الليل يجد في نومه رؤيا تطارده، مُتَكَرِّرَةٌ " مزنوقٌ؛ يبحث عن دورة مياه نظيفةً، وكلما دخل مِرْحاضًا وجده طافحًا، ووجد في عين إحداها قِطًا مَيِّتًا، محشورًا بها، فارتد يبحث عن غيره، ولمَّا قعد مُضطرًا، لأنَّه مزنوق، أخذت قطرات من ماءٍ آسنن تَسَاقَطُ عليه من السقف الراشح، فيستيقظ مُشمئزًا غاضبًا. وتقبل هي من الإجازة

مسرورة، فتجد منه صُدُودًا، إذ يمضي لا يلتفت لمحاولات اجتذابه، فقط يعِين من يستحق عَوْنه، فتضُجُّ أمام الجميع:

"لا تهاجمني، عَرِّفْنِي خَطَئي" فيَصْمِت، فَقَدْ عذبه شأنُها، ولا يجد له حَلاً. ويكون فقط كلّ ما اقترفه؛ أن يَجْعلَ كلامه معها قصدًا، ولم يظلم في معاملتها، فتأبى هي إلا مَيْلَه، أَثَرةً لنفسها. فغضب عليها ذات يوم، ووجَدَه يقْرؤها أمام الجميع: **(قُل أَندعو مِن دونِ اللَّـهِ ما لا يَنفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعقابِنا بَعدَ إِذ هَدانَا اللَّـهُ كَالَّذِي استَهوَتهُ الشَّياطينُ فِي الأَرضِ حَيرانَ لَهُ أَصحابٌ يَدعونَهُ إِلَى الهُدَى..)** كان يعلم أنها ستَفهمُ من الآية ما لن يفْهَمَهُ غَيْرُها.

ثُمَّ هو يومٌ أو بعض يوم، وتعود المياه إلى مَجارِيها، إلى درجة لم تجد صاحبتها حَرَجًا أن تعلن يومًا قائلةً:

" فلانة راضية عَنَّك اليوم." فأظهر دَهِشًا من هذه السيدة التي لا تدري ما تقول! وأخَذَ بعضَهم الضَّحِكُ، للعبارة غير المسئولة، وكتم هو سعادته؛ فمرت تلك الملاحظة عَابِرَةً.

* * *

لم يكن يخطر ببال مجاهد يومًا - ولو حَلفَ له حَالفٌ - أنّ تصريف الشأن العام، بات تصريف الأسياد للعبيد! حتى انتدب للعمل خارج ديوان المديرية بوحدة تصاريح العمل التَّابعة لوزارة الداخلية، مندوبًا للوزارة يُراجعُ التعاقدات الفردية للأشخاص الذين لا يعملون بالحكومة ولا بالقطاع العام، وكان ذلك من بين الاختصاصات الباقية لمكتب الخبرة؛ فقد ورد من الوزارة كتاب دوري رقم... لسنة ١٩٩٦، جاء فيه "تيسيرًا على المصريين المتعاقدين للعمل بالخارج، سواءً كان لأول مرة أو للتجديد، فقد وافق معالي وزير القوى العاملة والهجرة، على

إلغاء مرحلة الحصول على موافقات مكاتب الخبرة التابعة للوزارة على تعاقدات العاملين بالقطاع الحكومي والقطاع العام وقطاع الأعمال، للعمل بالخارج، على أن يُكْتَفَى بموافقات جهة العمل بالداخل على تعاقداتهم، مع بقاء اختصاصات مكاتب الخبرة الأخرى كما هي دون إلغاءٍ، وذلك اعتبارًا من ١٩٩٦/٦/١٥" فتفرق مكتب الخبرة أشتاتًا، وانْتُدِبَ هو لمعاونة هذه الوزارة التي تَأْمُرُ، ولا تُؤْمَرُ، فـي آونة نشطت فيها الجماعات الدينية نشاطًا كبيرًا، وكان منزل والدة مدام أمنية يقع بين وحدة تصاريح العمل، وبين مسجد التوحيد، المقر الرئيسي لجماعة أنصار السُّنّة، في المنطقة المليئة بالمساكن الشعبية التي أنشأتها- في عهد عبد الناصر- وزارة الإسكان والتعمير.

وكان قد ذاع صِيتٌ لبعض الدعاة، بما بَهَرُوا به جمهور الناس بأدائهم الخطابي، التَمْثيلي. فطفق مجاهد كلما ذهب إلى مسجد التوحيد ليصلي؛ يتفحص مدخل البلوك السَّكَني الواقع فيه مَنْزلُ والدة مدام أُمنية لعله يلحظ شيئًا غَيْرَ عادى ينبئ عن وجود زُوَّارٌ.

ويرسلُ بصره صوب النافذة رجاء أن تكون مفتوحةً، وَيَدُقُّ قَلْبُه سريعًا إن كانت كذلك، ويُسْرِعُ في أَخْذِ بصره عن النافذة؛ لِئَلَّا تكون مدام أمنية قد جاءت لزيارة والدتها، فَتَضْبُطْهُ للمرة الثانية عاشِقًا، وكانت قد ارْتحلت إلى مصر نهائيًّا؛ مع زوجُها. وقبل رحيلها كان قد صَدَرَت ترقيات، وصدر قرار بتعيينِها مُديرَةَ إدارةٍ، خارج الديوان، فظل يراها مُتَرَدِّدَةً حِينًا على ديوان المديرية، قبل إخلاء طرفها من مكتب الخبرة، وبدوره كان محزونًا لرحيلها وإن لم يُبْدِهِ، حتى أخلت طرفها. فمكث يَتَرَقَّبُ قُدُومها آخر الشهر إلى خزينة المديرية لتقبض؛ يجلسُ وعَيْنُه على الباب يُطالعُ وجوه الوافدات، يبحثُ عن وجهها، فضبطته؛ وكان قد توقفت عن

العمل تمامًا، فأقبلت هي فجأة، وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي نسى فيها حِرْصَهُ، فنادت فرحة، تبعث بهذه الرسالة:

" أنا هنا يا أستاذ عادل" فصاح الزميل مسرورًا بها:

" كيف الحال يا مدام أمنية؟! تفضلي."

ولم يكن في الحجرة، في هذه اللحظة، غيره وهذا الزميل، فخفض رَأَسَهُ حياءً، ولم يستطع أن ينطق بشيء، ولا أن يدْعُها أو يرحبَّ بها. واليوم؛ وكان قد تَمَّ من فترة، رحليها، بدا يتفحص كل شخص أُنثوي يلوح له، يحدوه أمل غريب لا يدري كيف! أنها قد تلوح له- فجأة - فيراها رغم ارتحالها إلى محافظة بينه وبينها مسافةً بَيِّنَةً.

وبينما هو كذلك وقع بصره على رئيس وحدة تصاريح العمل السابق؛ سيد فريد. فترك الرصيف الذي طالما ركبه قارئًا للقرآن حينما كان يعمل بديوان عام المديرية، ليعترض سبيله، إذ أبصره مُلْتَحِيًا؛ فسُرَّ سرورًا، وقال لنفسه: ما شاء الله، لقد مَنَّ الله عليه باتباع السُّنَّة في إطلاق اللحية، كانت مفاجأة مُذهلةً، وكانوا بالوحدة يدعونه، بـالشيخ سَيد، رغم كونه ضابط شرطة، ويحبونه ويُقَدِّرُونهُ، ففي بداية خدمته قتلت جماعة الجهاد والتكفير- انتقامًا منه - زوجته وابنته، فَصَبَرَ واسْتَرْجع. ولم يُعْجِبْ وزارة الداخلية؛ أنه أصبح له غَدَوات إلى مسجد التوحيد لشهود الجماعة، وأنَّه ما فتئ يقابل كبيرًا ولا صغيرًا، مَعْروفًا له أو غير معروف، إلا ابتدره بالسلام، وكان هو نفسه؛ كدارس للفقه؛ عارفًا بحديثه : وتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لمْ تَعْرِفْ. إلا أنه بات مُتوجِسًا؛ أنَّه لو أمضى ذلك، لقال جمهور المتعاملين عنه "خَفِيفَ العقل أوْ مَجْنونًا" وكان قد قُوُبِلَ بنظرات اسْتغراب منِ بعْضِ مَنْ قرأهم السّلام، وهو لا يعرفهم، واعتبر العقيد سيد فريد،

قدوةً رائعةً، يَسبح بزورقه رشيقًا ضد التيار، لا يأبه لِأي لوم، لو قابلة أهل الأرض جميعًا لابتدرهم:

" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" قال العقيد سيد فريد، بمجرد أن انتبه لعبوره إليه:

" وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وجزاك الله خيرًا." مُجاهدٌ مَسرورًا، وأردف مُبَشِرًا:

" والله، لقد مَنَّ الله عَلَيْكَ، إذ أخرجوك، لتقواك، من الخدمة مُبكرًا."

" الحمد لله "

" كيف حالك يا أستاذ مجاهد؟ " فقال مَحْبورًا:

" بخير، طالمّا رأيتك بخير. "

" جعلك الله للخير دائمًا"، فتحدث إليه مجاهد في تتابع:

" أنا سعيد بهذه اللحية، سعادة غامرة، ألف مبروك، ثبتنا الله وإياكم، لقد أسعدتني" فأجاب العقيد إجابة الخَلُوقِ:

" أُسْعِدتَ أبدًا يا أستاذ مجاهد"

فسأله عن الشأن الحالي. فأجاب:

" فتحت مكتبًا للمحاماة وقال: مكتبي في البلد، في قريتي ميت سَلْسِيلِ" وأجاب على تَحَسُّب؛ وروده الجو غير الرَّضيِّ للمحامين: أنا أسعى للصلح بين المتخاصمين أولًا، وأُنْهِى كثيرًا من القضايا بالتصالح"

جاءت وقفتهما قريبًا من مبنى المحافظة، فوق الرصيف، أمام إدارة شرق التعليمية. وبيْنما هما كذلك، أقبل شَخْصٌ، فتوجه إليه مباشرة، كأنه يعرفه، فسلَّم، وَتَكَلَّمَ مُسَمّيه باسمه، وهو ينظر إليه، يفتكر: أنَّهما لم يتقابلا، وكأنَّ قلبه أحس بها، فلاحت منه نظرة إلى سيارة استشعر أنَّه نزل منها؛ كانت السيارة قد توقفت فجأة، فأبصر بمدام أُمنية، جالسة بجوار مقعد السائق الخالي تنظر وتبتسم، فَحَزَرَه زوجها، فلم يدر ما يقول؛ وخَشَعَت له نَفْسُهُ:

"أهلا وسهلا، يا مَرْحَبًا، والله أنت وأَهْلُكَ ناسٌ طيبون، والله أذْكُرُكم دائمًا بالدعاء، كيف حال البنات"، وناداها:

" كيف الحال يا حاجة" وغَضَّ طَرْفَهُ، ولم ينظر ناحيتها ثانيةً، ورجع لرفيقيه "نِعْمَ القَدَرُ، أن أراكم جميعًا " وحتى يُشْعِرَ كون أن حبه للناس كافّةً قَدمَّ للعقيد سيد فريد: عَزِيزٌ مثلكم، وزميلٌ مهنة إلا أنه شرطة..

وطلبه للغداء، فاعتذر في تواضع وذكر: أَنَّمَا جاءا للمديرية في قضاء أوراق متعلقة بأمنية، وإنهما في عُجَالة، لأنهما تركا البنات هناك وحدهنَّ. وكان العقيد سيد فريد قد انْسل مُستأذنًا.

وحرص فترة اللقاء الخاطف، ألا ينظر- ونَفُسُه تود - ناحية مدام أمنية منذ حياها.. والغريب أنه راح يفكر في هذا الشأن كثيرًا، فوجد مشاعره - تلك اللحظة - تجاه الزوجين كانت واحدة؛ مشاعر مَحَبَّة وبَهْجَةٍ لكليهما صافية. وقدّرَ أنَّ مدام أُمْنِيَة أبصرت به، فسارعت تستوقف زوجَها، وطالبته بالنّزول إليه سريعًا، لئلا يتحرك، فيضيع منهما، وأقبل الزوج في غير ضغينة مُحيِّيًا، فجاءت وقفة السيارة فوق المطب الصناعي هكذا.

* * *

وفي ظلال الدين جلس وصديقه "أبو سارة" الذي نبَّأه بتأويل رؤياه، وأن الشيطان لا يتمثل في صورة النَّبي، جلس يتدارسان القرآن، ويراجع على هذا الأخ من تجويده، وكان أبو سارة أَمْتَنَ مَنه قراءةً، ثُمَّ تحدثا في هموم عامة، في شأن الجماعات، ونجوم الدعاة بالتحديد، حسبما ينعتهم هو، الذين سادوا واشتهروا هذا الزمان:

" هم يعملون لشهرتهم، ويتحدثون بما يُعْجِبُ الناس" فردَّهُ أبو سارة:

"اتق الله يا شيخ مجاهد، الله أعلم بالسرائر، لا تكن قاسيًا في حُكْمِكَ هكذا"، قال

"انظر إلى هذا كيف يخطب.. أيَّها الأحبة الكرام، طِبْتم وطاب ممشاكم وتبوأتم من الجنة منزلًا، وأسأل الله العظيم الكريم جل وعلا الذي جمعني وإياكم في هذا الجمع الطيب المبارك على محبته وطاعته، أن يجمعني وإياكم في الآخرة مع سيد الدعاة المصطفى في جنته ودار كرامته!" فردَّ أبو سارة:

" بشروا ولا تنفروا."

قال:

"يا أخي؛ بمثل هذا الكلام يغرون الناس؛ فيحسبون أنَّهم على شيء، والناس في حاجة إلى ناصح أمين، يواجههم بالأوجاع التي فشت فيهم، وقال: مثلًا، عندما يتكلم هذا؛ عن موت النَّبي؛ يتكلم بكلام يُبْكِي، ويَتَبَاكى، فَيَبْكى النَّاسُ ويعلو نحيبهم. وسأله: ألم يؤدِ النبي رسالته؟ يا أخي؛ الناس ليسوا في حاجة إلى البكاء، بل إلى العلم والعمل، أَمْ أن البكاء مقصودٌ لذاته، يُريحُهم به، ليغسلوا همومهم." وأردف منفعلًا:

" الناس في حاجةٍ لما ينفعهم، في حاجة أن يعرفوا (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ..) يتركون الأُصُولَ التي يتغير بها الناس، ويتحدثون بما يَغُرُّهم ويُهَيِّجُهُم. اسمع أحكي لك: بينما الناس مجتمعون في مسجد التوحيد لصلاة العصر إذ حضر هذا الداعية، وأبى ذِكْرَ اسمه؛ أَكَّدَ بمعنى يعرفه الأخ: أَشْهَرُهُم، فانَتَهزْتُها فرصةً إذ الناس قليل، فأنا أَكْرَهُ الزِّحام، وقدمه إمام المسجد لإمامة الصلاة، فلمَّا سلم وقبل أن ينكب عليه الحاضرون تقدمت إليه وكان يهَمُّ بالانـصراف:

"لو سمحت"، قال " تفضل! "وطالبني بتعجيل الحديث، وهو لم يزل مُتأهِبًا للانصراف، فطالبته بالجلوس وأومأت له، وقلت مُسْتَفَزًا:

"اجلس أود الحديث معك. وكان قد أعجبني منه، خفض الجناح وحسن الاستقبال، فلما سَمِعَ كَلِمة، اجلس، والتي جاءته من مجهول أخذه غَضَب حاول إخفائه:

"يا أخي تفضل، إن وقتي لا يسمح " واستشعرت منه استنكافًا وكِبرًا فأسْرَعَ إليَّ الغَضَبُ:

"إن كان وقتك لا يسمح، فأنا أيضًا اقتطعت من وقتي لأحدثك في شأن يخصك."

" إذًا تحدث، فأنا أسمع" وأبى ألا يجلس، وظل مُستعدًا للانصراف، فتحدثت غير مجامل له، في وضوح تام، أبلغه رسالة، وكنت أود أن أخلو به فلا يسمع بنا أحدٌ:

" كنت قد جلستُ مع بعض إخوانيِ، فاغتبنا الدُّعاة الذين هم على الساحة اليوم وذكرنا، أنَّكم تتكلمون بما يُعْجِبُ النَّاس، وتتجنبون الأمور الجادة التي تغضبهم. وأسررتها في نفسي ولم أبدها له قلت: أنتم تتودَّدون إلى الناس خشية انصرافهم عنكم. فتغير وجهه ورأيت وقع الكلام عليه كالصاعقة إلا أنه أمسك عن الغضب:

" يا أخي العزيز، أنا ما تركت مجالًا إلا وقد تحدثت فيه، تحدثت في العقيدة، وفي السيرة، وفي التاريخ الإسلامي، وتحدثت في القصص القرآني، وتحدثت، وأخذ يعدد من نتاجه الخَطابِيّ، فواصلت في مَكْرٍ، واستشعرت أن رسالتي التي عَنيتها قد وَصَلَتْه:

" وَقَعْنا في غَيبتكم ورجونا أن نتَحلَّلُ منها" وأسمعته لفظة الغيبة وأنت تعلم؛ ما الغيبة إلا ذكر المرء بما يكره وهو فيه. فوجدته حسن التلقي، فأخبر:

"عندي خطبة عيد بعد أسبوعين، فانظر موضوعًا يصلح لعدة آلاف من الناس واذكر عناصره واتني به"

كان مجاهد قد انتسب لكلية أصول الدين يدرس بقسم الحديث، والأيام أيام امتحانات، فأقصى عنه الكتب الدرَاسيةِ، وعكف فَرِحًا على موضوع يراه مُفِيدًا للناس" العِلْمُ قَبَلَ القوْلِ والعَمَلِ" لقوله تعالى لنبيه:" فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ" فبدأه بالعلم لأنه شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، ثم أمره بالعمل، واستغفر لذنبك. وقال في نفسه: إن الناس متى جاءوا يوم العيد فأرْشِدُوا إلى ذلك، رجع كلُ واحد يُفَتِشُ في نفسه، فإن وجد خيرًا، حمد الله وسأله التثبيت، وإن وجد غَيْرَ ذلك فليُغَيِّر، فـ" إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ". ونشط يُحَدِّدُ العناصر، وقال العُلَماءُ هم ورثة الأنبياء ◌َورَّثوا العلمَ، من سلك طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سَهْلَ الله له طريقًا إلى الجنة، " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ "، " وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ" وقال أهْلُ النار يلومون أنفسهم لجهلهم:".. لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" وقال صلى الله عليه وسلم: (من يُرِد الله به خيرًا يُفقه في الدين، وإنما العِلْمُ بالتعَلُّمِ) ولأنه يعمل بوحدة تصاريح العمل فترةً مسائية، ويأتي هذا الداعية لدرس الأربعاء بين المغرب

والعشاء، صلى معه المغرب، وتقدم إلى فضيلته، وقد جلس مُستقبل الناس، فلما أبصره ذَكَرَهُ فبَشَّ له، فناوله مجاهد مظروفه في صمت واستدار خارجًا من المسجد في ثبات تحت أعين الناس، دون كلمة.

وأقبل العيد وجاء الناس إلى استاد المنصورة حُشُودًا، وجلس مجاهد بينهم سعيدًا يترقب قوله على لسان هذا الداعية فاليوم يرى ثمرة جَهْد أنفق فيها يومًا كاملًا يُجَهزُ لهذا الموضوع، وكان في أشد الحاجة إلى ذلك الوقت وقت الامتحانات والمذاكرة، والآن هو غير آسف لذلك الوقت وقد نصح لهؤلاء جميعًا وأجْمَلّ، وعقب صلاة العيد، وبلسان فصيح، ونبرة صوت فضية تُجَلْجِلُ انطلق هذا الداع يحدث:

"أحبتي في الله، صفحاتٌ سودٌ من تاريخ يهود، هذا هو عنوان لقائنا مع حضراتكم في هذا اليوم الكريم المبارك، وكعادتنا فسوف ينتظم حديثنا مع حضراتكم تحت هذا العنوان في العناصر التالية: أولًا، اليهود ومراحل الصراع، ثانيًا: أسئلة مريرة، وأخيرًا، ما السبيل؟ فأعروني الأسماع والقلوب جيدًا، ومكث مُجاهد مهمومًا وهو يَسْمَعُ، لماذا نسيت الأمة تاريخ اليهود؟ سؤال يحتاج إلى جواب، الجواب، احفظه جيدًا أيها الأخ الكريم، عُضّ عليه بالنواجذ، الجواب في كلمات قاطعة محددة، لأن المؤامرة على هذا الدين، وعلى هذه الأمة قد حُبكت تعليميًّا وإعلاميًّا حبكًا دقيقا مُحْكمًا، انتبه أيها الحبيب، وضعوا المناهج الدراسية والتعليمية لنا وضعًا دقيقًا ولأبنائنا فَشَوّهوا العقيدة، وزيفوا مفهوم، لا إله إلا الله، وَنَحَّوا عن الحكم شريعةَ الله، وشَوَّهوا التاريخ الإسلامي، وَجَدُّوا في هذه المناهج الجاهليات الأرضية، مجدوا جاهلية حُورس، وجاهلية مِينا، وجاهلية خُوُفو، وما أدراك ما خوفو؟ أنهم ما زالوا يعبدون خوفو، عَلَّمُونا في هذه المناهج، أنّ ماجِلان عبقري، وبطل كل زمان، ولم نعلم أنه هو الذي أضرم في المسلمين النيران،

علمُونا أن العلمانية هي الصراط المستقيم، من يعرض عنها.." فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا الآية "علمونا أن التمسك بالدين رجعية، وأن التمسك بالدين تخلف، وأن خليفة المسلمين هو الرجل المريض، عَلمُونا فلسفة الشك منذ نعومة أظفارنا، وحَفَّظُوا لنا: أنا أشك، إذًا أنا موجود، ولو صدق المُجْرِمُون لقالوا: أنا أشك، إذًا أنا دبوس، علمونا منذ اللحظات الأولى في هذه المناهج الدراسية حُب جُبْران ونيتشه السوبرمان وشكسبير، وسارتر، وسيمون، وكل الوجوديات وما بها من أفكار، وأن هؤلاء هم الذين"يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ.. الآية " علمونا كيف يكون الاستسلام بذُلٍّ وعار، بل كيف يكون القبول للخروج من الأرض والديار؟!

ولا يزال مسلسل خروج المسلمين من الأرض مُستمرًا إلى هذا النهار، لا يزال مسلسل الخروج مُستمرًا إلى هذا اليوم، بدأت أُولى حلقات المسلسل، مسلسل خروج المسلمين من الأرض، في بلاد الأندلس، ثم في بلاد مُورُوا، في الفلبين، في البخاري، في طاشكان، في طاجستان، في تركستان، في كشمير، في الصومال، في البُوسنة، في الشيشان، في فلسطين، ولا يزال المسلسل مُستمرًا إلى الآن، إنه مسلسل دقيق كنتاج مسلسل دالاس ولكن الفارق بين المُسَلْسَلَيْن أن مسلسل خروج المسلمين من أرضهم وديارهم لا تتحرك له مشاعر الرأي العام العالمي، ولم لا؟ وقد وُضِعَ هذا المسلسل بدقة، إنه تأليف وسيناريو، الصهيونية والصليبية العالمية الحاقدة، ومن ألحان أبناء الماسُون، وأتباعهم من العلمانيين، ومن إنتاج وإخراج الفاتيكان، والهدف من هذا المسلسل، إخراج المسلمين من دينهم أو من على سطح الأرض.

* * *

وبعد فترة غياب طويلة جاء أبو سارة الربْعَةُ المتينُ، يشكو بثَّه وحزنه:

"أُحِيطَ بـي يا شيخ مجاهد"

"مِمَّن؟! " فضَحَكَ ومال ليُسُرَّ إِلَيه:

"يا شيخ مجاهِد، وِهو فيه غيرهم، الإخْوَان" وانتفض بيَدِهِ تِلْقاءَ وجهه يُيْقِظَهُ إلى شدة خطرهم.

" شَغَلْتَ نفْسكَ بما ليس منه طائل"

"وكيف لا أنْشَغِل، وفي كل مَسْجد تدخله تجدهم عُصبةً، وتابع أبو سارة: في المسجد تلاقيهم، في الشارع تلاقيهم، في العمل تلاقيهم، يخرجون لك من كل جانب، وضحك، ناقص الواحد يفتح صنبور الماء فينزل لَّك منه إخواني، وتابع: وإن كنت أعلم من في الأرض – ولست فيهم – لا يُنظرُ إليك، وإن كنت فيهم، فأنت العَالِمُ الفقيه، لَيِّنُوا الجَناح لبعضهم البعض، يسألون عن بعضهم خارج المسجد." فأرشده وبكته لغيابة وعدم التزامه بجلستيهما لمراجعة حفظ القرآن:

"مُحافظتُك على وردك، وقيامك بدرسك، يجعلك في غِنىٍّ، أنا لا أَجُدني في حاجة إليهم. وقصَّ عليه من مشكلة زوجته- وأهْلُها جيرانه، وأخوها سيد يَعْرِفُهُ، كيف يحاربه الإخوان فيها قال:

فلانة، زوجته أميرة، وحيدةٌ على ذكرين مُدَلَّلَةٌ، فلمَّا أراد أن يُطلق لِحْيَته اعترضت، وكانت إذا جلست إلى طعام-وهي صغيرة- ورأته يَنْفَدُ أَقَصَتْه عن أَخَوَيْهاً: سيبُوني يا أوْلادِ الـ...، وكان أخوها سيد الذي فوقها، يجيد التعامل معها؛ يسارع في هواها: مَـاتِّسِيبُوها؟ فيضحكون ويتركوا لها الطعام فإذا اقترب هو، تركته- عن طيب خاطر-يَأْكُلُ معها، وقال: ورغم علمي بهذه الصفة لم أُجِدْ التعامل معها، فَكَثُرَ بيننا الشجار، فسافرت، فأطلقت لحيتي، فلما جاءتني، ورأت سهولة إطلاق اللحية في السعودية وفعلتها قبل مَجيئها، أضعها أمام الأمر الواقع، سكتت. وقصَّ: فلمّا تأخر الحَمْلُ، كثرت ◌َشَكْوَاها، وردَّدَت: ما أنام فيه أصْبحْ

فيه، أنا أشعر بالملل، أنا أشعر أن ليس لي فائدة. ورجعنا من السفر بعد عام واحد، لمْ نُعمِرْ. فسعيت بها فانتسبنا إلى معهد إعْداد الدعاة- معاهد أُنْشأتها وزارة الأوقاف لسد عجز الدعاة، وتسيطر على المساجد، وتُغْلِقُ الباب أمام جماعة الإخوان، فاستبق الإخوان كعهدهم تلك المعاهد- زوجتي من خريجي ٨٦، تلك الدفعة التي عَيَّنَت الحكومة نصفها، وتركت النصف الآخر يحرقهم الأمل للتعيين، فتعرفت على زميلتها بالمعهد فاطمة- وكان مجاهد قد سبقهم بعام، وسبقه يا أبو سارة بعام- فعرضت عليها فاطمة العمل معها في حضانة تنمية المجتمع فالدراسة بالمعهد فترةً مسائية فرفضت:

" أنا لا أعرف كيفية التعامل مع الأطفال"

وشعرت الزَّوجة، أنه عمل دون المستوى، فبعد الجامعة، ودراسة ستة عشر عامًا تأتي لتعمل مدرسة أطفال، وكانت لا تزال تَأمل في تَعْيِين الحكومة، فأوضحت لها فاطمة أنها حاصلة على بكالوريوس هندسة، وأَوَّل ما عَمِلتُ عَمِلْت مدرسة فصل، وهي الآن مديرة الحضانة، وشجعتها، وفاطمة زوجَة أخٍ من الإخوان؛ كما تعلم، مجاهد لأبي سارة: ومنهم أعضاء في مجلس إدارة جمعية تنمية المجتمع التابعة لها هذه الحضانة- شقة ثلاث غرف بمنافعها بالدور الثاني فوق الجمعية الشرعية ولكثرة الإقبال على هذه الحضانة جُعِلَتْ الصالة فَصْلًا رابعًا- وجميع العاملات مع فاطمة من نساء الإخوان ومواليهم، إلا أنهن جميعًا من ذوات المؤهلات المتوسطة، فلما تركت الأخت فاطمة الحضانة، وجاءها سَعْدُها لتعمل بالحكومة، مدرسة بالتربية والتعليم دبت المشاكل بين زوجتي، وبين نساء الإخوان، نازعْنها الإدارة وقلنَّ:

"كل واحدة تمسك الإدارة شهر، وجاء موظفو الشئون المشرفين على الحضانات فقالوا:

"لا يصلح للإدارة إلا ذوي المؤهلات العليا" فآلت الإدارة لزوجته فمكرن مكرهن نساء الإخوان، فإذا رأيْنَ أمين الصندوق ذاهبًا إلى عمله أو عائدًا منه وهو أخٌ صِحْنَ لامزات:

"يا أبْله، تريدين الأستاذ محمود؟".. وإذا ذهبت في شأن من شئون الحضانة خارِجِيّ، قُمْن بمخالفات، وخلّفن الأطفال، واجتمعن يتحدثن. وقال واسترسل يقص لأبي سارة من أفعال الإخوان:

"وأسفل الحضانة، يا عزيزي، بائعٌ سمك وجَمْبَري" وابتسم وضحك أبو سارة، فلما عادت الزوجة وجدت العاملتين تركتا أماكنهما وجلستا في المطبخ يُقَشرْنَّ الجمبريَّ فصاحت: ما هذا يا أم وائل، ما هذا يا فاطمة؟ سايبين الأطفال، وقاعدين تقشروا جَمْبَري، فدافعت أم وائل عن نفسها:

" جَمْبَري الأبلوات، واحتجت الأبلوات:

"العمال قاعدون لا يعملون شيئًا، وما فيها، هُمَّ قاعدون في المطبخ بعيد عن الفصول، هنَّ لِبْلِب في تقْشيره، لا يأخذ في أيديهنَّ ثانية، واَسْترْضِيْنها يا عم:

"لا تحبكيها يا أبلة، خليهم ينزلون يجيبون لكِ كيلو يُقَشرُوه لِكِ مَعَناَ،

"هو أنت لا تشاهدين أفلام التليفزيون، طيب روحي اتفرجي على الموظفات في المصالح الحكومة والأَبْلواتُ ماذا يعملن! في المدارس يأخذن البِسِلة والبامِية يِقَرَّنّوها في الفصول، فَخَضعت. فضحك أبو سارة: وكانت المشاكل قد استمرت بينهن وَقْتًا طويلًا فلما رجعت إليَّ أرشدتها:

"اسْتَدْرِجْنكِ. وقلت: لِينِي إذا لِنَّ، ولكن في غير مخالفة. ومَنَعَتْ الزوجة فغضبنَّ، ورجعت المشاكل، واشتدت لمَّا دخلت فوجدت المدرسة قد تركت الأطفال، والذباب حولها يملأ الفصل، وجلست تُقَشّرُ الجَمْبَري:

"ماذا تعملين يا أبلة؟ " الزوجة

"سأقدم فيكي شكوى للأستاذ محمود. ورئيسُ مجلس الإدارة يقيم بالمدينة، فلا يحضر، وسكرتير الجمعية ليس منهم فلا يجعلوه شيئًا، ولا يظهر إلا أمين الصندوق محمود، فمال وهو أخٌ إلى الحق، وكان لم يُعْرفْ للأمن بعد، فقلن له:

"وهِيَ أحضرت معنا جَمْبري، وِالعاملات قشرنَّه لها" فقالت زوجتنا العزيزة:

"يا أستاذ محمود ورَّطُوَنِي، ولم أكن أفعل، ولمَّا حَدَثَ حَدثَ في المطبخ، وأنا بعدها منعت، لكن وصلت أن الأبلة تُدْخِلْه الفصل وسط الأطفال والذباب حولها يملأ الفصل، ذلك ما لم أسمح به، وطلبتْ منه أن يُحَلِفهُنّ فلم يُنْكِرْن، فأغْلِقَ الأستاذ محمود المحضر، وأعلمهن:

"لازم تأخذنَّ جزاءً" واسترسل مجاهد يقص لصاحبه:

"تخيل في اليوم التالي أقبل أخٌ آخَرٌ، بيده أوراق التحقيق لينقلب على زوجتي:

"ليس هُنَّ من سيأخذْنَ الجزاء، أنتِ اللي لازم تتركي الحضانة وتمشي، فَقلتُ لها: اثْبَتـي، ومتى عاد قولي له:

" بأيّة صفة تُكلمني؟" فلم يعرف كيف يجيب؛ ولم تَرَ له بعدها وجهًا، أَمَّا هذا الـ محمودُ أمين الصندوق، ففص ملح وذاب، اختفي تمامًا، وقال لمن جاء يبثه نجواه:

"كلهم كذلك، يُقالُ لأحدهم تقدم فيتقدم، تأخَّرْ، يتأخر، مهما كان" فصَدّقه أبو سارة مُبتسمًا:

" أي نعم."

قال:

"وغَضبتُ أنا أشد الغضب، أن يقبلَ نفرٌ من هذه الجماعة التي تزعم أنها قامت من أجل الدين، ليرهبَ امرأةَ جُرمُها الوحيد أنها ليست من نسائهم، وأن زوجها ليس منهم - وكان أبو سارة يعرِفَ هذا الشخص؛ فرعٌ طُوّالٌ، ضاربٌ بطوله حتى السقف - ورغم أن مجاهد لم يتشاجر عُمره والمرة الوحيدة التي فكر أن يستعمل قبضته استعملها ضد شاب ظنه يتحرش بفتاة فنالت قبضة الشاب أنفه، وكانت هي الأسرع، فأراد أن لا يدعه، وفجأة انحطت قواه، لم يعاقب الشاب، وعَلِمَ أنَّه أخرس، قال: علمت أنَّ الله لم يخلقني لـهذا، إلا أني على مثل اليقين الآن أني لو شاهدت فرد الإخوان هذا لن أدعه حتى أخضعه أو أُقْتَلَ دونه، فدهش أبو سارة من فرط المفاجأة:

"ما هذا يا شيخ مجاهد، أيشاهد العوام المشايخ يتشاجرون؟! "

أجاب:

"يا أخي إذًا لم يخف المرء من الله، خُوِّفَ بغيره، فردَّ أبو سارة:

" لا يا شيخ مجاهد، ما ينبغي بأهل الإيمان أن يفعلوها، ثُمَّ إن مقامك عندي أفضل من ذلك."

قال:

" إذن نرجع لأصل حكايتك؛ اهتم بوردك، يثبت الله به فؤادك، وبالدَّرس تجدك في غنى عن الإخوان وعن غير الإخوان، كـأخيك يعني نفسه، وقال يستنهضه للقراءة وقد مضى من الوقت كثيرًا، فجلسا يحكيان:

" أَبدأ أنا، أم تبدأ أنت؟ ولأن أبو سارة يَعْلَمَه يُمَسك جيدًا بجميع القرآن، يحافظ على ورده، أشار ضاحكا:

" ابدأْ أنت؛ أنت الأستاذ"

* * *

الفصل الثاني

اتّصَلَتْ مدام أُمْنِيَةُ، ففرِحَ قلبه:

"كيف الحال يا حاجّة، والله أذْكُرُكُم دائمًا بالدعاء." وشَدّ على قلبه؛ وبالغت هي في الإكرام:

"يا رب يكون من نَصِيبْنِا "

" كَيْف حال الزوج، والبنات؟"

"عَمَلْنا عُمْرَةً"

"تَقَبَلَ الله، والله خَبرٌ طَيبٌ، أسعدني كثيرًا"

" كُنْتُ عارفة أنه يِسْعِدَك، لأجل هذا اتصلت، والغريبة أني افْتَكَرْك في هذا المكان، افْتكرك وأنا عند الكعبة، تَخَيَّل!"

كانْ قد رَآها في منامه؛ تنزِلُ بقدميها إلى شاطئ بحر عريض، ومن وراءها تسطع الأمواج تحت أشعة الشمس، قدماها في المـاء إلى الكعبين فقط، أما ذيل فُسْتانها الفضفاض الزَّاهي فراحت الريح تجذِبُه إلى الماء، فتركته، وراحت بمحيّاها البَهيج تتطلع إليه هو في شوق، ترسل بطَرفها ناحيته، بينما هو مُستلقي على ظهره فوق سرير، ناءٍ عن البحر ليس حوله شيءٌ، ولم يدر لِمَا استلقى

كذلك، والذي يدريه جيدًا، أنه كان عارف بموضعها، فأمسك طرفه عن النظر ناحيتها؛ يذوب حياءً لاستلقائه كهيئة النائم، وليس هو بنائم، ويَعْلَمُ بها. فَأَوَّلْ البحر بالدنيا، وأنها مُتَسَعَةٌ لها بَهيجَةٌ، وإنها لمَزْرُوعَةٌ فيها بقدميها، وتُرِيدُهُ، فقال يُحَرِّضُها معاودة الاتصال:

"اتصلِي، كلما أردتِ شيئًا في الدين" فابتهجت:

"أخشى الإزعاج"

"الكُلُّ يتصل، وأنا أحب الاطمئنان عليكم"

"مُتَشكِرة يا أستاذ مجاهد"

"على ماذا؛ العَفْو، سَلّمي على البنات والزوج"

كان يستشعر أنَّ الزوج يَتَحَاشاه وهو ما يمنعه من الاتصال كلما هَمَّ به، وهي مَراتٌ كثيرة، فما عَسَاه أن يجيب، لَوْ رَفَعَ السماعة، فوجده، وَقِيلَ له، ماذا تريد؟ إنَّ نفسي تسقط إلى الأبد، ويقع في الغم يُحَدِّثُ: ماذا لو تَعَارفَ الناس؟ هي عنده، وأنا لن آخذها منه، لَيّته اتخذني صديقًا، ليس حتمًا كي يعرف الشخص أن يكون قريبه؛ ما أغبي التقليد. لو جَعَلَها صَداقَةً، لَرَحُم الشوق، ويكون الوِئام. فلولا الوئام، لهلك الأنام، أَمْ هذا هو قَدرُنا؟

وكانت العلاقة بينه وبين زوجته قد فسدت من كُلِّ جانب، وكان يجاهِدُ في محبتها إلا أنها باتت تحمله كل مصائبها، وما يلحق بها من أذى الإخوان، وكل ما يتحصل بينهما الآن ليس إلا ما يَغُضُّ به بَصَرَه، وحتى هذا فقد دخله الفساد، فبعد أن كانت لا تبيت حتى تسأله: ألك حَاجَةٌ؟ باتت تُشاكس: أهذا هُوَ كل شيء عندك؟ أنت لا تفكر إلا في مصلحتك فيقول في نفسه: كأنَّ هذا ليس في مَصْلَحَتِها أيضًا،

وتسدل كلَّ ستار، تذْهِب عنهما كُلَّ شعاع؛ لتغرق الحجرة في ظلام دامس، بزعم أن الشقة مُرَاقبةً، وأن هناك كاميرات تُصَوِّرُ.

وكان قد حُبِبَ إليه النَّظَرُ؛ فَيجادل ليبطل حُجَتَهَا: إذا كنت حقًا تَزْعُمِينَ أن الشَّقة مُراقبة، وأن بها كاميرات، فتغرقينا في هذا الظلام، فأنتِ تَرِدين الحمام وَضَحَ النَّهار، وأنتِ هناك لا تفعلي شَيئًا، أليست المراقبة تطول الحمام؟ فلا يجد ثَمَّ إجابة، إلا أن تتهمه:

"أنت لا تَمْلِكُ إلا الجَدَلَ، أو تُجِيبُ كذلك:

"لا أريد أن نرجع إلى الحديث في هذا الموضوع حتى لا نتَشاجرُ، فيسقط خائرًا، وينشأ يُجاهِدُ في تغيير هذا الجو الناكد، يُرَضّي نفْسَه بنَفْسه: السُّنةُ الالتحاف وتَرْك التَّعريِ والنَّظَر. وكان قد صدر قرار المحافظ بِحَل مجلس إدارة جمعية تنمية المجتمع التابع لها الحضانة، وَتَعَيّينَ الأستاذ عمر، موظف الشئون، ليقوم بمهام المجلس المنحل؛ ولأن الإخوان بطرقهم يعلمون ذلك فور صدوره استبقوا الأحداث فجاءوا بشخص منهم فَعَيَّنُوه مديرًا للحضانة، وقام هذا الشخص بالتوقيع في كشوف الرواتب بتاريخ سابق، وكذا في سِجِلِ الحضور والانصراف، وقالوا للزوجة:

"الأستاذ فلان هو مدير الحضانة"

فقالت للأستاذ رمضان؛ سكرتير الجمعية:

"لا يصح يا أستاذ رمضان، واحد يبقى دِبْلُوم، تُحْضِرُوه، وتْعينوه، ليمسك الإدارة، لأجل ما أنا أدخُلُ الفصل"

" لن أتْركَ الإدارة، عاوزين تعيّنوه، عينوه يُدْخُلْ الفصل"

"يا مدام، ما ينفع أن ندخله فصل، بِدَرس وِسط الحريم"

" وينفع يُقعد في الصالة يتفرج علينا، ونحن داخلون ونحن خارجون؟"

" يا مدام، الأستاذ فلان هيمسك الحضور والانصراف، ويصرف أمور الحضانة مع الشئون الاجتماعية، ومع التأمينات، ويلبي لكم كل طلباتكم الخارجية"

كان رمضان سكرتير الجمعية، واجهة فقط، يَظْهَرُ ويغيبُ كلما أريدَ منه ذلك، فهو الجامع للتبرعات، المُحَصِّلُ للإعانات، المتعامل في تخليص كل ما يخص الجمعية والحضانة من مُعاملات مع الغير، باختصار واجهة مُصَدَّرُة للحكومة، فلما حضر الأستاذ موظف الشئون- عمر- سَلَمَ للمجلس المُنْحل صورة من قرار المحافظ، وقال:

"يا مدام أميرة، قرار تعيين فلان مديرًا للحضانة باطل، وتابع: لا يَصِحُ للمجلس المنحل قانونًا تعيين أحدٍ أو فصل أحدٍ في هذا التاريخ، وسلمها قرارًا بوقفه عن العمل، وقال يسألها:

"هل هذا توقيعك؟!"

" نعم."

" أتعرفين ما هذه؟"

"استمارة التأمينات؛ مَضَّانا عليها سكرتير الجمعية، الأستاذ رمضان"

قال:

" يا مدام هذه اسْتِمَارة ؛٦ استمارة فَصْلِكْ مِنِ الُّعمل، وتابع: عمومًا، أنا خاطبت التأمينات في شأنك، أنه لا يتم الاستغناء عنها، نظرًا لحاجة العمل إليها. فَبُهِتت:

" لأجل هذا، كانت الأبلوات كلما شاهدن الأستاذ رمضان قُلنَ: فيه هناك أخبار عن استمارة ٦ يا أستاذ رمضان، يستهزئن" فطلب منها:

" اكتبي طلب، برفع دعْوى بالغِشِّ والتدليس"

فقمن، نساء الإخوان العاملات في الحضانة بإشاعة، أن مديرة حضانة جمعية تنمية المجتمع أميرة وزوجها، فردا أمن، وعَرضْنَ بهما، فمسها الوَسْواسُ، وارتابت فأقبلت تسأل زوجها:

"هل صحيح أنك فرد أمن؟"

واستدركت؛ بغباء تسأله؛ بعد نظرته الغاضبة:

"فما معنى أن يُقبضَ على الإخوان، ولا يقبض عليك؟" فلم يرد؛ فتابعت تسأل حائرة، وقد رأت منه الثبات:

"طيب لما يقولون عليك ذلك؟!" فكظم غيظه، وانقطع التعامل بينهما كزوجين ليالٍ عديدة.. وفجأة، أخذها الاضطراب، واستولى عليها هاجس أن الشَقَة مُراُقبة وأن بها كاميرات تصوِّر، فجدَّ في اقناعها: "تعالي نَقلِبُها ظَهْرًا لبطنٍ، لِأُبينَ لَكِ"

فضحكت؛ في شك:

" وِهيَ الحكومة هتغلب؛ أكيد يُخْفون الكاميرات. "

وانْتَهَتْ فترة انتداب موظف الشّئون، فانْتُخِبَ مَجُلِس إدارة جديد للجمعية وجيء بـالعُقْدَة عضوًا مِنَ الحِزْبِ الوطني، أمينًا للصندوق، يُعْرَفُ بمَيْلَه للنساء فدخل في عِبه نساء الإخوان:

" كل واحده تمسك إدارة الحضانة أسبوع يا أستاذ فلان، وقَلَبْنَه على زوجته، أخذها وذهبا إلي رئيس مجلس الإدارة، فقال في عودة حقها المسلوب:

"اصبري العقدة هـ يِتْغَيَّر. الأيام هذه أنا مشغول، لا أنزل إليكم فتحدثت تحكي له عن أوضاع الحضانة.. فقال:

"كل هذا سيِتْغَيَّر، لكن اصبري."

"يا أستاذ فاروق، عاوزني لمَّا يجيء أقوم، ويقعد هو على المكتب، ويقعد يِفْرِد"

"يا أستاذ فاروق، ينفع كل واحده تمسك الإدارة أسبوع وأنا الوحيدة المؤهل العالي." فتحدث هو؛ وعَرّف لنفسه:

" أنا الزوج. يا أستاذ فاروق، بغض النظر عن أن نظام الحكم المحلي، ولائحته التنفيذية تعطي للزوجة حق الإدارة، إذا تفرقت المسئولية ضاعت المحاسبة" كان الأستاذ فاروق مُهَذَّبا، من الملاك الجدد للأراضي والعقارات، وكانا قد ذهبا في إثره كثيرًا حتى عثرا به، وأشار لهما بَوْابُ العمارة إلى سيارة حديثة:

"هذه سيّارته" وأكد لهما:

"وما دامت السيارة هنا، يبقى هو هنا، اطلعوا للدور الأول علوي، هي شركته شركة لتجارة الأراضي والعقارات" باختصار وجدا الرجل مشغولًا بتجارته، فرجعا من عنده بلا فائدة. ولمَّا أن أرادت إحداهن في نوبة إدارتها، أن تؤخر زوجته عن ميعاد الخروج، أخرجت الأطفال، وتركت لها الدفتر ونزلت. وطفقت بعدها أيامًا؛ إن وجدت الدفتر في المكان المخصص له؛ فبها ونعم، وإن لم تجده دخلت وخرجت من غير تَوْقِيع، فأرسلت المديرة المنوبة العاملة في إثرها:

"تعال بـتقول لك الأبْلة رِحَاب، وَقَعِي حضور"

"لن آتِ، خلِّيه ينفعها" فأقبل العقدة.

" يا أبله، لِمَ لا توقعين في دفتر الحضور والانصراف؟ " وأردف

"يا أبَّلَه ذا غلط."

"وهل سنتحايل عليها من أجل أن تخرج لنا الدفتر" وكانت لا تُعِرْهُ التفاتًا، وكلما قال لها شيئًا رَدَّتٌّ فأحرجته، فجاءها بموظف الشئون يشكوها إليه:

"يا أبله أميرة، لا يصلح أن تعامليه بهذه الطريقة."

"يا أستاذ عمر لا ينفع معه إلا ذلك"

فلمَّا أخبرته؛ سألها عن السبب، ذكرت أنه كلما جاء، يترك الجلوس أمام المكتب، ويسحب الكرسي، ليقعد في الطريق، فاتحًا رجليه، ليلامس بهما الداخلة والخارجة، وإذا ناولته إحداهنَّ شيئًا حاول لمسَّ يدها، فغضب كزوج أشدَّ الغضب:

"أريحينا من الإخوان، ومن الحزب الوطني، ومن هذا السيّئ- العقدة- واقعدي في بيتك مُحْتَرَمَةً" ودعا "اللهم انتقم منهم جميعًا." قالت

"آه، وَارْجَعْ ثاني للوحدة"

"عندك دعوتك، اهتمي بمراجعة ورْدِكِ"

"طَبْعًا، وماذا تقول غيره! ما أنت بـ تخرج كل يوم وتتركني هنا للوَحْدَة"

"اهتمي بوردك. بَدَأْنا بالحفظ مَعًا، وختمت أنا القرآن منذ سنوات، وأنتِ مَحلك سِرٌّ، بل أغلب ما حَفِظْتِيه نَسِيْتيه"

"شَغَّلْنِي في الحكومة!" فَضَحِكَ رغمًا عنه

"أنت فَكْرانِي وَزِيرَ القوى العاملة."

"أنت عندهم أَهَمّ"، تُلَمحْ أنَّه أمَن دولة.

"عند مَنْ؟" فسَكَتتْ، فاستشاط منها غضبًا.

فلما ذهبت لإخلاء طرفها من الحضانة احتج عليها العُقْدَةُ

"وصلني أنك سلمت الحاجات التي كانت معك للأستاذ فاروق" فاحتجت عليه

" أوليس الأستاذ فاروق رئيسًا لمجلس الإدارة؛ أم ماذا؟!"

وقالت:

"أعطني إخلاءَ الطَّرف"

"ربنا يسهل. الأسبوع القادم تعالي خُذيه"

فظلا يجريان وراءه أسابيع، فاشتكى مجاهد لأبي سارة

"يا أخي، ألك تعامل مع هذا المدعى العقدة؟"

"منذ ثلاثة أسابيع وهو يُركُضْنا وراءه. تركنا له وللإخوان الحضانة، ولا يريد أن يسْتَحْي فيعطي الزوجة إخلاء طرف" فأرشده أبو سارة:

عليك بفلان- جار حَماكَ - عضو معه في الحزب الوطني، ويعرف كيف يتعامل جيدًا معه. فقام يسأله عن حاله:

"دعنا من هذا العُقْدة. طَمْئني أنت عن حالك أنت" فألقى بهذه القذيفة:

"أنا دَخَلْت الإخوان.. انْتَظَرَ مجاهد مَلِيًّا فلم ينطق بِبَنَت شَفَة، كانت الجملة صادمة، فأقسم له غير حانث:

"والله، أنت عندي أفضل منهم جميعًا، لكني لم أجد لي معهم حِيلة حاربوني في كل مسجد أذهب إليه؛ وضيقوا عليَّ؛ وحَرّضَ عَلَيَّ زوجتي عُمُّها الإخواني، فأرسلتها إليهم، وتركتها عندهم شُهورًا للتأديب. ولمَّا عادت، عادت لتنقلب عليَّ، فأوشكت أن أطلقها، لولا ضراعة الأولاد" فتحدث مجاهد كالحالم، وكان لا يزال صامتًا

" ليس المهم أين تكون، المُهم أن تنصح لله عن إخلاص وعلم، ويرتفع بك الشأن أينما كنت."

وكانا قد اتفقا، أن يجلسا معًا، ليستعيد هذا الأخ ما تفلت منه من قرآن، ويتعلم منه هو مخارج الحروف، وَحُسْنَ القراءة، ومن ناحيته، أَلْزَمَه على دوام بالمراجعة، وكان ذو همّةٍ، فقرر جُزْءًا كل يوم، فَتعَثَّرَ الأَخُّ، فقررا نِصْفَ جُزْءٍ، فَرُبعين، فمكث الأخ يتعثر عند المواطن التي تفلَّتَتْ منه تمامًا، فطاوعه في النهاية إلى النزول لربع واحدٍ كُلَّ أسبوع، ففتر اللقاء، وانقطعت الجِلْسَة، ثم أقبل اليوم ففاجأه، وكان يحفظ لهذا الأخ معروفًا؛ أنَّه أَوَّل من أصْعَدَهُ مِنْبره، يَخْطب مكانه، ويواجه الناس منه، وكان هذا الأخ يخطب قبل الالتحاق بمعهد إعداد الدعاة. ولما تخرجا من المعهد، وجاء ترتيبه الأول على الدفعة – بامتياز- وذكرت له إدارة المعهد أنهم يلحقونه بمجال الدعوة بالخارج: المطلوب منك تعلم اللغة الإنجليزية، وتجهيز نفسك، فتكون على أتم الاستعداد بها كتابةً ومحادثةً. فعكف سنةً كاملة يتعلم الإنجليزية، ولمّا راجعهم للشأن، وأنه الآن جاهزٌ، يُجيدُ الإنجليزية كتابةً ومحادثةً، ردَّ شيخ المعهد:

"عليك بالسفر إلى القاهرة، ومتابعة الوزارة شهري كذا، وكذا، وَحَثَّهُ بالبحث عن قريب له بالقاهرة يقيم عنده، فإذا جاءت تلك الفرصة اقْتَنَصَها، ولم يكن له

بالقاهرة أَحَدٌ، ولا معرفة له بدروبها، ولم يبق عنده ثقة في وزارة الأوقاف، ثمَّ هو موظفٌ وصاحبُ بيتٍ، فكيف ينقطع مدة شهرين عن عمله وعن بيته، وكيف يعيش؟ ففترت هِمّةُ السَّفر للدعوة إلى الله بالخارج. وما تلبثت أن ماتت اللغة عنده، ومات الأمل في السفر للدعوة في الخارج، وانتهى به الشأن إلى التَّرخِيص على مسجد أهلي، باشر من خلاله الدعوة؛ ولأنه ذو عقيدة، ويعمل بما يعتقد؛ إطالة الصلاة، وَقِصرَ الخطبة؛ وأن كَثْرَةَ الحديث ينسي بّعْضُهُ بعْضًا، ففرحت العامّة: الشيخ مجاهد يِقْلب، وأذَاعُوا به: آه لوْ يُقَصّرُ في الصَّلاة، كما يُقصِّر في الخُطْبَة، يبقى ما له زيّ، وكان قد مضى يفسر لهم سُورَ القرآن ويعرفهم بها. ولأن أعضاء مجلس إدارة المسجد يجيئون، من بعد العمــل، فيجلسون على قهوة لصق المسجد، يدخنون، ويلعبون الطاولة، والدومينو، ويخوضون في الشأن العام، تسامَعوا بداعية من النُّجوم الجُدُدِ اشتهر بشتمه للحكومة ولوزير الإعلام خاصة الذي طال مُكثه وزيرًا للإعلام أحقابًا، يكرهه الناس، فرغبوا في مشاهدة هذا الداعية، وسماع ما يقول فيه، فأعلمهم مجاهد وهو كاره:

ليس عندي مانعٌ، لكن اذهبوا إلى الأوقاف فأتوا بتصريح له، ولا تؤذونني، فذهبوا وعادوا، وكان مسئول الدعوة بالأوقاف قد حذَّره مُشَدِدًا: إن مَكَّنَ هذا الشخص من صعود المنبر، سَيُسحب منه الترخيص، وكان عند أمن الدولة مَسؤولٌ. فقال له القائمون على أَمْرِ المسجد:

"ومِن سيذهب فيقول للأوقاف! ولن يجرؤ أحدٌ أن يذهب إلى أمن الدولة فيخبرهم."

وقالوا:

"يا شيخ لا تخَفْ، الموضوع كله سيَمُرُّ بسلام، واحتجُّوا: ثُمَّ ما دخل الأوقاف والمسجد أهلي، ونحن من استدعينا الشيخ فلان نريد سماعه"

"يا جماعة، قلت لكم ليس عندي مانع، هاتوا من الأوقاف تصريح له" "يا جماعة، المشكلة ليست عندي، الأوقاف حَذَرتني بسحب ترخيصي، أتضرونني؟، وتوْفِيقًا للأوْضاع أعلمهم: تعرفون أن خطبتي قصيرة، سأجعلها عشر دقائق فقط، وأنزل فأصل بالناس، وأترككم مع هذا يحدثكم إلى الليْل إن شئتم"، ولم يُطق ذكر اسْمه فمضوا يُلِحُّون عليه:

"اطمأن يا شيخ! الأوقاف لن تعرف شيئًا، والموضوع سيمر بسلام"

ولم يصل معهم إلى شيء، فبات بشر ليلة، يَلْعَنُهُم في نفسه، وَيَلْعن القائمين على وزارة الأوقاف، ويلعن هذا الذي يعلم؛ أنَّ السنّة ألا يتقدم على الإمام الراتب أحدٌ إلا بإذنه، وأنه ما أذن له، ولا دعاه، ولا يرضى منهجه، ثُمَّ يجيء فيوقع بيني وبين هؤلاء العَوَام العداوة. وكان مسؤول الدعوة بالأوقاف قد نصحه: اذهب للخطبة، ودعهم يمنعونك من صعود المنبر عُنْوةً، وليُشَاهَدَ ذلك، هنا تنتهي مسؤوليتك. فجاء مهمومًا، فوجد الشارع مَفْروشًا، ومكبرات الصوت تملأ المكان، والناس كُبكبوا داخل المسجد، لا موضع لقدم، ولفت نظره أن أكثرهم من أهل الحرفة، وعمال سوق الخضار، لا يُعْرفُ لهم حِرْصًا على دينٍ، ولا يدخلون المسجد إلا لقضاء الحاجة، لا يشهدون الجماعة، وإن شهدها أحَدُهم فَلَمَمًا! فصلى ركعتين خفيفتين وجلس جنب هذا الداع ومَالْ يُحدثه، وبدأ بتعريفه بنفسه:

"أخوك؛ مجاهد منصور، إمام المسجد، يا أخي العزيز، والله لو لأن خطبتك هذه ستقيم المعوج، وتعيد للإسلام جولة، مرحبًا بها وَلَوْ على نفسي، لكنَّ هؤلاء عَوام قدموا للفُرْجة! سأصعد المنبر عشر دقائق لن أزيد، أؤدي واجبي، وأنزل فأصلي بالناس، وأتركك تحدثهم بما تشاء حتى تشاء. وأخبره مهمومًا: الأوقاف هَدَّدَتني، إن صعدت المنبر ستسحب مني الترخيص"

وما أن سَمِعَ كلمة الأوقاف، وأنها تهدد لو صعد المنبر إلا ركبه الشيطانُ:

"الأوقاف كلهم على جَزْمَتِي، أنا ما جئت إلا لأخطب الجمعة، ولأصعد المنبر" ففوجئ مجاهد بهذا المستوى الدون، وعَلِمَ أنه لم يتبق له إلا أن يقوم مُكْرها، ليصعد المنبر ولْيمْنعُوه.

فما أن نَهَضَ، إلا وقام نفرٌ فوقفوا أمامه سَدًّا، فجلس مخذولًا. بَيْدَ أنه استشعر ارتياحًا شديدًا؛ بذهاب المسؤولية، وأنَّه وقد فعل ما فعل، فقد تمت له السلامة.

فلمَّا فرغوا من الصلاة ناوشه أثناء خروجه من المسجد شخصٌ مُسْتَفِز:

"وكأنك كنت فاكر أن هؤلاء كُلُّهم؛ جاءوا لسماعك أنت!؟" فمنعه منه أحدهم.

وظل أيامًا تصله تهديدات: إن جاء إلى المسجد سوف نرميه في البحر. وكان البحر من خلفه إذا صعد المِنْبَرَ يخطب. وكان داعيهم قد خطبهم: حديثي معكم اليوم عن الظالمين، وأخبر: اعلموا أنَّ دولةَ الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، وتغنَّى بآية:" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظالمين الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ" فأجابه مجاهد في نفسه: ألا لعنة الله عليك، وعلى من جاءوا بك، وناداه في نفسه، أيها الأحمق إنه لا يَكْفُرْ مسلمٌ بذنب، ولا يُؤَمُ الرَّجُلُ في داره ولا في سلطانه إلا بإذنه، تأتي فتصيح، وتصعد منبري بغير إذني، وتهيج عليَّ الدهماء، وأنا صاحب الدعوة في هذا المسجد، ما هذه البلادة؟ يظلم ويتكلم عن الظلم، ويُدلس ويستشهد بآية في غير موضعها يكفر بها المسلمين، وقرأه في نفسه: (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

ثُمَّ وفد إليه صاحبه القديم أبو سارة مُواسيًا أولًا، وثانيًا سَائلًا؛ في شك بصفته الجديدة التي اكتسبها أنه إخواني، "هل صحيح يا شيخ مجاهد أنك بلغت عن فلان جهاز أمن الدولة ؟"

"يا أخي اتق الله، وهل تعلم عني ذلك ؟! وغضب عليه، فأنبأ،

"عمومًا، أنا رددت غَيْبتك، وقلت أعلم عن الرجل أنه لا يفعلها. وتابع، تعلم مكانتك عندي فلم آبه لدعواهم، لكني أبلغك فقط بما سَمِعْتُ؛ فأجابه مجاهد في حزن بالغ:

"والله يا أخي، أنا لا أعلم أين أمْنِ الدَّولة" فضحك يخافته:

"جنب فيلا المحافظ" وهمس بصوته، يُحَدِّثُ من تحت يده، فأجابه في سلامة قلب:

"وهذه، والله، لا أدري أيضاً أين موضعها" فضجّ الأخ ضاحكًا:

"أنت على نيَّاتكٌ قوي يا شيخ مجاهد" وأخبره عن مآل ذاك النّجم الصغير نقلًا عن الجماعة:

"احتجزوه في أمن الدولة يومًا كاملًا"

"لا أعلم"

* * *

الفصل الثالث

عَلِمَت الأوقافُ بما حدث لمجاهد فطَوَّفت به مشكورة جميع مساجدها بالناحية، وأُصعِدَ أنواع المنابر، وعرفه أنواع الناس، وكان مِنْبره مِنْبرًا صغيرًا، فتذاكر مُعزيًا نفسه:(وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وكان له درسين في مسجده، فلمَّا ذهب في موعده، كان أقصى ما استطاعوه، أن أشرف أحدهم فنظُرَ، وارتد سعيدًا ليذيع: الشيخ فلان لم يفد لدرسه أحدٌ؛ يجلس لنفسه.

فمكث يجلب إلى المسجد معه الكُتُبَ؛ يُعِدّ دروسًا للأيام القادمة. ولم يستسغ الأشقياء أن يجيء إلى المسجد، رغم إطلاقهم تحذيرهم؛ يجلس آمنًا كذلك؛ يُعِدّ لدَرْسه، فبحيْثية أنهم مجلس إدارة يقوم على مصلحة المسجد؛ قدَّموا طلبًا لضم المسجد للأوقاف، ليُأتى له بإمامٌ راتِبٌ، فما مجاهد إلا خطيب مكافأة لمسجد أهلي مقابل ٤٨ جنيهًا شهريًا مكافأة لـ ٨ دُرُوسٍ و٤ خُطب شهريًا، وهم يريدون إماماً ليصل بهم الصلوات جميعًا؛ ويفرغ للمسجد وحده؛ وأخبره مفتش الأوقاف:

"هؤلاء أولاد كذا؛ يكرهون أنفسهم." وطلب منه البحث عن مسجد أهلي آخر؛ يقدم عليه ترخيصه؛ يُصَرِّحُون له فيه بإلقاء الدروس والخطب، فأسرها مجاهد في نفسه ولم يبدها لهم، قال: أنتم أشرُّ منهم، كلما هِيشَ علّينا خذلتمونا، لا طاب العمل لديكم..

فما لَبِثَ إلا قليلا حتى جاءه شابٌ- من قريته- يعمل داعيًا لدى جماعة أنصار السنة، عَلِمَ بتوقفه عن الخطابة، جاء يُعْلِمُه بضرورة الحضور معهم غَدًا الاجتماع الشهري؛ لأنَّه حَدَّثَ عنه رئيس الجماعة؛ " فضيلة الشيخ محمود" فطلب حضوره. وبعد استعراض أحداث الدعوة عن الشهر الماضي، والمستجدات على الساحة، أعلم فضيلته الجميع:

"حَضَرَنا اليوم أخٌ جديد، يُعَرِّفكم بنفسه. فنهض يُقدِّم لنفسه:

"أخوكم في الله؛ مُجَاهدٌ عَبدِ الحَميدِ منصور، موظف، متزوج، واستهلهم يخطب، كتقليد لدى هذه الجماعة لكل راغبِ من الدعاة في الانضمِام إليها: الحمد لله .. الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)[سورة الرعد: جزء من الآية٢-٣]

واستتبعهم بأخرى.." قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" [آل عمران :١٦٤]

وأردف يدعو: اللهُمَّ صلِ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما صليت على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّك حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهُمَّ بارك على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحمَّدٍ كما باركتْ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجيدٌ، وسلم تسليمًا كثيراَ، ثم، أمَّـا بعــــــد:

فإن القرآن كلامُ الله، إذا تَدَبَرت آياته وتَفَكَّرتَ في معانيها، أَشْهَدَتْكَ مَلِكًا قَيُّومًا، من فوق سبع سماوات يُدَبِّرُ أمْرَ عباده، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، لو نام لضاعوا، ولفسدت السماوات والأرض ومن فيهنَّ، من فوق سَبْعِ سماوات يسْمعُ ويرى خَلْقَهُ، لا يشغَلُهُ نداءٌ عن نداءٍ ولا يمنعه إجابةَ ُدعاءٍ عن دعاءٍ، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، أرسل الرَّسل، وأنزل الكتب، فيها يأمر وينهى، يرضى ويغضب، يثيب ويعاقب، يعطي ويمْنع، يُعِزُّ ويذلُّ، يخْفِضُ ويرفع، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، لا تتحرك ذَرَّةٌ فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسْقطُ ورقةٌ إلا يَعْلَمُها، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، مَوْصوفٌ بكل كمال، مُنَزَهٌ عن كل عيب، ليس لعباده من دونه وليٌ ولا شَفِيعٌ، كذلك يتجلى الله في القرآن، والآيات التي موضوعها أسماء الله وصفاته المُعَرِّفَةُ به هي أعظم آيات القرآن وأعظمها آية الكرسي، تَحَدَّثَ فيها رَبُّنا عن نفسه، مُعَرفًا بأسمائه وصفاته وأفعاله، فقال عَزَّ من قائل:" اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ " فاستوقفه الرئيس:

"كَفَىَ" وطلب من الحضور التَّعْلَيقُ، فعلق شيخ قديم:

"نحن أمام نوع جديدٌ من الدُّعاة، أزعم أنه مع قليلٌ من عناية شيخنا الجليل، فضيلة الشيخ محمود به، سيكون له شأن. وقال آخر:

"لا تعليق"، وأنصت الباقون ينتظرون حكم الرئيس. فجلس بينهم سعيدًا، وكانوا جميعًا، في ساحة المسجد، جلوسًا حَلْقَةً تلقاء الرئيس، أكثرُهم، شبَّان أصغر منه، ونفرٌ شيبةٌ، منهم الرئيس، فختم مُعْتَذرًا:

"نَعلَمُ أنك خطيبٌ قديم، لكن الأمر عندنا تقليدًا، وأردنا سَمَاعَك، ولولا أن جَدْول هذا الشهر قد خَرَجَ لأدرجتك فيه، لَكِنِ استعد، فأنت ضمن الاحتياطي، قابل للاستدعاء في أي وقت، فحمد الله في نفسه؛ أن ألْهمه تغيير طريقته، بعد الذي حدث له من الدهماء في مسجده، إذ أدعوا به بعد الحادث يلمزونه: وهل كان عنده غير تفسير القرآن. وقبل كان قد لَحَظَ عندما كان يهيب بهم، تاليًا بعض آيات الله ونداءاته: يا أيها الذين آمنوا.. لحظ أنهم لا ينـشطون للنداء، فاستنبط أنهم لم يعرفوا المُنادي، فلم ينشطوا لذكره، فغير طريقته، خاصة، أنَّه لم يجد عند نفسه من المعرفة بالله ما يغني كثيرًا؛ وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار إذا سمع أحدهم نداء القرآن: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. قالوا: لبَّيك ربنا وسعديك.

كان قد زاره ثلاثة من جماعة التبليغ وأعجبه ـ رغم أنهم عامة الناس ـ أعجبه ارتكازهم في دعوتهم على الآيات الكونيـة، ولِمَ خَلَقَ اللهُ النَّاس، يتحدثون في بساطة، يُوَجهُون الناس وجهة الآخرة. وقال أُميرٌهم في زيارته له، وكانوا في جولة من جولاتهم: العلماء ورثة الأنبياء، ومضوا يثنون عليه، أنت عَالِمُنَا، أتقعد في بيتك والناس في أشد الحاجة إلى علمك، العَالِمُ إذا خرج تحركت له الدنيا بِأَسْرِها وجاءوه ببعض الهدايا، على طريقتهم في الاستمالة، وَضَرعُوا إليه: أُجْبرْ خاطرنا، فقبلها منهم، ووعدهم:

"إن شاء الله، في الأيام التي لا يكون عندي دَرْسٌ، كلما أعددت شيئًا، خرجت معكم أعلمه للنّاسَ.. وفي إحدى جولاته بإحدى القرى النائية، وجد رجلا تخطى الستين يتشمس بعتبة داره، فخاطبه أحدهم:

"هذا عالِمُنا اسمع ما يقوله لك، فابتسم لطريقتهم، ونشط سائلًا الرجل:

"من خلقنا؟ "

"الله " أجاب الرجل.

"فمن رزقنا؟"

"الله "

"فمن يُمِيتُنا؟"

"الله "

"فمن يحيينا؟"

"الله "

قال:

"صَدَقْتَ. أتعلم أن الله قد قال ذلك في القرآن، وتلا " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ .. َ "وحَكَى له؛ أن رجلا جاء إلى النبي فقال له: عَلمْني ممّا علمك الله، فدفعه إلى رجلٍ يعلمه، فعلمه" (بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) فقال الرجل، حَسْبي، يعني: كفى، فَأُخْبِرَ النبيُّ بذلك، قال، دَعُوهُ فَإِنَّهُ قَدْ فَقُهَ. فمكث القاعد يتشمس ينظر، ولم يقل شيئًا، فاستنهضه: فماذا أعْدَدتَّ للآخرة؟

أجاب الرجل " أُصَلي"، فطلب منه قراءة فاتحة الكتاب فقرأ الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم، مالكِ يوم الدين، فلقنه ما نسى من الآيّ، ثُمَّ قال له:

"أَعِدْ" فأعاد الرجل نفس الشيْء، فقال يخبره:

"نسيت آيتين، أنا أقرأ عليك، اسْتمع جيدًا: سْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) وقال له: أَعِدْ.. فقرأ الرجل دون الآيتين ولم يتزحزح، فسأله:

"ألك أولاد متعلمون؟" قال:" أي" فغضب أشد الغضب، أن أبناء متعلمون، لم يهتمُّوا لأبيهم، ويتركوه كذلك؛ وأخبره أسِفًا:

"هل تعلم أن الصلاة لا تصح بغير قراءة الفاتحة؛ طول عمركَ وأنت تصلي، ولم تصل، قال صلى الله عليه وسلم : لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن أي سورة الفاتحة". وجلس إلى جوار الرجل يعلمها له، وظل يخرج مع تلك الجماعة في جولاتهم يومًا أو يومين، وكانوا على طريقتهم، يخرجون ثلاثة أيام كل شهر، وأربعين يومًا كل عام، وأربعة أشهر إذا كان الخروج إلى دولة باكستان خارج مصر، فظلوا يقيمونه مُتحدثًا، فدُهش الناس، والتفوا حوله بعد كل حديث يستفتونه، حتى كان يومٌ قام من الليل يُصلي فأدركه الفجر، ولم ينجز كاملَ ورده، فقال في نفسه، إن شاء الله، ضُحًا استكمله. وكانت لتلك الجماعة من بعد صلاة الفجر حتى الشروق أذكارٌ، ثم يُفْطِرون، ثمّ ينامون، ثم يستيقظون لدرس يقرءونه من إحدى الكتب المختارة، فانتبذ من المسجد جَانِبًا يستكمل فيه ورده، فجاءه الأمير يثنيه عن ذلك، ويعلمه أن هذا الوقت وقت الدرس، فاستفهم: "وما درسكم؟"

قال: "في العقيدة، نقرأ من كتاب كذا.."

"إذًا نتعاون، أنا أقرأ عليكم ما تبقى من وِرْدي، وكلما حضرت آية تتحدَّثُ عن العقيدة أبيُنّها لكم. فانطلق يتلو ثُمَّ يُبيَّن، ثُمَّ يتلو، ثُمَّ يبين، حتى انتهى ورده، وانتهى

وقت الدرس معًا قبل حلول الظُّهْرُ؛ فانشرح صَدْرُه. وفجأة جهَشَ الأمير إلى البكاء مُعلنًا في نبرة المذنب، أنه قد خان، فسأله:

"خُنْتَ، لِمَ؟!"

أجاب:

"لأن ترتيب الجماعة لنا؛ أنَّ نقرأ من كتاب رياض الصالحين، وليس الترتيب الآن لقراءة القران، القرآن نقرأه فُرادى في قيام الليل، فعجب جدًا:

"سبحان الله! وهل هناك دَرْسٌ أفضل من دَرْسِ القرآن. يا أخي،

قال ، خَيْرُكُم مَّنْ تَعْلَّمَ القرآنَ وعلمه، فواصل الأمير في نبرته:

"نعم، لكن ترتيب الجماعة؛ قراءة القرآن فُرادى في قيام الليل". فاسْتَفَزَّهُ للغَضِب تلك النَّبرة الباكية:

"يا أخي النبيَّ – صلى الله عليه وسلم - كان يفعل هذا؛ كان إذا فاتتْهُ الصلاةُ من الليل من وجعٍ أوْ غيرِهِ صلى من النهار اثِنَتي عشرة ركعة، وقال: من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتِبَ له كأنَّما قرأه من الليل"، فظل الأمير في أسفه.

"هذا هو ترتيب الجماعة لنا، وهو ما عاهدتهم عليه، فخُنْتَه" كان عاملًا في مصنع للغزل، سُوِّيت حالته عندما شرعت الحكومة في تخصيص القطاع العام، فَأخْرِجَ معاشًا مُبكَّرًا، فأصبح مُتفرغًا للدَّعوة، وكان يُحِبُّهُ، فأشفق عليه من الجَدَلِ، فترك زجره.

ثمَّ اتفق أن خرج مع هذا الأمير في إحدى جولاته مدرسٌ في هيئة تدريس كلية التجارة، وكعادة مجاهد لحق بهم، فخرج يومًا معهم، فلمَّا أراد أن يعود؛ لأن

الغد هو موعد درسه الأسبوعي بالمسجد الذي كان يَخْطُبُ فيه، قَبلَ وقوع الخلاف، وكان دأبه، ألا يتخلف عن هذا الدرس، ولو لم يأته أحدٌ، لأنه يأخذ عليه أجْرًا، فأدركه لدى باب المسجد مدرسُ هيئة التدريس وقال يؤنبه:

"طريقتنا هذه، طريق الهَدْي، وهي جَلِيَّة لِكُل مُبْصِرٍ"، وعَرَّض به فتلا: "أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا" فكظم غيظه، وكان يلبس حذاءه أمام باب المسجد، فالتفت إلى هذا، وأجابه قبل أن يَنْصَرِفَ:

"أَتَرَفَّعُ أن أطلق لساني فيكَ" وكان قد لَحَظَ أَنَّهم أخذوا يُجنبونه القيام في الناس للبيان الختامي، نهاية الخروج، وراحوا يُقيمون منهم، من ليس عالمًا ولا فصيحًا؛ فرابط يُصابر، يُقْرِئ نفسه يتقي: إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأغنياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا. ثُمَّ قابله يومًا على سُّلم مبنى المحافظة، بعد هَجْرهم، فرد منهم، خرج معه مرَّة، ففاجأه بهذا السلوك، صَعرَ خده، وأومأ برأسه، حاطًا منه: آ مجاهد. فعقدت المفاجأة لسانه، ولم يستطع أن يجيبه لحظتئذ، غير أنَّه استشاطَ منه غضبًا، وكان يَعْلَمُه، عاملا من عمال خدمات المعاونة بشئون العاملين بالمحافظة، فاسْتعدَّ له، حتى إذا عاد إليها، استوقفه:

"تعال؟ ماذا قلت؟ آ مجاهد! أهذه هي تحية الإسلام التي تُعَلِّمُها لَكَ جماعة التبليغ؟" وكان يعلم عن جماعة الإخوان قولا، يعيبون به أفراد هذه الجماعة؛ أَنَّهم سِلْمِيُّون، لا يتكلمون في السياسة، كالأفراخ البيضاء، أفراخ الجمعية، فخاطبه مُنْذِرًا:

"إيَّاك إن لقيتني في طريق أن تخاطبني." ورغم أنَّه كان شخصٌ طُوَّالا، خاف وولى هاربًا.

* * *

في الشهر التالي- كعادته - قعد رئيس جَمْعِيّة أنصار السُّنة في صحن مسجد التوحيد مُمدد الساقين، بين يديه، وعن يمينه، وعن شماله، الدُّعاة كأنَّما على رءوسهم الطير، فقال:

"أسافر لأداء العمرة، فأرجع، فأجد من شأنكم، دُعاةً يَتخلَّفون عن الجُمُعَة، ودعاة يتركون مسجدهم ليذهبوا إلى مسجد آخر، لأنَّ المسجد لم يعد يناسبهم، ودعاة لا يذهبون إلى الخطبة إلا في سيارة، يَحْدثُ ذلك من دُعاة جُدْدٍ، لا يزال اسمهم مكتوبًا بالقلم الرصاص، يَسْهُلُ مَحْوَه.

واستمر في تبكيته:

"وإدارات المساجد اشتكت دُعاة لا يذهبون لأداء الدَّروس، فَلِمَاذَا يَطْلُبُون وضع أسمائهم بجدول الدروس طالما لا يريدون الذهاب؟ والذي يظل يخطبُ في الناس ساعة ونصف؛ حتى أراد الناس أن يخرجوا، ويتركوا له المسجد!"

وحتى هذه اللحظة لم يكن مجاهد يعلم أنَّهم يصنفون الدُّعاة، ويصنفون المساجد، مُجمعات كبيرة يذهب إليها النُّجوم الكِبار، ومساجد متوسطة لدُعاة الدرجة الثانية، أمَّا مسْتُورو الحال، أو الجُدُدُ مثْلُه فلهم المساجد الشبيهة بالزاوية، وأَذِنَ الشيخ بالحديث لأحد المخضرمين من الدُّعاة فَنادى فيهم:

"يا أحباء، أنتم لأشرف مِهنةٍ، مِهْنَةُ الأنبياء والمرسلين، وتلا: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّـهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)؛ هذه نعمة نُغْبَطُ عليها جميعًا، فلنحافظ عليها وإلا حُرِمْناها، وأنا أطلب من شيخي، فضيلة الشيخ محمود، أن يُتْحِفَنيَ بالمساجد الصغيرة، فإنَّها أحبُّ إليَّ من المساجد الكبيرة، وتابع، يا إخواني، أنا أذهب إلى المحافظات الأخرى، فأوقظ أهْلَ المسجد من نومهم، عشرون سنة في الدَّعوة لم أتأخر مرةً عن خطبة الجُمُعَة، أَنَتْرُكَ منبر رسول الله

يصْعَده صاحب بدعة أو صاحب عقيدة فاسدة يدعو إليها، فيهدم في لحظة ما بنيناه نحن في سنين طويلة.

فطلب مجاهد الكلمة؛ فأغْرب وفَاجَأ الجميع:

"هؤلاء يخشونك أكثر من خشية الله" قال يُخاطب رئيس الجماعة فماج الدعاة، وهمَّ البَعْضُ أن يشاجِرَه، فزجرهم فضيلته:

"دَعُوه، وإلا فَسِّروا لي؛ أن أغيب فأرجع، فأجد حالكم الذي قلت؟" واستطرد مجاهد في شجاعة:

"وأرى سببًا للمشكلة، وأرى علاجًا لها، أرى السَّعيَ طلبًا للشُّهْرَة سببًا، وأرى علاجًا، أن تُعَوَّمَ المساجد، فيذهب إلى جميع المساجد صغيرها وكبيرها، جميع الدعاة، أمّا المساجد التي خَبتْ فيها الدعوة، فَليَذهَبَ إليها قدامى الدعاة أصحاب الخبرة للتنشيط، ولا أرى أن يُخْتَصُّوا بمساجد قد حَيَت جُمْهورًا وشهرةً، بل يذهبوا إلى المساجد التي تحتاج إلى إعادة حَرْثٍ، وتقليب للتربة."

وقال يوجه خطابه للدعاة:

"الدين النصيحة؛ ومن هذا الباب أُذَكر بقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأغنياء. وأن الصحابة كانوا يَفِرُّون من الشهرة، فَلِمَ السعي تقليدًا للمشاهير فنطيل الخطبة، ثُمّ إنَّ كَثْرَةَ الحديث ينسي بَعْضُهُ بَعْضًا، والسُّنة إطالة الصلاة وقصر الخطبة"، وأَراد أن يسْتكْمل، أنَّه نما إلى علمه، أن من يخطب خطبة واحدة يأخذ مائة جنيها كبدل سَفَر، وهو يذهب في سيارة تدفع لها إدارة المسجد أُجْرتها، ومن يخطب أربعة خطب، ويذهب في وسائل المواصلات لا يأخذ سوى خمسة عشر جنيهًا فقط. فوجده سينال من الرئيس الذي حفى به فامتنع- مُؤقتًا - حتى يستوثق. فاحتج طامح من صغار الدعاة، وقال ينقض ما تمَّ عرضه:

"أنسوي بين من أنفق عمره في الدعوة، وبين من لم يصعد المنابر إلا حديثًا، أرى توقير مشايخنا، وخصهم بالمجمعات الكبيرة. ثم لكل مسجد جمهوره ممن تناسبهم الإطالة، فلا بأس بها" فأنِفَ مجاهد أن يُعَلِّقَ، وقدّره ينافق."

وما أسرع ما شاهد شقاقًا، دَبَّ بين زعماء هذه الجماعة، وأصبحوا فئتين، فئة تؤازر الرئيس الحالي، فضيلة الشيخ محمود، وفئة تعارض بقاءه، وتطالب بإجراء انتخابات جديدة؛ لأنه ظل طيلة عشر سنوات مضت رئيسًا. وتكلموا في مخالفات مالية، وتجاوزات جسيمة، فاسْتُدْعِيَ للخلاف الرَّئيسُ العام، فعُقِدَ اجتماعًا لمجلس إدارة هذا الفرع في الدور الثاني، بينما كان الدعاة في صحن المسجد ينتظرون، وكانوا قد اسْتُدْعوا من مساعد الرئيس الحالي، فطاف عليهم يجمع التوقيعات لتأييد بقاء شيخه، وتبرئة ذمته، ولمَّا أَقَبَلَ يحث مجاهد على التوقيع على العريضة تَوقَفَ:

"أنا لا أعرف عن حقيقة هذا الخلاف شيئًا، ويَتَوجَّبُ سماع كلا الطرفين قبل أن أوقع لأحدهما ضدَّ الآخر"، فاشْتَط المساعد

"أنت قليل الأدب. من أنت حتى تطلب هذا؟"

وشاهده بعضُ الدعاة مساعد الرئيس وهو يتهجم عليه ويشتمه، وكان مجاهد قد جلس يقرأ القرآن على زميل في الجدول تَخْفِيفًا لوطأة انتظار، ما سوف يُسْفر عنه اجتماع الرئيس العام بأعضاء مجلس إدارة الفرع.. فلمَّا انصرف المساعد، أَسَرَّ له الزميل ندمًا، قال:

"والله، لو كنتُ أعلم أن هذا يحدث، ما وقعْتُ له، وقال يواسيه

" يا أخي، أنت على حق فاحْتَسب"

ثمَّ ركضت النوازل تأخذ بعضها برقاب بعض، فاستدعي وزميله الذي يعمل معه بوحدة تصاريح العمل إلى ديوان المديرية على نحوٍ سريع مفاجئ للقاء وكيل الوزارة الجديد، فأجابه عن ماهية عملهما:

"نحن منتدبون إلى وحدة تصاريح العمل، نراجع تعاقدات المسافرين للعمل بالخارج من القطاع الخاص، أعمل أنا فترة مسائية، والأستاذ عطية، فترة صباحية، فسأل وكيل الوزارة مُؤنبًا:

"كم ساعة تعملان؟" فأجاب دون تَحَوّطٍ:

"الأستاذ عطية يعمل صباحًا من الساعة التاسعة حتى الساعة الواحدة، وأنا أعمل من الساعة الواحدة ظهرًا حتى الساعة السادسة مساءً"

فتهَكَّمَ:

"ما شاء الله! كفاية عليكم. وكان قد أرسل من يتجسس فيأتيه بخبرهما، فعدى في اتهامه:

"أنتم لا تذهبون إلى العمل أصلاً، أنتم نائمون في بيوتكم" فأقسم له:

"والله، الذي لا إله غيره، لم أتخلف عن عملي يومًا واحدًا منذ أن ذهبت إلى وحدة تصاريح العمل حتى الآن"

قال في حسم:

"كل واحدٍ منكم يختار له إدارة جديدة، وأشار إلى زميله في مكتب الخبرة سابقًا، ثم في وحدة التصاريح بالمنصورة، وكان أقصر منه إلا أنه أبطنٌ وأمتن، "أنت تنفع مفتش عمل، انزل إلى الميدان"

"ما تأمُرُ به سيادتك"، وطأطأ عطية رأسه خاضعًا، فاستفسر لنفسه:

"وأنا أنزل الميدان؟" فتطلع إليه وكيل الوزارة الجديد وفي اللحية خاصة، وقال دون اكتراث:

"أنت تبحث لك عن مسجد تقعد فيه" فمكث حَيْرَان لا يدري، أجاد هو في توجهه أم يسخر منه، فحسم واستفسر، فأجابه وكيل الوزارة:

"هات لي موافقة من الأوقاف أندبك للعمل عندهم"

فسعى لدى الأوقاف سعيًا حتى حصل موافقة على انتدابه للعمل لديهم لمدة ستة أشهر؛ لكن وكيل الوزارة فاجأه قائلًا:

"أنا لا أعطي انتدابًا لأقل من سنة"

وَلحَظَ لدى دخوله أن زوج مدام أُمنية يجلس عنده، دانيًا منه يحدثه في ضَعْف ورجاء، ودفعًا للحرج، تظاهر أن لم يعرفه، وخرج مُرْتَبِكًا، وكانت الستة أشهر انتداب هي أقصي ما استطاع الحصول عليه من مديرية الأوقاف للعمل لديها، وأنه لن يعمل في مجال الدعوة، فقد تخطى الأربعين، وهي لا تسمح لمن تخطى هذا السِّنَّ أن يعمل في مجال الدعوة، رغم أنه أبدى استعداده للتنازل عن الدرجة الأولى الوظيفية التي بلغها في مديريته، ما دام سيعمل في مجال الدعوة.

ووجد مدام أُمْنية تنتظر في حجرة الوكيل، وكان بعد مشاهدة الزوج قد مشى يتحسس منها حتى وجدها، وعَرفَ أنها جاءت لتجديد انتدابها، وأن وكيل الوزارة

يَتَعنَّت معها بأشد ما تعنت معه، فقبل كانت تُجَدِّدُ انتدابها سَنَةً، بِسَنةٍ، فجعلها ستة أشهر، فخضعوا له، واليوم لا يريد منحها إلا ثلاثة أشهر مُشترطًا أن يرى الشخص كي يسمح له بالتجديد وأخبرته:

"الزوج عنده، وأنا أتحاشى الدخول عند هذا البَنِـي آدم. فصمت، ولم يخبر أنه قد رأى الزوج عنده، فابتسمت تعجب:

"الثلاثة أشهر الانتداب ستنتهي قبل أن تنتهي الإجراءات"، فخفق قلبه لمُنىَ أن المستقبل سيحمل له لقاءات كثيرة للرُّؤية كلَّما وفدت مدام أمنية إلى المديرية في شأن تجديد انتدابها، وابتسم يخبرها:

"طلب مني الانتداب للعمل بالأوقاف، ولما جئته بالموافقة قال، أنا لا أعطي موافقة لأقل من سنة، فضحكت:

"ويقول لنا، أنا لا أعطي موافقة على تجديد الانتداب إلا لثلاثة أشهر فقط، وعليَّ الرجوع للمديرية واستلام العمل هنا، وتابعت:

"مُفْتري، قلب كُلَّ الموازين"

فابتسم داعيًا لها "حمدًا لله على السلامة"

وأخذ نفسه بالانصراف قبل حضور الزوج، وقبل أن يَلْحظَ أحدٌ مِمَنْ بالحجرة شيئًا.

* * *

الفصل الرابع

ومن قَبْلِ أن يدْخُلَها، أقبل وكيل الوزارة الجديد ولديه عقيدة أن مديرية القوى العاملة هذه، تَعُجُّ بالفساد والتسيبب، سَوّقَ لذلك بَعْضُ الوُشاةِ، وكان قبل مجيئه للمديرية يعمل مديرًا عامًا للإدارة العامة لتفتيش العمل بالوزارة، فبدأ بِبِطانَة سَابِقِهِ وحاشيته، دخل أحدهم مُرحبًا بسيادته، يَفْرِدُ، مُعَرفًا بنفسه؛ الحائز بثقة الإدارة السابقة، وأنَّه:

"فلان. موجه فَنِّي أول بمنطقة وسط، وعضو لجنة رعاية وتشغيل عمال المخابز، وعضو لجنة السياحة، فنظر إليه مَليًّا ثم فاجأه:

"أنت ابن مَنْ في مصر يَعْني؟! هل المديرية ليس بها أحدٌ غيرك؟" ولم يُبْقِ له مما عَرَّف به إلا عمله فقط، كموجه فني بمنطقة وسط.

ووجد آخر يعمل مُشْرِفًا على الشئون القانونية، مع عمله مديرًا لإدارة التخطيط والمتابعة، وأحصى لهذه الإدارة اختصاصات شتى؛ بحث شكاوى، متابعة أحكام، مُعَاينات لمقار جديدة، زيارات مفاجئة للمكاتب للتفتيش والتوجيه الفني. ثلاثة أرباع اختصاصات المديرية تقريبًا، فأَزالها عنها وأبقى لمديرها- فقط - التخطيط والمتابعة مع التهميش، والتضيِيق عليه في الحضور والانصراف، وحرمانه من مكافآت كان يزاحم عليها موظفي الإدارات السابقة.

فأخذ هذا في شكاوى ضِدَّه لجهات متعددة، آخرها ما وصفه فيها بــتشاوشيسكو يعمل وحده، لا يقبل مشورة، ولا تأخذه بمعارضيه رحمة، فحمل مدير المديرية مُسْوَدَّة الشكوى بخط اليد ونزل بها إلى الوزير المحافظ يطلعه؛ أن كل ما قُدِّمَ لمعاليه من قبل من شكاوى هي كيدية يرسلها بأسماء مُستعارة شخصٌ واحد، هو مدير إداراة التخطيط والمتابعة بالمديرية. فلم ينقذ هذا من يده، إلا انتدابه للعمل بالوحدة المحلية بحي غرب، وكان أخوه مستشارًا، فأخذه الوزير المحافظ من تحت يده.

وكان المدير المالي والإداري هو القائم بعمل مدير المديرية، فترة ما بين قدومه، ورحيل مدير المديرية السابق، فَنَما إلى علمه أنه يأخذ الرِّشْوَةَ، للترقيات، ولتجديد أجازات العاملين بالخارج، وأشباه ذلك، فتربص به.

حتى إذا دخل عليه أحد المفتشين يشكو أن من هو دونه في الأقدمية حصل على علاوة تشجيعية، لم يحصل عليها هو، رغم ما ناله في تقرير الكفاية هذا العام، وجميع الأعوام السابقة من تقدير ممتاز. فتبين من الفحص أن المدير المالي والإداري، ومديرة شئون العاملين، بعلم من مدير المديرية السابق، قاما بتغيير تقرير الكفاية للمفتش المستحق للعلاوة التشجيعية، لإفساح الطريق للذي يليه في الأقدمية، وشهد المدير المباشر للشاكي أنه قد مَنَحَ مخدومه بالفعل تقدير ممتــاز في تقرير كفاية هذا العام، وجميع الأعوام السابقة:

"سأسْجِنَكَ، سأحول الموضوع للنيابة العامة" مدير المديرية.

"خلاص، خلاص يا بيه، أرجوك، أرجوك يا بيه!"

وكمن يُراوِضُ وحشًا كاسرًا مضى المدير المالي والإداري يرْبطُ مَذعورًا على يدي وكيل والوزارة وأردف:

"باقي لي سنة، أخدمها مع سيادتك على الصراط المستقيم"

فأبقاه مديرًا للشئون الإدارية فقط مع التهميش.

وكان مدير مكتب الخبرة لا يزال في بعض موظفيه كالبيت الوَقْفِ بلا عمل تقريبًا، فاستدعاه:

"خذ الخبرة وانزلْ المخازن، تَحَت". وكان قرار إنشاء مكاتب الخبرة يَنُصُّ أنها تحت الإشراف المباشر لمدير المديرية إلا أن مدير الخبرة هَرَعَ للاستجابة:

"ما تراه سيادتك"

فَطُوحَ به خارج الديوان، وزُوِيَ في حجرة من حجر المخازن، وكان الهدف أن يَنْشُزَ، فيحال للتحقيق، ويعطيه جزاءً، ويتم إخلاء مكتب الخبرة منه، ليُعْطى لامرأة، سعت لها صاحبتها الحظية الأولى الآن عند وكيل الوزارة، ففَوَّتَ عليه مدير الخبرة الفرصة. ولكنَّه لم يلبث أن استدعاه:

"أخبارك تحت؟ "

"الحمد لله، يا ريس، سيادتك، مِرْتَاحٌ في المخازن"

فَأَمَره:

"تمسك إدارة خدمة المواطنين في المديرية ثلاثة أيام، وثلاثة أيام في الخبرة تحت"

"ما تراه سيادتك."

فلمّا خلت إدارة التخطيط والمتابعة من صاحبها؛ بانتدابه للعمل بالوحدة المحلية لحي غرب، رجع فاستدعى مدير الخبرة:

"تمسك إدارة التخطيط والمتابعة"

"ما تراه سيادتك" فَرَقَّاهُ مديرًا لإحدى المناطق، وعين لها لإدارة التخطيط والمتابعة شخصًا آخر، وعينَ للخبرة السيدة التي كان يريدُ، والتي أُرْجِعَ إليها مُجاهد، فعاد ليجلس بين زملائه القدامى.

وكان اختصاص الخبرة قد أصبح، فقط، متعلقًا بمراقبة أداء شركات إلحاق العمالة المصرية للعمل بالخارج، فرجع يُقْرِأهم القرآن، فالتَمَسَتْ تلك السيدة من مجاهد ترجوه:

"يا شيخ مجاهد، الله لا يسيئك، لا تَضُرُني؛ يدخل مدير المديرية علينا فجأة، سيقول فتحتوها مكتب تحفيظ قرآن، أرجوك، كل واحد يقرأ لنفسه، الله لا يسيئك!" ووضعت مصحفها بين يديها، في درج المكتب تقرأ خُفْيَةً.

وكان قد ذَاعَ بين العاملين هذا الخبر؛ فاجأ مدير المديرية في إحدى جولاته، مُوظفةً وضعت رأسها فوق ذراعيها فوق المكتب ونَامتْ. فظل واقفًا ينقر بإصبعه فوق المكتب حتى استفاقت. وقفت المِسْكينة مَرْعُوبة، لا تدري ما تفعل أو تقول وقد ضُبِطت نائمةً. فظلت تنظر إليه في البداية تُحَقِّقُ: أهُوَ هُو وكيل الوزارة الجديد في شَكٍ؟. وخرست فلم تجد شيئًا تقوله، فقطع وكيل الوزارة صمتها المهيب:

"تحت في المحافظة، يصرفون ألْحفه وبطاطين، انزلي اصرفي لك لحافًا من تحت."

وأصدر أمرًا: يُعاقب من ثلاثة إلى خمسةٍ أيام قطعًا من الراتب، كُلَّ من يُرىَ نائمًا أثناء العمل. فظلت المسكينة منفطرةً شهرًا تبكي على ما أصابها.

وباتت المديرية تَقْلِب، يَتَنَاقَلُ فيها، أن مدير المديرية جعل له بصَّاصين يجمعون له الأخبار، وعن النساء، خاصةً الجميلات منْهُنَّ، فإذا أقبلت إحداهن عليه وحيدة عبر لها عن إعجابه في قصاصة ورق، فإذا رأى تَجاوبًا ضُمّت لفريق سكرتاريته، وكانت أَغْلَب إدارات المديرية قد أصبح مُدرَاؤها نِساءً.

العجيب أنَّه عكف مُفتشًا عن الفساد، فقام باسترداد مبالغ أخذها بالزيادة مدير المديرية السابق من قياس مستوى المهارة، ومن مراكز التدريب، وأتحف الكثرين بجزاءات كبيرة، فمن قبل لم يَكن يُسْمع أن موظفًا بالجهاز الحكومي للدولة عوقب بقطع يومًا واحدًا من راتبه، فعَرَفَتْ هذه المديرية العشرين يومًا خصمًا، فدخل عليه أَحَدُهم ضَاجًّا:

"أليست لديك رحمة، تقطع من راتبي في شهر عشرين يومًا؟ لمْ يبق لي إلا أن أدور أشحت في الطرقات."

فأصدر أمرًا، أن لا يُدْخَلَ عليه أحدٌ إلا بإذنه، وأن لا يترك أحدٌ مكتبه لأي سبب، ولو كان الخروج للصلاة، فقالت مديرة الخبرة لمجاهد:

"يا شيخ فلان، هيَّأ لك مكانًا في الصالة، وصل هنا مع زملائك.

"يا حاجة، المكان ضيِّقٌ، والناس داخلة وخارجة، والمسجد جنبنا" قالت:

"لا تخرجْ، الله لا يسيئك!"

فغضب:

"يا حاجة، ليس من واجبك أن تُقَيِّديني برجل المكتب، أنا وقعت على القرار بالعلم وانتهت مسئوليتك، سأخرج للصلاة في المسجد؛ وليفعل هذا ما يشاء"

كانت سيدةٌ مُسنّة لا تُعمل فكرها، تكتفي، فقط، بالتوقيع، لا تقرأ. ومن قبيل السّهو البَحْت، مع حسن النِّية، قامت بالتوقيع في المكان المخصص لمدير المديرية، فلما صَعَدَت إليه المكاتبة، غضب:

"أريد أن أعرف، من وقعَ مكاني هذا يكن منْ؟" فصَعَدتْ المسكينة إليه يتفصد جسدها كله عرقًا، ووَجْهُها مُتَّقِدٌ:

"أقَعَّدُوها" نادى وكيل الوزارة سكرتاريته، لمّا رأي المشهد، وقال:

"بسرعة، هاتوا لها ليْمُونًا"

وأَقَامَ مُجاهدٌ يخرج إلى المسجد في بعض زملائه، وهم يَدْعُونَ عليه وعلى كل طاغية. والمدهش أن المِسْبِحَةَ كانت لا تَتْركُ يَدَه إلا لُتُغَيَّرَ بأخرى بلَوْنِ البَزِّ التي يرتديها. وكانت طائفةٌ مختارة من موظفي المديرية، فترة صرف تعويضات حرب الخليج يقضون معه بالمديرية اليوم كله، مقابل ١٥% يأخذونها من حصيلة طوابع معونة الشتاء وطوابع التنمية، وطوابع مكتبة مبارك، تُحَصَّلُ من المواطنين أصحاب استمارة (أ) تعويضات مغادرة اضطرارية للعراق ٢٥٠ دولار، يأخذها المواطن بالعملة المحلية؛ بعد خصم معونة الشتاء، والطوابع. واستمارة ج تعويضات عن أشياء مفقودة تختلف اختلافًا كبيرًا من شخص إلى شَخْصٍ، تصل أحيانًا عشرات الآلاف من الدولارات.

وكان المتضررون قد قدموا أوراقهم للمديرية عام ٩٢ م، ثم أُعِيدَ فتح الباب في ٩٤ وذهبت تلك الأوراق إلى الأمم المتحدة، لتميز الصادق من الكاذب، وأُغيثَ الناس عام ٩٦ م، فكانت طائفة الموظفين المختارة تسهر بالمديرية، لصرف تلك التعويضات فيصلون بها الفرائض، إلا أنهم لم يُشاهدوا وكيل الوزارة ينهض مَرّةً واحة ليصل فَرْضًا. وبالطبع لم يجرؤ أحدٌ أن يكلمه. فخرجت فجأة

مجلة يدوية، تحت عنوان" يوميات تشاوشيسكو في مديرية القوى العاملة" أُرسلت بالبريد تحت عنوان، خاص جدًا، إلى يد السيد مدير مديرية القوى العاملة بالدقهلية، وُزِّع منها أعدادًا مجانية على المكاتب قذفًا من تحت الأبواب، تحكي قصصًا عن ألف ليلة وليلة لشهريار وحريمه، تحمل صورًا كاريكاتيرية لمدير المديرية، وتعليقات صادرة منه إلى صّوَرِ نسائية، مثلًا: مونيكا وَحَشْتِينِي، متى نلتقي؟. مونيكا، حلاوتك اليوم سُكر زيادة، أكيد البارحة أنت مِسْتحَمَّية.

وكان اسم مونيكا هو ما أطلقه المناوئون، على المرأة الحظية الأولى عند سيادته.

ولمَّا جاءت المنحة الكَندِيَّة لتطوير أداء المديرية ومراكز التدريب، وكان المقرر لهذه السّفْرة مدير مركز المعلومات، ومدير التخطيط والمتابعة، والمسئول عن مراكز التدريب. ولأسباب غامضة لم يسافر المسئول عن مراكز التدريب، وسافرت بدلًا منه مونيكا.

والحق يُقالُ: طوال الخمسة عشر يومًا، زمن تلك السَّفْرِيِّة، كانت المديرية تعمل كساعة جرينتش لا خلل، لا يأتِ أحدٌ مُتَأَخِرًا، ولا يُرى مُوَظَفًا يزوغ تاركًا عمله، وكأن مدير المديرية لم يزل قائمًا على كل نفسٍ. ويوم وجد نسخة من المجلة فوق مكتبه انطلق كالثَّور الجريح يبحث عن الجاني فاصطدم في الطرقة بموظف خرج توًا من دورة المياه فأتحفه بخمسة أيام جزاءً؛ لإضاعة الوقت؛ وسوء استخدام الموارد. ودخل إحدى الإدارات فوجدَ كرسيًا خَلا من صاحبه فسأل:

"أين فلانٌ؟"

"في أجازة سيادتك" فنظر أسفل منه، فوجد عُقَبَ سِيجَارَةٍ، فقال:

"خمسة أيام قطعًا من الراتب" فأجابه الوكيل، وكان يرافقه تلك الجولة:

"سيادتك الشخص في أجازة، وممكن جِدًا أن يكون أحد المتردِّدين على الإدارة هو من رمى عُقِبَ السيجارة هذا على الأرض" فالتفت إليه مُتهمًا إياه:

"أنت تُعَرَسُ عليهم. أنت لا تدافع عني في غيبتي."

"لا، لا أَسْمَحُ، وانتفض وكيل المديرية غاضبًا، أنا لا أعمل بَصَّاصًا، أتريدني أن أقف على رأس كل إنسان!" وكادت أن تقع بينه وبين مدير مكتب الخبرة السابق وكيل المديرية الحالي مُشاجرة.

ثُمَّ كانت القشة التي قسمت ظهر البعير؛ فرغم أن مدير المديرية هذا نقطة ضعفه النساء، كان مُقْتحمًا لا يُهاب، دخل عليه في شأن تجديد إجازة من يعلم أن له ظَهْرًا، فقال لـه، وهو يعلم من وراءه: الخريجون نائمون في الشوارع، ليس لك عندي إلا خيارين؛ إمَّا الرجوع لاستلام العمل أو الاستقالة وترك المكان ليشغله غَيْرُك. فذهب المذْكور وعاد إليه بتأشيرة المحافظ: يمنح ثلاثة شهور أجازة لتسوية ظروفه بالداخل، فرفع مدير المديرية الخطاب فوق رأسه في حركة مسرحية:

"على دماغي تأشيرة معالي الوزير المحافظ، وأصدر قرارًا فَوْرِيًا، يمنح كل من كان في إجازة بالداخل ثلاثة شهور استثنائية لتسوية أوضاعه بالداخل. وَعُممَ الأمر في جسارة على ديوان المديرية وسائر المناطق والمكاتب التابعة لها، وكان يستطيع إقناع رؤسائه أنه مسئولٌ جادٌ نَشِيطٌ، وهذا ما يثير ضده الفُسَّاد، دخل على المحافظ:

"لو يسمح وقت سعادتك، أرجو التفضل بالاطلاع على هذا الملف" وَبَيَّنَ:

"سيادتك، هذا ملف تأسيس إحدى شركات إلحاق العمالة المصرية بالخارج، عَيَّنَ مقرها مدير التخطيط والمتابعة الذي انتدبته سيادتك للوحدة المحلية فلان، الأستاذ قام بمعاينة المقر مُنَفَرِدًا وأعد تقريرًا أن مساحة المقر بلغت ثمانين مِترًا، وأنَّ المقر وتوصيفه كذلك يسمح بمزاولة إلحاق العمالة المصرية بالخارج. وعند تجديد الرخصة أَعادت لجْنَةُ الفَحْصِ مَسْحَ المقر، فتبين أنه لم يبلغ خمسة وستين مترًا، وأنه كذلك يصبح غير مطابق للمواصفات. فصدَّق سيادته على عقوبة خمسة عشر يومًا خصمًا من راتب المتسبب، رغم كون أخو مدير إدارة التخطيط والمتابعة مستشارًا بمجلس الدولة.

وغالبًا ما كان مَجْبُورَ الخاطر؛ إذا سعى إلى وزير القوى العاملة بخصوص مكافأة أو نزل إلى المحافظ للحصول على موافقة بصرف شهر أو نصف شهر للعاملين بالمديرية بمناسبة العيد أو دخول المدارس، فجرت في عهده النقود في جيوب موظفي المديرية، فكانوا مبتسمين مع الخوف الضاغط. ولكي يبرهن لوزير القوى العاملة أن تعيين مديرًا للمديرية من أبناء المحافظة ليس هو الخيار الأمثل- وكانت الدرجات العليا قاصرة على ديوان الوزارة - أتحف أصحاب الدرجات الأولى في المديرية من الرجال بالجزاءات، فقامت من كل جانب عداواتٌ ضِدَّه.

وكانت عربية المديرية تذهب إلى الوزارة مأمورية في نهاية الأسبوع فيسافر سيادته فيها. وفي تاريخ نهاية إجازته، يُرتب لمندوب المديرية عملًا ما يُنجزه بالوزارة، فيذهب ضمن ما يذهب إلى بيت سيادته فيأتي به معه في سيارة المديرية، وبينما كان عائدًا من إحدى الإجازات، وكان قد عرف أن النيابة العامة تطلبه، قال للسائق عند ميت غمر:

"طالما نحن هُنا، مُرْ بنا على هذا الولد، وكيل النيابة، نرى ما شَوْقه لنا"

ومدينة ميت غمر تقع في الثلث الأخير على الطريق من القاهرة إلى المديرية.

كانت هناك مناقصة لتوريد معدات لمراكز التدريب، رسا عطاؤها على جمعية تعاونية استهلاكية بالوادي الجديد، فَشُكِلتْ لَجْنَة لفحص تلك المعدات يشرف عليها المهندس المسئول عن مراكز التدريب بالمديرية، ولما سافرت اللجنة لفحص المعدات في موطن المُورد بأمر من مدير المديرية كتبت تقريرًا فحواه: أن البضاعة غير مطابقة للمواصفات. فاسْتَبْدل سيادته هذه اللجنة بفرد من كلية هندسة الأزهر معروفًا لدى وزارة المالية؛ بأنه شخص تدور حوله الشُبُهاتُ، فكتب تقريرًا لم يوص فيه باستلام البضاعة، ولم ينص فيه على الرفضً، على طريقة، لا بحبك ولا بَقْدِرْ على بعدك، وذُيل تقريرهَ بعبارة: دون أدنى مسئوليه علينا في ذلك. فرفض أمين المخزن بمركز تدريب ميت غمر استلام البضاعة وإضافتها للمخازن، فأوقفه مدير المديرية عن العمل، ووقع عليه أقصى جَزاءً، وقام بنقلة، فشكاه أمين المخزن بالواقعة للنائب العام، وقدَّمَ صُوَرًا من المستندات لوكيل النيابة:

"أنت أوقفت أمين المخزن فلان عن العمل، وقمت بنقله، ووقعت عليه أقصى الجزاء"، فأجابَ في اعتداد على تساؤل وكيل النيابة:

"أنا مدير المديرية، وهذا من حقي"

"وما هي أسباب نقل أمين المخزن فلان، من عمله كأمين مخزن بمركز تدريب ميت غمر، ووقفه عن العمل وتوقيع عليه أقصى الجزاء؟"

"رفضه للعمل، وخروجه عن آداب الوظيفة في مخاطبة رؤسائه"

"لقد جاء في أقوال أمين المخزن فلان، أنه رفض استلام البضاعة وإضافتها للمخازن؛ لأن تقرير لجنة الفحص جاء فيه، أن البضاعة غير مطابقة للمواصفات"

"هذه اللجنة غير فنية، وجاء في تقرير جهة اختصاص من كلية الهندسة جامعة الأزهر، أن البضاعة مطابقة للمواصفات، ورغم هذا رفض الموظف استلام البضاعة ورفض إدخالها المخازن، ممّا يُعرض البضاعة للتلف أو للسرقة"

"وما هي أسباب رفض اللجنة المُشكلة من المديرية للبضاعة، طالما كانت هذه البضاعة مطابقة للمواصفات؟"

"أعتقد أنها كانت لمحاولة الضغط على المورد لِرشوتهم، بدليل أن تقرير جهة اختصاص لم تذكر أن المعدات غير مطابقة للمواصفات."

"تقرير جهة الاختصاص التي تعني لم توص باستلام البضاعة" قال:

"وأيضًا، لم يُنَصْ فيه على الرفض"

"أنت أصدرت شيكين لمصلحة المورد، شيك رقم كذا في ٦/٤/ بمبلغ كذا، وشيك رقم كذا في ١٩٩٨/٦/٨م بمبلغ كذا، والفحص الأول للبضاعة كان في ٦/٢٨ والفحص الثاني جاء في ١٩٩٨/٧/٨م، وهذا يعني أن المورد قبض ثمن البضاعة قبل فحصها.

"أردت تحقيق المصلحة العامة والاستفادة من مخصصات المديرية، حيث يتوجب رد المبالغ لوزارة المالية إذا لم نقم بالصرف قبل نهاية يونيه، قبل انتهاء السنة المالية" قال:

"أليست اللوائح تقضي بعدم فحص البضاعة في محل المورد، فلماذا أمرت اللجنة أن تسافر لتقوم بفحص البضاعة هناك؟"

"اختصارًا للوقت، ليس إلا."

فأخبره وكيل النيابة:

"سيادتك قاعد معنا هنا لبعض الوقت" وأمر بحبسه خمسة عَشَر يومًا علي ذمة التحقيق. فرجع السائق بسيارته وحيدًا حزينًا، وكان يرى وكيل الوزارة هذا ينفق ببذخ في أي سفر من جيبه الخاص على السائقين المرافقين لسيادته.

* * *

لم تُكَذبْ الصَّحافةُ خبرًا؛ ففي ـ١٤ /١ /١٩٩٩ كتبت جريدة الأخبار في صفحتها السادسة عشر على لسان النائب العام: اتهام وكيل وزارة وبعض المسئولين بمحافظة كذا، باستلام ماكينات غير مطابقة للمواصفات. وتوالت كتابات مراسلِ جريدةِ الشَّعبِ: المال السايب في مديرية العمل بكذا.

وأسفل صورة لوزير العمل، والمحافظ، سُطِّرَ: فساد مديرية العمل بكذا أصبح على كُل لسانٍ، آخر ما تناوله التحقيقات، قيام مسئول كبير بالمديرية بتوريد عدد ٢ فريزة خُرْدَة لمركز التدريب المهني بميت غمر بثمن ربع مليون جنيه، تَجاهَلَ المسئول تقارير جميع المهندسين بالمديرية، والتي أكدت جميعها كونها كُهْنةٌ ومُتهالكة، للعلم جهات رقابية عليا تحقق في فساد المديرية، وفي انتظار تدخل المحافظ، ومعه وزير القوى العاملة.

واسترسلت الجريدة، هل يفعلها هِتْلرُ طنطاوي؟ اهدار المال العام بمديرية القوى العاملة بكذا أصبح حديث ومحل استهجان الجميع، خاصة مع بقاء المسئول في

موقعه حتى الآن، وبعد أن أمر وكيل النيابة بحبسه خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق. فسافر بعض مُبغضيه إلى ميت غمر لمشاهدته في الحجز.. سألت الرقابة الإدارية وكيل المديرية، مدير الخبرة السابق:

"ألم تعرف أن مدير المديرية قد قُبِضَ عليه؟"

"ومِنِ أين لي أن أعرف؟"

"كيف وأنْتَ بالمديرية الرَّجُلُ الثاني؟"

"سيادته لم يطلعني على شيءٍ"

"وما معلوماتك عن القضية؟"

"لا شيء، إلا ما تردد على ألسنة بعض الموظفين بالمديرية"

واتصل مكتبيًا وزير القوى العاملة بسيادة النائب العام:

"هذا بعد إذن سيادتك، والتحقيق يأخذ مجراه، هذا إن أذنت سيادتك في ذلك؟"

فَخرج بكفالة ألفي جنيه على ذمة القضية، وكان أول عمل قام به بعد خروجه التطْوَاف على جميع المناطق والإدارات.

وكعادته كان مجاهد بين زميليه، عبد الحي، وأبو المعاطي، يجلسون خلف بنش عال بالصالة، في يد كُلٍّ من زميليه مصحف، يَقرأُ وهما يتابعانه. فلما عَلِمُوا بأمر التَّطْوافِ، أخفى الزميلان مصحفيهما، وفزِعا يحدقان في الفراغ يرتقبان القادم، وأبى مجاهد إلا استخراج مصحفه يقرأ دون زميليه، وإن ظل يقرأ دون تركيز، مُوَزَّعًا؛ وارتأى إن لم يقرأ، وأخفى مصحفه، لن يكون جديرًا بالاحترام. وبدا المكان من حوله غاية في الرَّهْبة والصَّمْتِ، فلما استشرف مدير المديرية الصالة،

هرع الزميلان يستقبلانه ويُرحبان، وظل مجاهد فوق مقعده، المصحف أمامه مفتوحًا. وفَزِعَتْ مديرة الخبرة ترحب:

"تفضل سيادتك" وَخَلَّت مكتبها كي يجلس، فأومأ لها أن تظل. وتوقف برهة يسأل عن الحال، ثُمَّ واصل تَطْوافه بباقي الحجرات.

فلمَّا مر خارجًا؛ ربط على كتف مجاهد كالمعتذر، فرقَّ الأخير لانكساره، واستشعر أنه قد غفر له، إلا أنَّه لم ينطق ببنت شفة، وظل بلا حِرَاك فوق كُرسيّه، وكان ممَّا منعه من النُّزولِ ليس لأن الكرسيَّ مُرتفعًا جدًا، يحتاج من يحمله عنه كي ينزل، ولا لأنه له رأى في حقيقة الاتهام في القضية المعروضة أمام النيابة، بل لاعتقاده أن مدير المديرية هذا ظلمه مرتين؛ الأولى لمَّا عُرِضتْ عليه تقارير الكفاءة لإقرارها- والتي استقر عند جميع العاملين بالحكومة، مَنْ عَمِلَ منهم ومن لم يعمل- استقر عند جميع الحصول على درجة ممتاز، قام مدير المديرية بخفض درجته دون جميع من بالإدارة إلى جيد جدًا وهو لم يره، وذكرت له مديرة الخبرة:

"فلانٌ، أكفأ العاملين عندي" فاستنكف:

"يطالب بحقه"، واستطرد، "أنا رجل ظالم" فشكاه مجاهد لدى النيابة الإدارية، فكان ردُّه: أن القانون منحنه هذا الحق.

والثانية أنه في العام التالي، وبإيعاز منه - فلم يكن وكيل المديرية قد عمل كمدير للخبرة إلا شهرًا واحدًا - قام بوضع تقرير الكفاءة للعاملين بالخبرة، وأعطاه درجة جيد جدًا، فقام وكيل الوزارة بتخفيضها إلى درجة جيد، وقال لمديرة الخبرة الحالية مُعتدًا عليها عندما راجعته في الشأن:

"أيعطيه رئيسه المباشر جيد جدًا، وتطلبي منِّي أن أرفعه لممتاز؟" فجهر مجاهد أمام الجميع: هكذا يدفع هذا وأمثاله ثمن تعيينه مُديرًا عامًا، ثمَّ قائمًا بعمل وكيل الوزارة الآن؛ ليكون الرجلَ الأول بعد عودة الأخير، للخَزين بإحدى الغرف بالوزارة، واتصل سيادته بمديرة الخبرة مُرْعِدًا:

"أنا مدير المديرية، نفذي التأشيرة يا مدام."

"الشيخ مجاهد يقول: إنه لا يمكن تسجيل الطلبية؛ لأن الشركة تريد التهرب من المخالفة. ودفعت المسكينة بسمَّاعة التليفون إلى مجاهد، وأجابت:

"هو مع سيادتك" فسأله في حدة:

"كيف تمتنع عن تسجيل طلبية ترد للإدارة؟"، فيُبيّنُ له:

"عند مرورنا على الشركة في حملة وجدنا الطلبية غير مسجلة بدفاتر الشركة، وهي الآن تطلب تسجيلها لتثبت للمحكمة أنَّ الطلبية مسجلة، وأنها تقوم بتسجيل كل ما يرد إليها من طلبيات من أصحاب الأعمال بالخارج فلا مخالفة، فتحصل على البراءة" فصمَّ القائم بعمل مدير المديرية أُذنيه، وتعنَّت:

"أعندك في القانون ما يمنع من تسجيل الطلبيات التي ترد للإدارة؟"

"سيادتك، الشركة تريد التَّهرُّبَ من مخالفة ارتكبتها، وحررنا ضدها محضرًا لمّا ضبطناها لم تسجيل الطلبية عندما وردت لها من أصحاب الأعمال بالخارج."، فصاح القائم بعمل وكيل الوزارة:

"نَفذْ التأشيرة، وإلا حوَّلتك للتحقيق"

"حَولّ زي ما أنت عاوز"

ووضع السماعة؛ وأخذ يُجَمعُ الأوراق التي تدين هذا المُسْتكبر ليذهب بها إلى النيابة. وبينما هو كذلك، أرْسلَ مدير المديرية بالنيابة في طلب الزميل عبد الحي ليشكو إليه رد مجاهدٍ، وأنه باقٍ على عشرة ست سنوات خَلَت، كان فيها مديرًا للخبرة، الاستخدام الخارجي الآن. وأرسل سيادته في طلب جميع مديري الإدارات للاجتماع بهم، فأنابت مديرة الإدارة عنها مجاهد، فقرر سيادته في فخر أمام جميع الحضور: إن اسْتِحقاقه لهذا المنصب، جاء عن جدارة. فقرأه مجاهد في نفسه هذه:" .. بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"..الآية

ثمَّ لم يلبث أن نبَّأ أبو المعاطي الزميل بالإدارة:

"الحَزِين وقع في خلاف مع الوزارة، وتبسم ضاحكًا، عَلَمَ أن الوزارة سترسل مديرًا جديدًا للمديرية، أتعلمون من؟! فلان- مدير إدارة التخطيط والمتابعة السابق؛ فلوح لهم بالاستقالة، فكيف يتثَنَّى لمن هو أحدث منه أن يأتيَ رئيسًا عليه، وكيلًا للوزارة"

وصدقت نبوءة " الحزين " في حق سيادته، إذ لم يكن قد بقي على خروجه معاشًا إلا أيامًا معدودة، فأجَّلَت الوِزارةُ هذا الإرسال، وطلبت منه حضور دوْرةَ وكيل وزارة، وأصرَّ الوزير على رُؤيَة هذه الحالة الفريدة تكريمًا لجهد صاحبها في حسن إدارة المديرية، ومنْحه درجة وكيل الوزارة، فلم يتمتع بها الحزين يومًا واحدًا؛ وجاء تاريخ نهاية الدورة مُوافقًا تماماً لتاريخ نهاية خدمة من عمل قرابة عام قائمًا بعمل وكيل الوزارة.

* * *

الفصل الخامس

فَشَلَ الرئيس العام لجماعة أنصار السُّنة في تسوية الخلاف القائم بين أعضاء مجلس إدارة فرع الجمعية، فطلب التصويت:

"إذًا؛ لم يرفع يده إلا ثلاثةٌ"

فغيّر الطريقة، ولجأ إلى التصويت السري، فانْقلبَ الأمْرُ، فقال كلمةً مشهورةً:

"لقد رأيتُ اليومَ النفاقَ عينه" إذ رغب عن بقاء الرئيس الحالي في التصويت السري جميع الأعضاء إلا ثلاثة، من جملة خمسة عشر صوتًا، كانوا علانية على تأييد بقائه! فطَلَبَ منه الرئيس العام للجمعية تقديم استقالته. وتقدم شاب للرئاسة، فوافق عليه جميع الأعضاء.

وبكي الرئيس السابق، ولم يجد مناصًا من النزول على رأي الرئيس العام للجماعة، ورغبة جميع الأعضاء.. ونزل فحضر مع الدعاة الاجتماع الشهري بساحة المسجد، وبارك تلميذه النَّجيب بل وزكَّاه، وسلم الدُّعاةَ جدول الخُطَبِ والدروس الذي كان قد أعده سَلفًا. وبدا أن الخلاف قد انقضى وبدت للأزمة انفراجة.

ولمَّا حان اجتماع الشهر التالي حَارَ الدَّعاة بين رئيسين؛ رئيس قديم عَزَّ على نفسه أن يُقْصى عن المنصب الذي ألفه عشر سنين، وأن الإقصاء جاء بطريقة

مُهينة، وأن تِلْمِيذَه أُلْبِسَ ثوبًا واسِعًا عليه، فَشَقَّ عصا الطاعة، وقام أغلب الدعاة بالتحزب إليه، فعقد بهم اجتماعًا في إحدى مساجد الجماعة القريبة من بيته، وَدُعِيَ مجاهد إلى هذا الاجتماع فلم يستجبْ لعلمه أن الشيخ قد تركها ورآه وهو يبارك تلميذه، وحضر مع من حضر إلى مسجد التوحيد وكانوا بضعة نَفر.

ولمَّا ذهب لأداء خطبة الجمعـة حسبما الجدول الذي سُلِّمَ له من الرئيس الشاب، وجد آخَرَ قد سبقه لنفس المسجد بجدول الرئيس السابق فاجتمع داعيان لمسجدٍ واحدٍ، ولنفس السبب تركت مساجد أخرى لم يذهب إليها أحد، وكان الجمهور هو الخاسر. واضطر لصعود منبر رسول الله، من لم يكن جَاهِزًا للخُطبة، ولا مُعِدًّا لحديث. بل رأى مجاهد عَجبًا، رأى الداعية الذي حضر معه لنفس المسجد- وكان أَسَنَّ مِنـه، فتركه يصعد المنبر وجلس يستمع إليه- رأى الزميل يستخرج من جيبه ورقة، مكث يقرأ منها كلامًا انشائيًا، عَلِمَ عندما كان يدرس بمعهد إعداد الدعاة أن هذه هي الخطب المَيِّتة التي نُهُوا عنها، فرجع حزينًا.

ولم يَثْبتْ معه من الدعاة في شيعة الرئيس الشاب إلا القليلُ. فيئس الرئيس الشاب من تلك الحال، ولم يتلبث أن عاد إلى السعودية التي يعمل بها مُدرسًا، وترك الأمر برمته. فلم يجد مجاهد ومن معه بُدًا من العودة للرئيس السابق. وكان في قريته لم يَزَلْ يَسْمَعُ صوتًا قريبًا يأتي قبل الفجر ينادي: قُووم. بعد أن يكون قد سبق النداء قذف بالطُّوب لإحدى النوافذ، فأنصت عن الصلاة يتساءل: منْ هذا؟! فعرف صاحب الصوت: أنه سائق النقل المُعانِد، يستنهضه صاحبه ليسبقه إلى المسجد للإمامة..

وكانت دور القرية، تقريبًا، قد أُعيد تشييدها جميعًا بعد سفر المصريين للأردن، والعراق، وأصبحت النوافذ لا تُطَالُ باليد، فاضطر هذا الطارق فجرًا كي يوقظ صاحبه إلى استعمال الحجارة. وأصبحت القرية هي الأخرى حزبين، حِزْبٌ اتخذ

العبادة عادة، وحزب الشباب؛ صدره مجاهد يجاهد طلبًا لتَّغيير العادة إلى عبادة، وتساءل مجاهد في نفسه وهو يسمع النداء: معركة لن تنته إلى يوم القيامة، وتذاكر واقعة أبي سريع -وهذا اسم شهرة - يوم وقف إلى جواره في القبلة، وكان أسامة - أحد إخوانه وناصريه - قد أطلق - أبا سريع - على الشخص لاستباقه للإمامة، وكان يُصابر؛ فلا يتقدم إلى القبلة حتى يُعلنَ المُؤذن: قدْ قامتِ الصلاةُ. عندها كان يخطو إلى القبلة إذا لم يتقدم إليها أحدٌ. فأقبل أبو سريع من أقرب نقطة مُهرولًا، وكانت الصلاة قد قامت، فدخل القبلة. ولمَّا التفت يواجه الناس، يَصُفُّهم، رأى أبا سريع إلى جواره، ورأى الناس ينظرون إليهما، فقال يحدثه:

"دخولك عليَّ القبلة هكذا لا يجوز" فلم يتتعتع كأنَّه صَنمٌ، وظل مُتَتَرِّسًا مكانهّ.

وحتى لا يطول انتظار الناس، وحتى لا يحدث في المسجد هرجًا، رَجعَ هو إلى الصف، وترك لهذا القبلة مَخْذُولًا.

وما أن فُرِغَ من الصلاة حتى مَاجَ من بالمسجدِ بعضهم في بعض، وتقدم أسامة كفتى قَويٍّ، غير هيّاب فأنب أبا سريع:

"هي تناحه، ماذا فعلت؟ أنت لا تدري قدر هذا الرجل، يجب أن يُوقر بيننا كعالم، وتابع تعنيفه، كيف تدخل عليه القبلة؟" ونطق أبو سريع أخيرًا.

"وأنت مالك"

"أنا مالي؛ أنت تَسْرِقْ في الصَّلاة، وتلحن في القراءة" وكادا أن يشتبكا بالأيدي ولولا تَدخُلَه:

"دَعْه يا أسامة، وله نهاية؟"

فاندفع أخٌ لأبي سريع يريدون أسامة، فحال بينهم وبينه، وصاح أبو سريع مُعلنًا:

"سأقابل الحاج صالح، فأقول له ابنك تهجَّمَ عليّ في المسجد"

وردَدَّ أخوه لمن أحاط به من الناس يمنعونه عن أسامة:

"وهو ماله، يتكلم دون الناس لِمَ، هو ماله"

* * *

ومَرّ وقت طويل، وهو يبحث عن مدام أمنية؛ كُلُّ ما نمى إلى علمه بعد اللقاء الأخير بالمديرية أن مدير المديرية بالنيابة وافق على نقلها بدرجتها إلى الوزارة في يسر؛ عملت بالخبرة تحت رئاسته، فوافق على نقلها بدرجتها إكرامًا، وهذا لا يحدث كثيرًا.

وكالذي يبحث عن إبرة في كومة قَشٍ؛ مكث مُتعللًا للذهاب إلى الوزارة، يؤزه الشَّوْقُ أزًا. وبينما هو في سَفْرَةٍ من أسْفاره تلك - وكان قد فتر عن البحث- تحقق له هذا الأمل فجأة، وأيْن؟ أمام حجرة الأسانسير:

"أهلاً، إزيك يا حاجة؟!"، وقفز قلبه فَرِحًا، وجرى يَدُقُّ، فخَضَع، يُدَقِّقُ قبل النطق، بهذه العبارة:

"والله، قَدَرٌ طيبٌ أن نراكِ، والله هذا من حسن حظّنا، وجاءت نبرة صوته خاشعةً بهيجةً فصمت. فأنبأت:

"مررنا بظروف صعبة، هنا فُتِحَ باب الأسانسير، فَانقُطِعَ الحديث، واستقبلها عامل الأسانسير مُرحبًا، فنفحته حين دخولها شيئًا، وتبعها هو إلى الأسانسير فوقف إلى جوارها صَامِتًا.

ولمَّا سارا في الطرقة، جنبًا إلى جنب، تجنب السؤال عن تلك الظروف الصعبة، وقدَّر تقديرًا في نفسه: وما عساها تلك الظروف أن تكون إلا كالتي عانيت، وحافظ

على الحياء والسِّتْرِ، لقدْ عانى شوقًا شديدًا إليها كما عانت، بل وزاد من ألمه، انحراف قلب زوجته إلى ابن عَمٍّ له، وفشله أن يجعل بينهما مَيْلًا يُسْلُو النَّفْسَ عن مُصابها، وكانت – بغباء- تتحيَّن الفُرَص لتعرف أخباره مِنْهُ هُو، وكان دونه منزلة ووجاهة، حينذاك كان يثور في صدره الغَضَبُ ويهتف مشمئزًا: هذه رَدَاءَة، اذهبي إلي الجحيم، ويَصْمت فلا يُجِيبُها. ونفر كذلك من فكرة مُفاتَحتِها فيه، وكم تمنى لو قام بِتَسْريحِها، فيجد راحةً، وارتد يسأل مدام أُمنية عن حال البنات والزوج فقالت:

"الحمد لله" واسْتَشْعر نَبْرةً حَزينة، فرجع إلى الصمت، ومشى إلى جوارها مُستسلمًا لقيادتها، وعَلِمَ أن بنتيها عالية وسُمَيَّة مخطوبتان، وأنهما تُجَهَزان- الآن- للدخول. وبلغا الحجرة فجلس مُتَكِئًا بذراعه فوق مكتبها، ومَضى ينظر للأمام، ويتحدث في رفق، ولحظ أثناء ذلك أن إحدى زميلاتها تنظر إلَيْهِ في حميمية وتبتسم، فَعَلِمَها خازنة أسرارها التي تطَّلِعُ بالأمر، ففاض قلبه لها وُدًّا، لاستشعاره أنها مخلصةَ لصاحبتها وتُحُبُهما.

وحان وقت الانصراف؛ فنَهَضْنَ له النساء فجأة كمن فُكَّ أسرهنَّ ناشطات مُبتسمات يثرثرن؛ فمشت مدام أمنية معه خَلْفَهُنّ. وانصرفنَّ وانصرفت.

ما أسرع انقضاء أوقات السعادة، واضطرار الإنسان إلى الفراق؛ فالآن لزامًا عليه أن يعود وحيدًا من حيث أتى.

تَلبَّثَ حِينًا بفسحةٍ، قبل بوابةِ الوزارةِ، يُطالعُ حزينًا، لا يُريدُ العودةَ.

ولمّا شاهد العُمَّال يتأهبون للانصراف في سرعة، يغلقون البوابة، علم أنه يتوجب عليه المغادرة، وهبت ريحٌ فَشَملته كأنَّما تحمله عليها حمّلاً، فاقْشعر جِلْدُه، ومشى مُرغمًا، يشعر بالبرد، وترك الوزارة، وسار في طريق العودة، يشعر بالوَحْشَةِ،

وأنّهَ غريبٌ في هذا الوجود، تتحرك الأشياءُ حوله، بلا روح، وقامت روحه تُرفرف، كطائر مذبوح يضرب بجناحيه، تريدُ أن تَنْفَكَ منه، لتلحق بـها؛ فصابر يجهش إلى البكاء يَجرُّها جَرًّا.

ولمَّا أوشك خروج مديرة الخبرة على المعاش، وَخُلُو منْصِبها، أخذت تحُضُّه على الصعود إلى مدير المديرية حضًا:

"يا شيخ مجاهد أنت الأحق بهذه الإدارة والجدير بها"

"يا حاجة، أتريديني أطلع فأقول له، اجعلني مديرًا لهذه الإدارة" وقال يُبَيِّنُ لها:

"عقدَ مُديرُ المديريةِ، هذا الاجتماعَ لأصحابِ الشركاتِ، واستمعَ إليهم، واطَّلع على جُهودنا، فإن كان فيه خير لم يتجاوزنا، وإن كان غير ذلك سألنا الله منه السلامة"

وكان مدير المديرية، مدير إدارة التخطيط والمتابعة، الذي كان يكتب شكاوى بأسماء مستعارة في تشاوشيسكو، مدير المديرية السابق- إذا ما اعتبرنا أن مدير الخبرة لم يتمتع بمسمى مدير المديرية ليوم واحدٍ- كان قد بدأ عهده بعقد اجتماعات متتابعة شملت مُديري المناطق، وإدارات المديرية، ومديري مكاتب تفتيش العمل، ومديري مكاتب التوظيف ومفتشي الإدارة العامة للأمن الصناعي، ومفتشي المكاتب التابعة لها، باختصار؛ عقد مدير المديرية الحالي، اجتماعًا لكل شيءٍ، وكأن بلسان حاله يهتف في الجميع: ها أنا يا قوم قد جئتُكم مديرًا للمديرية، لم يُضرني شيء.

ولمَّا جاء دور اجتماعه بإدارة الاستخدام الخارجي ترَدَّدَ اسمه كثيرًا في نقاشات أصحاب شركات إلحاق العمالة المصرية بالخارج، فقال يمتحنهم:

"تقصِدون؛ أن الشيخ فلان يسير فيكم سيرًا غَيرَ حميدٍ، وأنه فيما يفْعَلُهُ له مصلحة خفية؟. فَهَبّواَ جميعًا هِتافًا:

"لا؛ هذا الرجل شريفٌ، لا يستطيع أحدٌ أن يقول فيه غير ذلك، لكن نَطْلُبُه أن يُخَفِّفَ عَنَّا من جِديّاته"

"والله! سأل مدير المديرية وابتسم، فقام الحضور ضِحاكاً، وَسُرَّ هو في نفسه، وَانَقضى الاجتماع، وقيدت حزمة من المقترحات، أَزْمعَ على رفعها في مذكرة للعرض على معالي الوزيرة.

وكان قد تَقَدَّمَ لشغل منصب مدير إدارة الاستخدام الخارجي البعضُ من بينهم أحد مرؤسي مدير المديرية الحالي إبّان أن كان مديرًا للتخطيط والمتابعة، فأهمله حينًا دون أن يبت له في الأمر. فلمَّا دخل عليه ليرى مصير طلبه، وكان هو من أفشى سِرّه لـتشاوشيسكو؛ وقدَّم له مسودة الشكوى التي بخط اليد قَبلَ نسخها، فحملها تشاوشيسكو ونزل للمحافظ، فرفع مدير المديرية ناظريه يرنو إلى مرؤوسه الذي خانه - وكان ضخم الجسم- وفي نبرة مسرحية هادئة قَصَّ عليه:

"بالأمس، فقط، اسْتَخَرتُ الله، فظهر لي في الرؤية أن هذه الإدارة لن يكون لك فيها خيرٌ. عندما تَخْلُو إدارة أخرى، قَدِمْ طلبا آخر، لعل الله يجعل لك نَصِيبًا. فاكتفي مرؤوسه بكظم غيظه، بيد أنه انقلب خارجًا يُتَمْتِمُ بكلام قبيح في حق مدير المديرية الحالي ورئيسه المباشر السابق.

وأَرْسلَ مدير المديرية لمجاهد.

"تَقدَّمَ لشغل إدارة الاستخدام الخارجي فلان، وفلان، وفلانة، يقَصُّ عليه، فما رأيك؟" فأسرع مجاهد فنبَّأ:

"هذه الإدارة أغلبها خطوط سير خارجية، وملاحقات لمخالفات العاملين في هذا المجال، وهم ذو مالٍ وسطوه، مطلوب الجرأة والحسم في التعامل معهم؛ لا تصلح لها النساء، وتحتاج لحسن إداراتها- من يعلم خباياها، خاصة فرار أصحاب هذه الشركات من تسجيل ما يرد إليهم من طلبيات للعمالة من أصحاب الأعمال بالخارج تهربًا من الضرائب" فأصدر مدير المديرية قرارًا مفاده:

وعلى ما عرض علينا ولصـــــالح العمـــل ... قرر: مادة أولى: تعيين السيد/ مُجاهِد عبد الحميد منصور من العاملين بالمديرية بالدرجة الأولى مجموعة وظائف الخدمات الاجتماعية مُدِيرًا لإدارة الاستخدام الخارجي اعتبارًا من ٢٠٠٣/١٢/١١

مادة ثانية: على إدارة شئون العاملين تنفيذ هذا القرار وإبلاغه للجهات المختصة فور صدوره.

تحريرًا في ٢٠٠٣/١٢/١٠

مدير شئون العاملين مدير المديريـة وكيـــــل الوزارة

توقيـــــع

ثُمَّ عاد في طلبه ليقول:

"أصدرنا قرارًا بتعينك مديرًا لإدارة الاستخدام الخارجي، فماذا أنت فاعِلٌ لنَا؟" وللمرة الثانية ينشرح صدر مجاهد، فيفيض سريعاً:

أفضل ما أقدمه لسيادتك؛ برهانًا أنك لن تندم على هذا الاختيار، وأنه لن يأْتيك من جَرّاء عملنا إلا كُلُّ ثناءٍ"

فبدا مدير المديرية باردًا، واستشعر مجاهد أن بضاعته راكِدة، وأنه تحدث باعتداد زائد، فصمت، وواصل مدير المديرية التفكير، ثمَّ العبث فيما بين يديه من أوراق، فتلَمّس مجاهد للانصراف:

"حضرتك تؤمر بشيء؟ "

" شكرًا " مدير المديرية في اقتضاب.

واستشعر مُجاهدٌ في نبرة الصوت القنوط فانصرف يفكر، أن الصِّدق بات غَيْرُ مرغوب فيه، وأنّه ليس شيء إلا يحْمِلَ في طياته مُنغِصًا مًا، ليس جميعه خير صاف، وأنَّه تلقى أوَّل رسوب له عند وكيل الوزارة. وصدق حَدْسُهُ؛ فما أسرع ما بُعِثَ في طلبه مدير المديرية، فَقُدِمَ له بعض أوراق؛ صورة بطاقة شخصية، وصورة مؤهل متوسط، دبلوم زراعة، وَطَلَبَ منه فحصها، وأنبأ مدير المديرية في حميمية:

"هذا أخو الزوجة، يريدون له فرصة سفر للخارج"

"المهنة هذه ميتة؛ مجاهد في تحسب، يعني دبلوم الزراعة، وقال: لا إمكانية لسفرة إلا أن يَخْرُج عاملًا عاديًا، والأجر لن يتعدى ألف ريال" فتحدث مدير المديرية مُوضحًا خطورة الشأن:

"هم يشقون بهذا الولد، وقعوده بلا عمل يسبب لهم الكثير من المشاكل، فقلت لهم لن يخلصنا من هذه المشكلة إلا الشيخ فلان"

"نعم" وحمل الأوراق ورجع مهمومًا إلى الإدارة.

وكلما صعد إلى ديوان المديرية في شأن، كان دائمًا في انتظاره هذا السؤال:

"هِيِ يا شيخ مجاهد، ما أخبار موضوع حسام؟"

"جاري البحث يا رَيس، إن شاء الله، تأتي الفرصة قريبًا"

أو يُقالُ:

"هِيِ يا شيخ مجاهد، حسام يِطَّلعْ جواز السفر؟"

"لا، ننتظر يا ريس حتى نعرف المهنة التي سيسافر عليها. أعطيت أوراقه لأكثر من شركة، وهم يؤكدون لي جديتهم في الشأن، المهم أن تكون فرصة السفر مناسبةً"

أو يُسْتفْتح:

"يا شيخ مجاهد، موضوع حسام طَوِّل، والأهل يحثونني فيه"

"حاضر يا ريِّس"

* * *

والدنيا كدابة سيِّئةُ الخُلُقِ، ترْفُس مُلاحقها، طفق رئيس جماعة أنصار السنة يتحين كل مناسبة يَنقُدُ الدعاة النَّقْدَ أو يطْعِمُهُم الطعام أو يكْسُوهم الثياب ليَمَسِكَ بهم، وظلوا هم يتفلتون منه أو يخرجون عليه. حتى بكي يومًا من أحوالهم السيئة، وسلوكهم المشين معه، فنصح له مجاهد:

"فضيلتك اتركها، أي الرئاسة، وتفرغ لدرسك، والله، إن مقامك ليرتفع بتركها وأنا أول من يتبعك لآخذ العلم عنك"

وبينما هو في السّوقِ مع زوجته، عند محل لإصلاح الأحذية لقيه أحد الدَّعاة فتحدثا سريعًا في الشأن؛ ففوجئ بهذا النّذير:

"لقد أرسلت إليه تَحذِيرًا إن لم يُرسِلني إلى المساجد التي كنت أذهب إليها من قبل، يَعني مَساجِد الدرجة الأولى، وينزلني منزلتي، فسيكون منِّي في شأن، فدُهِشَ مجاهد أَشدَّ الدهشة من انقلاب هذا الأخ على شيخه! وكان قد شهد من فضيلته قبل الفتنة حفاوةً شديدة بهذا الأخ.

ونجحت تلك الطائفة في خرق حالة التَّوقُّف تلك؛ قدموا شَكْوى ضدَّ الشيخ بصفته ما زال رئيسًا لمجلس إدارة هذا الفرع لجمعية أنصار السنة إلى الإدارة العامة لمكافحة جرائم الأموال العامة، وذكروا مخالفات جسيمة وتجاوزات مالية، وقدموا مثلها للمحافظ للشأن نفسه، فأصْدر المحافظ قرارًا بحل المجلس القديم، وتعيين لجنة من خمسة أفراد تُسَيِّرُ أعمال الجمعية رئيسها هذا الأخ الحَانِقُ على شيخه وسكرتير، وأمين صندوق، واثنين من الأعضاء، مع انتداب فردين من موظفي الشئون أحدهم ماليًا، والآخر إداريًا، حتى يتم انعقاد الجمعية العمومية، وإجراء انتخابات لتعيين مجلس إدارة جديد، فاستمرت هذه اللجنة تُباشر أعمالها لمدة عام، وطلبت مديرية الشئون الاجتماعية مَدَّ فترة الانتداب حتى يتم تسوية بعض الأعمال، فتوفي الشيخ أثناء ذلك مِنَ الغم.

شهد مجاهد الجِنازة، كان يَومًا مَهيبًا، هَرَعَ لتشييع الشيخ إلى مثواه الأخير كُلُّ الدعاة، مَنْ ظل مُخلصًا له حتى النهاية ومن انقلب عليه، ففاض المسجد الذي شهد آخر اجتماع لفضيلته بطائفة قليلة من الدعاة، فاض بالمُشيِّعين، وكالعادة تصدر المشهد داعية المنصورة الشهير، ونهض يخطب فيمَنْ حضر: إخواني الفضلاء، من كان له عند شيخنا الفقيد مظلمة، فإني أستحلفه بالله أن يُحِلَّه منها، ومن كان له عند الشيخ دين، فإن دينه عند ولده فلان، وعند أخي الشيخ فلان، يلتزمان بسداد دينه إليه.

وفاضت من الدمع عينا مجاهد، وهو يرى إلى الدعاة واجتماعهم، وحرصهم الشديد على الحضور لشهود الجنازة، واجتماعهم على الحزن البالغ، وهم من عادوه، يأسف لرحيله المفاجئ من كان معه، ومن كان عليه.

ثمَّ النَّدم النّدم يوم أن انتهت اللجنة من تدقيق أعمال الراحل، وتأكد بعد فحص كل شيء براءة ذمته، وتبين أن نَفرًا من مجلس الإدارة السابق هم من غرَّروا به، بل انقسموا عليه، وهم يعرفون أنه من قام بتشييد الدور الرابع للجمعية من ماله الخاص، وكان فضيلته مُهندسًا مدنيًا، فترك مهنته وتفرغ لإدارة هذا الفرع لجمعية أنصار السنة المحمدية.

ولما انتهت فترة انتداب لجنة تسيِير الأعمال، عقد الأمْنُ للمتقدمين من أعضاء الجمعية العمومية، لانتخابات مجلس الإدارة. فتنازل ناسٌ واستبعد أمنيًا ناسٌ، واستقر الأمر لأحد عشر عضوًا، أعضاءً للمجلس الجديد، اختاروا من بينهم سكرتيرًا، وأمينًا للصندوق، أما الرئيس فكان عين الأخ الذي قابل مجاهد بالسوق، فشكى له فعل الراحل معه، فاغتنمها مجاهد فرصةً، وأقبل مُهنئًا، مُتحسسًا، كي يخلو به:

"مبارك لكم يا أخي العزيز، وأردف، تعلم أني أحبك في الله، ولأجل هذا جئتك ناصحًا: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ"

"أخي العزيز! تَعَلمْ من أخطاء من سبقوك، فكن دائمًا مُستعدًا لترك هذا المنصب قبل أن يستبد بك، فتحيا وأنت لا ترى نفسك إلا رئيسًا. أخي العزيز لا تنس دعوتك، خذ لنفسك ولو خطبة واحدة كل شهر، واجتهد للدَّرس، هذا يعينك على التخلي عن المنصب هذا متى استوجبت المصلحة العامة ذلك، فأجابه الرئيس الجديد مُبتسِمًا:

"أشكر لك نصائحك الغالية"

قال:

أدعو الله لك بالتوفيق " قال مجاهد في خشوع وتواضع شديدين، وقام مُنصرفًا.

وفي الأمثال (إن سَرَقَتَ اسرق جمل وإن عَشِقْتَ اعْشقْ قَمَرَ)؛ غير أن وكيل الوزارة الجديد اتخذ شعارًا(الغَنيمة، الغنيمة) قطار قشَّاش يلْتَقِطُ في طريقه كُلَّ شيءٍ، بل خاض أمَّ المعارك مع سائق من سائقي المديرية، استدعى عبد الرَّزاق أخصائي الشئون القانونية فقال له:

"أنا كَامِلٌ، السائق، اسْألْني: لِمَ انقطعت عن العمل"

فَدُهِشَ عضو الشئون القانونية:

"واسأل سيادتك عن كامل لِمَ، يأتِ كامل فأسأله؟"

"اسمع ما أقوله لك، مدير المديرية، أنا قلت كلمة، ولن أرجع فيها أمام المديرية"، فخضع المحقق للرغبة الغريبة تلك، فاستدعى لوكيل الوزارة اسم السائق، وناداه به:

"كامل لمَاذا انقطعت عن العمل أيام كذا، وكذا، وكذا؟"

"ظرف طارئ؛ وكيل الوزارة مُمْتثِلًا: وأطلبُ احتساب الثلاثة أيام الانقطاع إجازة من رصيد إجازتي الاعتيادية"

وأتبع يُملي على المحقق:

"اكْتُبْ؛ وبعد العرض على السيد مدير المديرية، قال سيادته: يحفظ الموضوع، ويؤمر باحتساب الثلاثة أيام الانقطاع إجازة من رصيد إجازة السائق الاعتيادية" يأمر عضو الشئون القانونية، وقد خلع عن نفسه لبسة السائق وعاد إلى لبسته هو.

فسأل عبد الرَّزاق السائق دَهِشًا:

"يخرب بَّيتك يا كامل، عُمْرِها ما حصلت في التاريخ، وكيل الوزارة يعمل نفسه سائقًا مكانك لِمَ؟!

فقال كامل:

"اسْمَعْ يا سيدي؛ وأخذ يقصُّ عليه كذلك: انطلقت استقدمه من البيت فرأيت أولاده الاثنين قادمين، فقال لي:

"افتح لهم الباب يا كامل، الأولاد ذاهبون للجامعة. وركبوا جميعًا، فقالت ابنته لي:

"لو سمحت يا عم كامل، اقفل الراديو لأني أذاكِرٌ" فغمز له وكيل الوزارة أن يفعل ففعل.

وذهب بهم إلى الجامعة، وانتظرَهم فرجع بهم إلى البيت، فقال له وكيل الوزارة:

"تأتني ليلًا يا كامل، فيه عزاء؛ وكيل وزارة مات بالقاهرة، وتابع يُسترَضيه؛ أمرت لك اليوم بعشرين جنيهًا مكافأة بدل سفر"

فجاءه ليلا، فوجد سيادته في (البراندة) بالجلباب لا تبدو عليه أمارة سفر.

"الحقيقة يا كامل، لست أنا من يسافر، الكابتن فلان هو من يأتي معك إلى مصر."

"طيب، وأسير معه كيف؛ سأل السائق، وأكتب في خط سير السيارة ماذا؟"

"اكتب، تُوجّهُ السيارة لإحضار مدير المديرية من الوزارة. والكابتن ضابط شرطة راكب جنبك لن يستوقفه أحدٌ."

فرجع كامل من القاهرة بعد منتصف الليل، فاضطرته الظروفُ للتغيب، فقال في نفسه يَحْسِبُ: يوم راحةً مقابل سفري ليلا، ويومين أقدمهم إجازة.

ولما رجع للمديرية بعد ثلاثة أيامٍ انقطاعٍ قِيلَ له:

"أنت مَطْلُوبٌ للتحقيق يا كامل" فأخذته العزة بالإثم، فصاح غاضباً:

"وأنا لن يحقق معي أحدٌ" فقبل له

"المُهِمّ، هذا هو خَطُّ سيرِك، أنت مسافر مع مدير المديرية وبعض الزملاء إلى القاهرة غدًا"

وفي طريق العودة، قرب مطار القاهرة، دار بين مدير المديرية والسائق هذا الحوار:

"ما لك يا كامل، آفل لِمَ؟ "، فردَّ حاسمًا

"لست قافِلًا، وأقفِّلْ لِمَ؟ "، فتدخلت مدير الشُّئون المالية والإدارية للإصلاح:

"كامل آخذ على خاطره؛ لأن سيادتك قمت بتحويله للشُّئون القانونية"، فانتفض وكيل الوزارة:

"وآخذ على خاطره لِمَ؛ وهو على رأسه ريشه؛ شأنه شأن أيِّ واحدٍ في المديرية.

هنا خلف السائق نبرة الهدوء؛ وتحدث ثائرًا:

"نعم أنا ليست على رأسي ريشة، لكن من هِنا ورايح كُلُّ واحد يعرف شغله تماما، ما له وما عليه يعمله"

فسأله وكيل الوزارة:

"تعني ماذا من هنا ورايح؟"

"يعني؛ من بعد اليوم، أولادك لن يعد أحدٌ منهم يُحطّ رجله في السيارة، لن تحملهم السيارة إلى الجامعة، لن يركب السيارة إلا مدير المديرية فقط"

كان نُشُوزُ السائق فجًا مُفاجئًا فناداه وكيل الوزارة:

"وَقِّفْ نَزلْنِي" فأبطأ السائق على الفور، ورَكِنَ جَانبًا.

ولمَّا لم ينزل مدير المديرية ولم يخلف السيارة، فأين يذهب؛ فالمكان لا زرع فيه ولا ماء؛ قفرٌ، عن اليمين صحراء صفراء، تلوح من بعيد الطائرات الراسية في مطار القاهرة، وعن الشمال تنطلق في جنون خارجة من القاهرة المركبات المُولية، وأخرى مقبلة تستبق المدينة. ولمَّا استيأسوا منه، خَلَصوا نَجيًّا، قالت مدير شُئون العاملين للسائق تساره: " لِمَ توقفت يا عم كامل؟"

"وماذا أفعل؛ أنا نَفذت كلامه، واحد بيقول: وَقِّفْ، نَزِّلْني، فوقفت أنْزِله"

فحضته السيدة على استئناف السير ضارعة:

"حرام عليك، ألا ترى وجهه؟ امشي بسرعة، الرجل هيموت مِنِّنا"

ولمَّا رجعوا إلى المديرية، في اليوم التالي، كُلِفَ وكيل الوزارة مسئول السيارات بتغيير السائق:

"كامل لا يعمل معي بعد اليوم، هات لي السائق حسن"

وصاح في طاقم مكتبه:

"استدعوا لي فورًا محمد عبد الرازق، مسئول الشئون القانونية"

الفصل السادس

كَثُر تَرَدُّدَ مجاهد على الوزارة، وَكَثُرَت زياراته لمدام أمنية، واستشعر نظرات متطفلة تقصده، فَحَرِصَ هذه المرَّة أن يأتيَ معه بزميل تحت رئاسته، في الطريق يقرأ عليه من وِرْدِه، حتى إذا بلغا الوزارة، وفرغا من مأموريتهما، أرسله بين يديه يتحسس من مدام أمنية، فَيَرِدَ عليها الزميل كزائر أولًا، ثم يُدركه هو عندها، كذلك ليَعْلَمَ الجميع أن وفوده على مدام أمنية من باب العِشْرَة والزمالة السابقة، ليس إلا. وكانت زيارته اليوم مستشرفة، كأن النفس كانت معها على اتفاق، إذ رنّ موبايلها، فابتسمت تحادث ابنتها عالية:

"أتعرفين من يقعد عندي الآن؟ الشيخ فلان، خذي كَلِّمِيه، فَأَخَذَ الموبايل، وفي فيض من الودِّ ابتسم:

"كيف الحال، أدْعو لَكِ في كُلِّ صلاة"

"يا رب يكون من نصيبنا؟" ردَّدَت مدام أُمْنِيةٌ، فأردف هو يُكَلِّمُ البنية بشكل مُباشر، سعيدًا بما حَمَلَ لها من خبر سعيد، خاشعًا جدًا:

"أحضرت لك عريسًا" فالتقط على الفور طرف الحديث رفيق السفر، فاتًا في عرضه:

"هشام شملول، وهل أنت تصدقه في كلامه؟ وتابع، ذا كبير، تعدى الأربعين سنة" وأجابت البُنَيَّةُ في كرمٍ، ولمْ تتطرّق للعرض:

"مبروك للحضانة"

"جَزاكِ اللهُ خيْرًا، وقال: لا أريد أن أطيل عَلَيْكِ، أدْعو لَكِ دائمًا بالسعادة، ماما معك" وأرجع الموبايل لأمها لتستكملا حديثهما، ونظر في أسى شديد إلى هذا الغافل، لِتنقيصه للعريس، لقد أسرع فيما أسرع فيه تطييبًا للخاطر، وإدخال السرور على البُنَيِّة بعد تجربة مرت بها، لتعلم أن الدنيا لَمْ تَزلْ تحمل لها من الخير، فتدخل هذا بقسوة، ليُحْبطَ من جديد، ويؤذي. واستشعر أن اندفاع هذا الأخ للِّنقض كان حسدًا إذ خصّ بسعيه غَيْرَ بناته، وكان نسله بنات كلهنَّ..

لقد سَمِعَ هذا الأخ هشام شملول وهو يُلِحُّ عليه كثيرًا، يطلب منه عروسًا دَيِّنَةً من معارفه، حُبًّا فيه، واشترط أن تكون جميلة ومن عائلة. ولأنه كان يجد نفسه مَهمومًا بشأن هذه البنية بحَثَ كثيرًا عن زوجٍ كُفْءٍ لها، في معارفه فوجدهم من طائفة رقيقِ الحال. فلمَّا كَلَّمه هشام شملول، وعاد إلى طلبه وألَحَّ، وكان من عائلة، ويشغل وظيفة مراجع في الجهاز المركزي للمحاسبات، الجهاز المرموق، فارتآه كُفئًا لهَا، أما وقد عَرَّضَ به هذا؛ فلن يرجع في حديثه مع مدام أمنية إلى عَرْضه ذاك حتى لا يجرح.

غَيْرَ أنَّه رجع مهمومًا أكثر من ذي قبل بشأن الفتاة، يفكر في حديثها عن الجيل الجديد، الشباب الهازل، الجريء، المحتاج إلى تأديب، وتذكر يوم حضرت إلى مكتب الخبرة، كانت في الثانوية العامة فمضى خافضًا جناحه لها، ينتقي الألفاظ في عناية، يكلمها عن سورة النَّحل المُقَرَّرَةِ عليهم، وكانت قد طلبت من أُمِّها أن يشْرحها لها، وفي نهاية الشرح ابتسمت مدام أُمنية تُلَمِّحُ إلى هذا الحضور السعيد، والمشاعر الحميمة والإفاضة في الشرح:

"هي يا عالية، درس خصوصي هذا."

كانت سورة النحل هي آخر سورة حفظها، ورغم طولها- قرابة الجزء- إلا أنه أنجز حفظها، وقراءة تفسيرها في أسبوع واحد، لأجل هذا الطلب، وقتها كان على أبواب الخامسة والثلاثين، وكانت عالية ابنة السادسة عشر ربيعًا، واستشعرها يومئذ سعيدة بجواره، وتأكد له ذلك من تلميح أمها، وَعجِبَ لتنازل الأُمِّ عن طيب خاطر عمَّا في يدها لابنتها، وَحَزَرَ أن ما حدث من خطيبها، أنه هَمَّ بها وهو بعد خطيب، ليس بزوج، فهو في حكم الشرع كالغريب، فأَنَفَتْهُ، وترك لديها هذا الانطباع السيّء عن هذا الجيل الجديد: جيل غير مسئول؛ يحتاج إلى تأديب. وعلقت أُمُّها له عن رد فعل ابنتها كبكرٍ مَخطوبة أُريد بها تلمح للعلاقة الحميمة:

"البنت هذه ردودها عنيفة، أختها الأصغر تعرف كيف تُمَشّي حالها"

ولمَّا رجع من السفر رآها ليلًا في منامه، قاصرة الطَّرْفِ تنظر إليه بإحدى عينيها في إعجابٍ شديد، بَينما العين الأخرى طافية، وفجأة قالت تدافع عن نفسها:

"أنا لا أخطف زوجًا من زوجته، أنا لا أُخَرِّبُ البُيوت"

فاستيقظ مَهمومًا لهذه الرؤية، وجاهد كثيرًا في تأويلها، وفيما كانت إحدى عينيها طافية، بينما العين الثانية ترنو إليه في إعجابٍ شديد.

* * *

ما أن أُخْبِرَ حسن – السائق- أنّه قد اخْتير بديلًا عن كامل ليعمل مع مدير المديرية إلا وجأر:

"على جُثَتي، لن أعمل مع مدير المديرية هذا"

فاضطر مسئول السيارات أن يدخل على مدير المديرية يطلعه بالأمر:

"حسن رافض، واسْتَحْي أن يكمل، العمل مع سيادتك"

"على العموم حسن كَبُرَ عنده ٥٩ سنة، ونْخاف على الموظفين منه نُرَيَّحه"

وبنفس النَّبرة الهادئة، أخبر مدير المديرية حسن، وقد أُدْخلِ عليه:

"أنت رجل عندك ٥٩ سنة، نريحك؛ تأتي صباحًا في السابعة، وتَرُوحُ في الثالثة والنصف؛ عصرًا، هذه مواعيد عملك الرسمية، ولا تسأل عن بدل سفر، ولا قياس مستوى مهارة، ولا مزاولة حرفة، وكَثُرُ خَيْرُنا أن نعطيك مرتبك"

فمكث السائق شهرًا، حَبيسًا كعصفور في قفص، يلزم الصَّالة بلا عمل، يُطالع وجوه القادمين إلى المديرية، والمُغادرين منها مُتَحَسرًا. وفجأة نزع نفسه من مقعده؛ وَهَرَعَ يقف بين يَدَيّ مدير المديرية خفيض الرأس ذليلًا:

"أنا جاهزٌ للعمل مع سيادتك"

"الآن؟" مدير المديرية مُستوثقًا.

ولأن الطريق من موطنه إلى المديرية يمرُّ بموطن وكيل المديرية، كان مدير المديرية يَمُرُّ به فيركب معه. فإذا كانت السيارة مشغولة بأفراد أسرته ولم يعد بها مكانًا للوكيل، أَمَرَ حَسن أن يسلك طريقًا آخر، ويتركَ وكيل المديرية واقفًا يُحَطِّمُهُ الانتظار والقلق.

حتى جاء يومًا دخل ففتح عليه الباب، وأطلق سيلًا من الشتائم:

"كَلْبٌ، حَقِيرٌ، ظالمٌ، مَفْتَرِيٌّ، واختتم يدعو، رُوُح يا شيخ ربنا لا يبارك لك؟" وأغلق الباب دون مدير المديرية وخرج موليًا.

وكان مدير المديرية قد أصدر قرارًا بتشكيل لجنة شئون العاملين للنظر في تقارير الكفاية؛ برئاسة وكيل المديرية، وأمانة مدير شئون العاملين، وعضوية كُلٌّ مِنْ؛ مدير إحدى المناطق، وفردين من نقابة العاملين للدفاع عن حقوق العاملين، فلمَّا ذهب عنه الرَّوْعُ، استفاق إلى مدير مكتبه مُتَمَثِّلًا البرود ذاته؛ يَسْتَفْسِرْه عن سبب ثورة وكيل المديرية العارمة ضِدّه:

"هو مـاله فـلان، مـاذا حصل؟"

"لأن سيادتك أخرجته من لجنة شئون العاملين" مدير المكتب. فهلَّل مدير المديرية مُتَفَرِّجًا:

"الله؛ وهل يِنْفَعْ رئيس لجنة شئون العاملين، ورئيس لجنة التظلمات أن يكون شخصًا واحدًا؟!"

"لم يعْرِفْ أن سيادتك أدرجت اسمه في لجنة التظلمات؛ لأجل هذا هو غضْبان" كان هذا هو التفسير الظاهر لمدير مكتب سيادته؛ للثورة العارمة لوكيل المديرية، ولم يَطَّلع على باطن الأمر.

كان وكيل المديرية قد خرج يُصيح على رءوس الأشهاد مُهَدِّدًا بنزوله إلى معالي المحافظ؛ ليَقُصَّ عليه من تصرفات مدير المديرية الشِّيْن، وسكت الأخير؛ وراح يفكر في حرج في سيَّارة المديرية؛ التي يتوجب على حسن أن ينطلق بها ليلًا في مأمورية عاجلة، حاملًا ابنه الضابط إلى محطة القطار بالقاهرة، ومن هناك سيركب الضابط مُسافرًا إلى صعيد مصر، مِمَّا يَضْطَّرَ حسنًا والسيارة أن يكونا غائبين عن المديرية غدًا.

وبعد ساعتين كان وكيل المديرية لايزال في شدة غيظٍ، يكلم نفسه حين دخل عليه مُجَاهدٌ، فأسرع يقصص من نبئ مدير المديرية لديه:

"الرَّجُلُ الناقص، يأخذ السيارة ويذهب من طريقٍ آخر حتى لا يمر عليَّ فأركب معه، فعلها مِرارًا؛ تصور سيادتك، يدعني ملطوعًا ساعةً كاملةً على رُصافَةِ الطريق! وقال، أنا مغموم. وفجأة انقلب ضَارعًا إليه:

"عندي ثلاثة أولاد - لا يتخيَّرون عن سيادتك- دين، وأدب. الولد الأول بكالوريوس علوم، وهذا قد ارتحت منه؛ أنشأت له صيدلية يَقِفُ فيها. الثاني بكالوريوس علوم وتربية، ولا يعمل، يشغل وقته في إعطاء دروس لبعض التلاميذ في البلد، أمّا الولد الثالث الصُّغَيـر فمِدَوّخْنِي، بكالوريوس خدمة اجتماعية، نائم لي في البيت ليل نهار؛ كما البنت البكر، لا عمل له إلا النّوم. أكون شاكرًا جدًا لسيادتك، لو استطعت أن تجد له فُرصة سفر للخارج يبني بها مستقبله، واستدرك في مودة زائدةٍ، أنا أسمع عن سيادتك كل خير، سمعتك سباق - ما شاء الله - جاد في عملك. فتنهد مَهْمُومًا يُخْبِرُ:

"الـ بكالوريوس علوم وتربية ممكن أن يُسافر مُدرسًا، لكنهم في دولة السعودية يطلبون شهادة خبـرة في التَدْريس، على الأقل سنتين، فردَّ ملهوفًا:

"سأحاول في شهادة الخبرة؛ لو ادفع فيها الشيء الفلاني. عاوز أعمل للأولاد حاجة قبل ما اتْرك الخدمة واخْرج معاشًا، فطمأنه مجاهد في صدق:

"يا ريس نحن نخدمك وأنت معاشًا أكثر ممّا نخدمك وأنت في الخدمة" واستطرد:

"المشكلة، أن بكالوريوس الخدمة الاجتماعية مهنة ميتة، لا تُطْلبُ في دول الخليج، هم يطلبون الطبيب، المحاسب، الممرضة، النَّجار، الحداد، يطلبون المهن التي تنفعهم، ويرتزقون من ورائها.

فاسْتَبسل:

"الله يكسبك، الولد الصغير هذا ابحث له، سيادتك، عن أي حاجة، مثلًا، أمين صندوق، الولد: أمانة ودين وأدب، من هذه الناحية سيادتك كن مُطمئنًا جدًا."

"مُمْكن يعمل على كمبيوتر، ولكنه سيسافر بصفة عامل؟"

فأسرع وكيل المديرية خاضعًا:

"أُعطي له دورات في الكمبيوتر، الولد يتعلم، المهم أخلص، الله يكرمك"

فأعلمه في حسم ووضوح تام، دون خَشْيَةٍ:

"شركات إلحاق العمالة هذه تأخذ فلوسًا، وأنا أحب ألا أظلمهم، وحتى تظل رؤوسنا مرفوعة وأيدينا نظيفة، فأسرع وكيل المديرية مُؤكدًا:

"من هذه الناحية اطمأن، سأدفع ما تأمرني به سيادتك؛ تريدني أن أحضر فُلوسًا من بُكْره، أنا جاهز"

"لا، أريد فقط، صورة المؤهل، صورة شهادة الخدمة العسكرية، صورة البطاقة، ونموذج استخدام خارجي رقم (١) من البريد بجنيه"

وكمن أغيث من قحط سِنِين:

"من بُكره كل ذلك يكون عند سيادتك"، ونهض عن كرسيه، أنا شاكر جدًا لسيادتك، وشَيَعّهُ مبتهلا ومُهللًا:

"روح يا شيخ، ربِنا يبارك لك، ويزيدك أكثر وأكثر."

* * *

في القرية سعى فرد الإخوان حثيثًا؛ يُذرّي عليه: هذا الشخص مُنَفِرٌ جدًا، فيه غلظة. ربما يكون فقيهًا لكن لا يصلح أن يكون داعيةً.

"أنا مُنَفِرٌ؟!" تساءل لِمُحدِّثه مُبْتَئسًا:

"أنا بي غِلْظة؟ لا حَوْلَ ولا قوةً إلا بالله."

"يُسمي الذي يستمسك بالكتاب والسُّنّةِ، يريد إصلاحًا، غليظ القلب مُنَفرًا!"، غَيْرَ أنه آل على نفسه يُفكر.

ولمّا مَرَّ على بعض معانديه، غَيَّرَ من طريقته؛ ابتدأهم بالسلام، وأقسم لأبي سريع:

"والله يا أخي، ليس لديَّ مانع أن تؤمنا، لكن هؤلاء عَوَامٌ يفرحون لك اليوم، وغدًا إذا قامت القيامة يَرْجَعُون يلومونك، سيقولون: لولا أنت لكنا فالحين، تصدَّرتنا، فأوْردتنا المهالك."

وأقسم:

"والله يا أخي ما نريد إلا أن نصلي، ونريد منك الاطمئنان في الصلاة"

فيهدأ يومًا، أو بعض يوم، وتعود رِيمَةُ لعادتها القديمة؛ يعمل بلغة العوام: اللهُ ينّور، يقلب الصلاة قَلْبَا، فيستشيط منه غضبًا، ويضْطَّرُ العودَ لمقاطعته رغمًا عنه.

ثمَّ إنه أراد أن يحرك الماء الراكد؛ فرجع إلى مخاطبته، مُقترحًا عليه؛ لعله يُغَيِّرُ مِنْه:

"أريد أن أقرأ عليك القرآن": يواريه، وقال:

"نجلس عندك يومًا وعندنا يومًا"

وأنشأ يَتْلَوَ عليه - يوميًا - بين المغرب العشاء؛ جزءًا من القرآن، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، فأتمَّ عليه قراءة القرآن جميعه، هنا سأله أبو سريع يتحسس:

"أُجَرِّبُ"

قال:

"من أي موضع تريد أن تقرأ؟"

قال:

"من يُوسُفُ، الجزء الثاني عشر إلى آخر القرآن"

"اسْتفتحْ"

قال:

"لا، استفتح أنت" وضحك.

فقرأ، فأتمَّ عليه سورة يوسف- نصف جزء- وأعقبه هو يقرأ"

وكلما مَرَّا بسورة نسيها أبو سريع، اقتصرت القراءة عليه فقط، حتى بلغا سورة النَّاس، آخر سُوَر القرآن. فأخذ أبو سريع يتراجع إذا أُقِيمت الصلاة، وقدَّمه يُصَل بالناس، والتزم هو ألا يتقدم حتى يشير له، حتى إذا أخذ الناس يطلبونه للإمامة إذا أقيمت الصلاة دونه رجع يستبق، فكلمه شخص:

"اترك لغيرك شيئاً" يعنيه.

قال:

"أنا من أقرأته القرآن" أبو سريع، وتابع، وأنا أكبر منه سِنًّا" وعلا صوتهما ورآه مجاهد يخلف الأخ عبد الناصر، ويسرع خارجًا من المسجد، وأخبره عبد الناصر بالمقالة، فعجب:

"سبحان الله! لقد احتلت عليه، فقرأت عليه القرآن جميعه؛ ليعلم أن هناك من هو أقرأ منه فيبطئ عن استباق الإمامة"

فاضطر العود للمقاطعة، وزاد عليها مَكْرًا؛ يخرج إلى المسجد بعد الآذان وقبل الإقامة، ويظل واقفًا باسطًا كفيه يدعو الله، فالدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد، فإذا تهيأ المؤذن للإقامة كَفَّ؛ لينظر من طَرْفٍ خفي إلى خصمه الجالس تلقاء القبلة مُستعدًا، فيباغته أمام الناس، فيسبقه للقبلة. فيدور المِسْكين حول نفسه، ويضْطَّر إلى الرجوع إلى قلة فوق قاعدة سارية من سواري المسجد يشرب، فيضحك الناس لعلمهم أن ليس الشُّربُ مُراده، بل الخزيُّ الذي نزل به. ويكون الصف خلف الإمام قد شغل، فيذهب أبو سريع إلى أحد طرفي الصف مُخْتفيًا.

فحرضه صاحبه الذي يوقظه ليلا الدخول إلى القبلة قبل أن يأخذ المؤذن في الإقامة، فتلبث مُجَاهِدٌ مُكتفيًا أن يُطالع الناس هذا المشهد، يهرع أبو سريع إلى السجَّادة الموضوعة في القبلة - مصلى للإمام- فينزعها لينفضها في الهواء مرتين أو ثلاث ثمَّ يعيد بسطها، ويقف مُعطيًا الناس قفاه ينتظر الإقامة، فإذا فرغ المؤذن من الإقامة، استدار يحدث الناس يتمُتَمُّ في ضعف:

"استقيموا إلى الصلاة يرحمكم الله" مُتَوجَسًا أن يعترض عليه مُعترضٌ، ويعود فيوليهم قفاه داخلا في الصلاة، فَدَرَسَ فرد الإخوان المشهد، فَحَرَّض الشاب الذي يعمل خطيبًا لدى جماعة أنصار السنة:

"أراك عندما يكون فلان واقفًا لا تتقدم"

"الأخ مجاهد لا يجوز التقدم عليه، الشاب، فهو الأحق بالإمامة، واعتاده الناس، وهو أكبر مني سِنًّا"

قال:

"فهو يتقدم على فلان، وفلان أكبر منه سنًا وألفه الناس قبله"

الشاب:

"فلان هذا يُلَحنُ في القرآن، كما أن الصلاة خَلْفَهُ لا تصح"

فاستمر فرد الإخوان في لمزه:

"أرى حرصه على الإمامة، والمفترض أن يترفَّع عنها"

وكان هذا الشاب قد قال لمجاهد يومًا وقد أعجبته سيرته: كلُّ نَبِيٍ يبعث في قوم يكون أوسطهم نسبًا، وأنت فينا بهذه المنزلة، ويسْتَحْي منك الناس. فشكره، وكان حديثَ السن، وليس من عائله تدين لها الناس، فكان لا يجرؤ أن يتقدمَ للإمامة، فقدمه مجاهد في حضوره حتى يرضاه الناس، فإن لم يكن موجودًا، لم يَعْدَمُوا من يصلح أن يُصلِّيَ، فلحظ أن الشاب بات مُهرْوِلًا، يأتي فيقف إلى جنبه، منتظرًا تَقْديمَهُ، فكرهها منه، وقال في نفسه: ليست الإمامة جمعية يقبضها كُلُّ أحدٍ مرة، بل يَؤُمُّ الناسَ أقرأهم، فإن تساووا في القراءة فأعلمهم بالسنّة، فإن تساووا فأكبرهم سنًا، فإن تساووا فأوسطهم نسبًا، وقال في نفسه: يجب أن يرى الناس منّا الالتزام، فيعلموا أن الإسلام صراط مستقيم، كل شيء فيه مرتبٌ، ولكي لا يختلف الناس باختلاف الأئمة، وكي لا يجترئ على الإمامة مُجترئ.

ولتلك الحجج لم يُقْدِمْ مجاهد على إعادة تقديم الشاب في حضوره، وفجأة، قبل إتمام المؤذن للإقامة، قدم الشاب نفسه، وسعى إلى القبلة دون إذن منه، فلمْ يستطع مجاهد أن يخفي مشاعره تجاهه، مكث يُطالعه في صَغارٍ مُشمئزًا وقال: وجه قاسٍ عديم الحياء، قالها في نفسه، ورجع يقص لزوجته، وهو لم يزل غاضبًا:

"تصوري فلانٌ هذا، الذي قدمته إلى الناس حتى يعرفونه، فإن لم أَكُن موجودًا لم يعدموا من يُصلي، وكان لا يجرؤ أن يخطو خُطْوة إلى القبلة قبل تقديمي له. اليوم كنت واقفًا أنتظر تمام الإقامة، فجأة دون سابق إنذار، وقبل أن يفرغ المؤذن، سبقني إلى القبلة ليُصلي بالناس. واستطرد: كنت ألحظه، يهرول فيقف إلى جواري كي أقدمه؛ وكأن الإمامة جمعية تُتَداول، يقبضها كُلُّنا مَرةً، لاحظت ذلك فامتنعت أن أقدمه. وفجأة زكى نفسه، وأنا أعْلمُ مَداخله ومخارجه، هي مواطن يقرأ بها فحسب، ولو عُلِّقَ من قدميه إلى سقفٍ، ما استطاع أن يقرأ جزءًا واحدًا من القرآن متكاملًا، قالت:

"ما تريّح نفسك، وسيبها لهم، وتابعت نافرةً، وهل لم يعُد لنا شُغلة إلا الإمامة، اخرج فصل في وقار، وافعل كما يفعل الناس، وأردفت بعد تأنيبه:

"وماذا عن حجرة المسجد، أذهبت إلى الأوقاف؟" قال:

"استبق بليل فرد الإخوان، فعلق عليها لافتة دار المناسبات، لمّا علم بسعينا لتأجيرها حضانة للأطفال"

"استغل قريبه الذي يعمل سائقًا لأمين عام الحزب الوطني بالمحافظة فأعطاه طلبًا أخذ له عليه موافقة من وكيل وزارة الأوقاف لتكون مضيفة، واستطرد، فعل هذا رغم وجود المسجد، وأن هذه الحجرة لا تصلح مضيفة، فهي لا تزيد عن مِئة

متر، وفي الدور الثاني، والصعود إليها صَعْبًا، والمسجد في الدور الأرضي وأوسع منها أضعافًا، وجهدت في إقناع الناس وقلتُ:

" ليس في القرية مدرسة ولا حضانة، وأقرب مدرسة لكم في كذا- قرية بينهم وبينهما طريق مزدوج طوله ألف متر، عليه زوجان من الكباري لمرور العربات، وهناك خطورة على الأطفال، وتابع يقص ما كان قد كتمه عنها كي لا تحزن:

" فأخذ هذا السيئ يُرْجفُ، أني أريدها حضانة خاصة لزوجته، ودار المناسبات للناس كافة، فقلت:

" أنا تقدمت قبله بشهور بطلب إلى الأوقاف لتأجيرها كحضانة للأطفال ولولا أن الموافقة تأتي من رئاسة الأوقاف بالقاهرة لانتهيت منها قبله، كما أن اللائي سيعملن مع زوجتي في الحضانه من بنات القرية المتعلمات، والاختيار سيكون للكفيئات منهنَّ وأولات الحاجة، وفتح باب التقدم لشغل الوظائف سيكون عَلنًا، والمسجد يغني عن دار المناسبات والقعود فيه مجانًا، بخلاف دار المناسبات التي ستتطلب الأوقاف تأجيرها في كل مناسبة، ثمَّ إنَّ الحضانة لا شيء يقوم مقامها، فقال النفر الثلاثة، رسول السوء، دَرَّس لهم فرد الإخوان ما يشوْشرون به عليْنا وقد عجزوا عن الحجة:

" كل واحد يمشي في طريقه، واللي ينجز قبل الثاني يكون هو والأوْلى" قلت:

" هذا منطقٌ لا عدل فيه، وتغيب عنه المصلحة، بل هي شوشرة وإبطال لعمل سبقت إليه، وبيَّنتُ: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ " ونهى النبي أن يخْطِبَ الرجل على خطبة أخيه أو يبع على بيع أخيه، فتشاجر الناس في المسجد، وبت بشر ليلة، فكانت الحمية للقرابة، وتقاعس أغلب

الناس منتظرون ما تسفر عنه المعركة، فاستبق فرد الأخوان ليلًا فعلق اللافتة، وأشاع في الناس أنه حصل على موافقة بجعلها دار مناسبات، فسألت زوجته:

" وأمين الحزب الوطني هذا لِمَاذا لم يسأل أين مصلحة القرية؟"

قال:

" تسألين أمين الحزب الوطني عن المصلحة؟ ألم يَتَقَدَّم إليه بالطلب سائقه الخاص، من روحه معلقةً بيده، هذه هي المصلحة التي يحسب لها هؤلاء. وقال يأسى: وأخذًا بالأمر الواقع، واستغلالا لجهل الناس، وإحجامهم عن التصدي، سبق هذا يعني فرد الإخوان، فعلق ليلا اللافتة - دار المناسبات.

قالت:

" أنت معارفك كثيرة، تستطيع أن تنهي هذا الموضوع لو أردت، فسأل في سلامة نِيَّة:

" إذن دليني"

فقالت تَلْمِزْه:

" العارف لا يَعَرَّفُ." تُلَمحُ أنَّه فرد يعمل لدى جهاز أمن الدولة الذي بيده مَقاليدُ كُل شيء.

* * *

الفصل السابع

يستطيع المرء أن يوقن أنَّ عَجِينَةَ النساء التي منها خُلِقْنَ أُشْرِبَت ماء الغيرة، فبسلطان الحاسة السادسة قالت الزوجة تُلَمحُ إلى سفره الكثير:

"رِجْلَكْ خَدِتْ على الوِزارة!"

"مسافر في شُغُلٍ"

"يا عيني، ليس في الإدارة غَيْرُكَ! لماذا لا يسافر الأستاذ أبو المعاطي أو الأستاذ عبد الحي؟" وقالت:

"خذها مني نصيحة، نحن الحريصون على الذهاب إلى الوزارة"

"وهل بقي في الناس هِمَّةٌ للِشأن العام، مبارك علم الناس دوران كُلٌّ في ساقيته الخاصة."

"طالما هِمتُك مصالح الناس، اعتبرني من ضِمْنِ، وِاسْعَ لي في مصلحتي؟"

ورآها تعود لنفس الشيء أنه يستطيع، رغم سعي فرد الإخوان، أن يرخص لها الحضانة على حجرة المسجد، إنقاذًا لها من الوحدة، والعيش بلا فائدة، وفاجأته بهذا السؤال:

"قُلْ للوزيرة تِشَغَّلْنِي؟" فأقسم غير هازل:

"والله، لو يَصْلح أن أَخْرجَ مَعاشًا مُبكرًا وأقْعد في البيت مُتفرغًا لهمِّي العام، مقابل تَعيينك موظفة مكاني ما ترددَتُ"

"قل للوزيرة ذلك"

"يا زوجتنا العزيزة، هذا نظام دولة."

"قل لحبايبك" تُلمح – ثانية- أنه فرد أمن، تذهب للمنحى الذي يغضبه، فلم يجد إلا أن يصمت، فارتدت تُلَمح لِمَا بِيَّتَهُ في نفسه:

"وهـ تقابل مَنْ في الوزارة؟" فابتسم رغمًا عنه لتلك الحاسَّة:

"لَوْ بَقِيَ بعض الوقت، ربما، ذهبت لأشرب شايًا عند مدام أمن

وتتحسس للصدق فسكتت، ولم يُعَلِّقْ. وبات واجف القلب يعاهد الله ألا يقترف إثماً، وأن يعقد لسانه جيدًا، مَهْما بلغ به الشوق، فلا تفلت منه كلمة تَصِفُ وَجْدَه، وأن تقتصر الزيارة على الاطمئنان والسلام، وإلا ماذا لَو عُوقِبَ بذنبه، فذهب فوجد مدام أمنية في إجازة، فعاد ولمْ يَرَها. على استحياء أقبل فرآها في الغرفة، والغرفة ممتلئة بالزملاء والزميلات، وذهبت جميع الوجوه إليه فجأة، فَرفع بصره عنها، وذهب به إلى الجميع، وألقى عليهم السلام مُبتسمًا قبل أن يجلس إلى جوارها، فابتسمت تُعَرفه إلى الموجودين:

"فلان زميل سابق في مكتب الخبرة" وقالت في ابتسامة مصنوعة، على مسمع من الجميع تسأله عن الزميلات الزملاء.

فصدمته نبرة الاستعلاء، وظنَّها تدفع عن نفسها الشك. غير أن كلمة، فلان، التي قيلت في تعمد، مجردة من ألفاظ العناية التي اعتادها الناس، أصابت قلبه بوجع، فاستحال على الفور شوقه الشديد، وقلبه إلى وعاءٍ باردٍ، بلغ درجة النّفور منها،

وأنه لا يربطه بها ولا بهؤلاء أيُّ رابط، وبدا المكان مُوحِشًا، ووجَدَهُ يردد في صدره: ما أجبن النساء. وتَطَّرق حديثهم لداعية المنصورة الشهير ونجمه الذي يسطع بإحدى الفضائيات الدينية فقالت في إعجابٍ لمْ تسْتطعْ إخفاءه:

"أنا أُتابعه، يــاه" وأزهر لوْنُها، كعادتها عند التأثر، فَتعقبها في جَفاء:

"هم فاشلون" فَعَجِبَتْ:

"لمَ تقول عنهم هذا؟"

"هَمُّهم أن يكونوا نُجومًا، ورأيي أن ضَرَهم أكثرُ من نَّفعهم"

ولمَّا قام منصرفًا، شيعته تنادي:

"متى العودة؟"

"لا أدري، عندما تكون هناك في العمل مشكلةٌ، آتي للحل"

فصاحت في وِداد لم يخْضَعْ له كثيرًا:

"إذًا ندعو للمشاكل."

ويومي الأربعاء والخميس، بعد يومين من هذه الزيارة، على الفضائية التي ذكرت مدام أمنية أنها تتابعها، شاهد شريطًا دائرًا ظل يَحثُ الناس للخطبة التي تكون لهذا الداعية يوم الجمعة، وقال الشريط الدائر: تعاد هذه الخطبة عصرًا على هذه القناة بالكامل. واتصل به الأربعاء التالي مسؤول مسجد عين المسجد، بإحدى المحافظات:

"فضيلة الشيخ مجاهد"

"نعم، معك فلان"

"فضيلتك خطِيبُنا الجمعة القادمة بمجمع التوحيد بسنبو زفتى غربية"

"إن شاء الله، آتِيكم. فَوصَفَ له الطريق، وأردف، وإن شاء الله سنكون على اتصال بفضيلتك صباح الجمعة حتى تصل إلينا سالمًا. وبَشَّرَه أن فضيلة الشيخ المبارك فلان، هو من كان قبل فضيلتكم في الخطبة الماضية."

فراوده الأمل، أن سنبو ستحضر كلها خطبته الجمعة القادمة بعد أن أيقظها من غفلتها ذاك الداعية. ووَصَلَ سنبو في الحادية عشر صباحًا فوجد القرية هادئة تمامًا، أغلب النَّاسِ لا يزالون نيامًا.

في حفاوة شديدة استقبله مسؤول المسجد. ولمَّا حـــان وقت الجُمُعة ومشيا إلى المسجد، قال وأشار له مسؤول المسجد إلى شارعٍ فسيح:

"هنا أقمنا في الجمعة الماضية سُرادقًا طوله ستون مترًا لخطبة فضيلة الشيخ فلان، امتلأ السرادق عن آخره ناسًا، وتركنا المسجد كله مصلى للنساء. فسكت فلم يعلق، ليشعره بعدم أهمية ذلك عنده، ودخلا المسجد فرآه خاليًا إلا من صف واحدٍ فَدُهِش:

"أين الناس؟" فطمأنه:

"لا تقلق يا شيخنا، هم يأتون إذا سَمِعوا صوت فضيلتك إذا صعدت المنبر. وفي نهاية الخطبة، سيمتلئ المسجد عن آخره- هذا للأسف - عادة الناس هنا، وأتبع ضارعًا:

"بعد إذن فضيلتك، برجاء حَثِّ الناس على الصدقة والتبرع للمسجد، قد بقي علينا من تكلفة السرادق الذي أقمناه للجمعة الماضية ثلاثة آلاف جنيهًا. فلمَّا سَمِعَ ذلك،

طاف برأسه طائفُ سُوءٍ، جعله يسأل مسؤول المسجد عما كان يحدثهم الشيخ، وهو على شبه اليقين أن الأخ لن يَفي بشيء:

"والله يا شيخنا، شغلني كَفُّ الناس عن الزحام على الكاميرات، كي تظهر لهم صورة في التلفاز، فلم أدر عمَّا كان يتحدث الشيخ" فقال يؤنب الأخ في نفسه: ألم يكفك أنك أضعت فضَّل الجمعة بالشغل عن الخطبة؟ لن أحثَ الناس شيئًا، مَنْ أكل في وعاء عَليْهِ غسله." بل عاند الناس أيضًا، فنزل عن المنبر فجأة، لمَّا هرعوا في نهاية الخطبة إلى المسجد، ووقف للصلاة.

في فتور ودَّعه مسؤول المسجد، ووضع في يد السائق مَبلغًا، مقابل بنزين السيارة، مُكتفيًا بأن قال للسائق:

"أحسبك وعيت الطريق؟" فاكتفى السائق بِهَزِّ رأسه، وبدأ رحلة العودة في خرس تام، ولم يلمح عليه علامة الرضا، بل وضع النقود في جيبه دون فحص.

وفي المديرية كان السَّعيُ حثيثاً من أهل الخير لحمل وكيل المديرية على الاعتذار:

"لا تنس – سيادتك - أنك غَلَطت فيه، وحال المديرية لا يستقيم وبينكما الخصام"

"وهل يعجبكم أفعاله! يكفي أنِّي لم أنزل للسيد المحافظ."

"يا أستاذ فرج، ما كَمُلَ من البشر إلا محمدٌ، لا يوجد إنسان دون عيب، دُلَّنا على وكيل وزارة جاء إلى المديرية وعليه الطَّلاوَةُ؟"

وقالوا:

"هذه مناسبة طيبة، اجعلها زيارة تهنئة بالعيد، والرَّيِّس قلبه أبيض لا يحمل الضغينة."

"هو حضرتك لم تسمعْ النَّشرة، ولم تقرأ جرائد اليوم؟ برقيات التهنئة نزلت تَرفُّ على الرئيس، السيِّد رئيس مجلس الوزراء، والوزراء، وشيخ الأزهر، وفضيلة المفتي، والمحافظون، ورؤساء المجالس الشعبية والمحلية، والشجر، والحجر، كُلُّهُ تجرك، بعث لمبارك برقيات التهنئة بالعيد السعيد، وكله على نفقة الدولة."

فخضع وكيل المديرية رغمًا عنه، وطابت نفسه للزيارة، ودخلوا على السيد وكيل الوزارة فقالوا:

"يا ريس، أما زلت حضرتك آخذ على خاطرك من الأستاذ فرج!" فاستقبلهم في نشاط فائق:

"اللــه، الأستاذ فرج حبيبي، أنا من زكَّيتُه عند معالي الوزيرة، وأنا عارف أنه أسفَ كثيرًا، فـالزوجة يومها كانت منكَّدة عليه، وأذكره بقول رسول الله: رفقًا بالقوارير. وأغرب، وكأنه كان شاهدًا: وأرجو ألا يكون يومها قد آلمها، فطبيعة النساء أنهنَّ يَكْفُرْنَ العشير، وضجَّ ضاحكًا، فضج مدير المكتب، وَالحاضرون من أهل الخير ضحوكًا، وأكد سيادته يُعْلِنُ انتهاء تلك المُشكلة:

"يدًا واحدة لن تصفق، والأستاذ فرج يدي الأخرى التي أُصفق بها"

كان يتكلم بصوت اختلط هزله بِجِده، ونبرة أقرب إلى الشكاية منها إلى التقريع، فغمر الجميع هنيهةً من الصمت والخشوع.

ولم يكن خُلُق السماحة لمدير المديرية هذا مقْصوراً على وكيل المديرية، بل مُمتدًا في سَعةٍ؛ إذ أنشأ إدارة أسماها إدارة العلاقات العامة أسند إليها مهام وانسانيات، بعث برقيات التهنئة بالعيد وجميع المناسبات السعيدة للسادة مديري الإدارات والعاملين معهم، يمهرها بتوقيعه المباشر الزاهي المهيب؛ ليدخل

السرور على القلوب الزاوية. بيد أن موظفة الصادر والوارد بإدارة الاستخدام الخارجي، لم يعجبها الصنف من السعيِّ، إذ صاحت وهي تتسلم برقية سيادته:

"هذا ما هُوَ فالح فيه، ماذا نعمل ببرقية التهنئة، ونادت عاوزين نقود."

فتواطأ منتسبو الإدارة لِمَا عبرت به بضحكة واهنة. ونهضت الموظفة تسعى كبطةٍ عتيقة، تنقل القدم تلو القدم في تثاقل طائر البطريق، في سِمْنَتها وقصرها حتى أسلمت مجاهد البرقية، وأثنت في حميمية مُذكرة: "في هذه يذكرك، ولا يذكرك في العطايا، لأن سيادتك طيب عفيف. وانطلقت تُعَدِّدُ، سَفَّرتَ له نسيبه، والثاني سفرت ابنه، والنتيجة، كارت معايدة"، ولوحت بالكارت في الهواء وضحكت، "هؤلاء لا يُخدمون". فأطرق يُفكر آسفًا؛ وكان قد قال لصاحب شركة إلحاق العمالة مُؤكدًا:

"خذ حقك كاملًا. يكفي أنك وفّيْتَ، وأنجزت لكليهما فرصة عمل للخارج حقيقية، فقال صاحب شركة:

"يا شيخ مجاهد، لا تشغل بالك، لا بد من المجاملات."

قال:

"هذا لا يسعدني، هؤلاء يَحْصُلُون من جرَّاء وظيفتهم على حوافز، بدلات، مكافآت، وشهريًا مئتين في المئة أجر عمل إضافي لم يعملوه، يُحَصلُ الواحد منهم كمدير للمديرية وكوكيلٍ ـ غير مرتبه ـ على أموال طائلة..

كان مدير شركة إلحاق العمالة لواء شرطة سابق، خرج معاشًا ففكر في استثمار مكافئة نهاية الخدمة، وهي كبيرة جدًا بالنسبة لما يحصل عليه أي موظف مدني آخر في مصر دون من يعمل بالبنوك أو القضاء أو الخارجية، فرخَّصَ لشركة

الحاق عمالة، فصارت بينهما منذ البداية صدامات لاختلاف المشارب، انتهت إلى الثقة، وإلى شيء أشبه بالصداقة للنصح الذي نصح له لمَّا رآه مُدخنًا شرهًا:

"أعجب لكونك لواء شرطة ومُدَخِنًا، فعلمي أن وظيفتكم تتطلب كون بدنكم قويًا صحيحًا، ثم إن التدخين حرامٌ شرعًا" ووُفِّق لبيان وجه الحرام فيه، وأُشْربت نفس الكابتن القناعة، وظل يذكر أن الله تاب عليه من هذه الآفة بفضل نصيحته، فصار بينهما هذا الضرب من الثقة أو المودة أو الصداقة، فقال يسارره:

"يا شيخ مجاهد، عندي ولدٌ واحدٌ، ضابط شرطة صغير، والحمد لله، مستورة، شركة إلحاق العمالة أشغل بها نفسي عن الفراغ، ونخدم الناس من خلالها، ونفتح بيوتًا"

قال:

"يا كابتن، نحن نخدم الضعفاء، ومدير المديرية، ووكيلها ليسا كذلك، خذ حقك منهما كاملاً، لا أنا، ولا هما نملك لك شيئًا طالما أنَّك تسجل بدفاتر الشركة كل ما يرد إليك من فرص عمل بالخارج، وأنا أكدت عليهما أن يعطياك حقك كاملًا:

قال:

"أجِدُكَ الموظف الوحيد في هذا البلد الذي يفعل ذلك"

قال:

"لا، يوجد الكثيرون، وأنا أؤدي عملي"

وبعد خروج جواز ابن وكيل المديرية من السفارة وحصوله على تأشيرة دخول للعمل بالسعودية ذَكَّر مُشددًا عليه:

"يا أستاذ فلان، لكي تظل رؤوسنا مرفوعة لدى أصحاب شركات إلحاق العمالة، ويظل الطريق مفتوحًا لخدمة سائر الناس، لابد من إعطاء الشركة حقها كاملاً، ابن سيادتك نال الخدمة، ويكفينا أن صاحب الشركة صدق، يجب أن تصرَّ- سيادتك - على إعطائه المبلغ كاملًا دون خصم، وحسبما علمي، يُؤخَذُ من المواطن مقابل فرصة عمل كهذه ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيها، صرٌّ حضرتك- مهما فعل- على إعطائه هذا المبلغ كاملًا. أجاب:

"اطمئن سيادتك، المبلغ سأرسله كاملًا مع الولد، والولد من سيذهب ليتسلم الجواز والعقد، ولن أذهب معه، كما أمرت سيادتك، منعًا للحرج، وقال للسيد مدير المديرية لمّا بشرة بحصول خَتْنُهُ على تأشيرة دخول للعمل لنفس الدولة، وبمعرفة نفس الشركة مثل ذلك. وغضب عليهما غضبًا لم يغضب مثله، لمّا علم أن وكيل المديرية ذهب إلى شركة إلحاق العمالة، وأن مدير الشركة قد رد عليه ألفَ جنيه من جملة المبلغ المستحق، فأقسم الوكيل:

"والله، سيادتك، ما ذهبت مع الولد إلا لأشكره!" فراح عنه، وهو يَشْتُمه في نفسه: هـذه قمَّة النتــانة.

* * *

"إلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ" عَلِمَ مُجاهِدٌ أن سعْيه لتغيير خُلُقَ مدير المديرية ووكيلها مستحيلٌ، فأقسم وَعَقَّدَ الأيْمَان: والله لن تنالا مِنِّي بعد اليوم شيئًا. وأسف لسعيه في فرصة السفر للخارج لختن مدير المديرية ترضيةً لزوجته التي اتصلت تشكره، ولابن الوكيل الذي ما فَتأ كلما صعد ديوان المديرية يستقبله ضارعًا:

"الولد عاوز يرجع؛ يا شيخ مجاهد، الله يبارك لك، كَلِمْ مدير الشركة الكابتن فلان، الرَّجل الخَلُوق، يتصل بالْكَفيل ليوفر للولد سكنًا لائقًا" أو يقول:

"الحمد لله إني شُفْتك، أنا بأسعد جدًا لما بشوف سيادتك. الوْلَدُ يشتكي، تَصَوَّر، يعمل عشر ساعات في اليوم، البارحة كَلَّمَ أمَّهُ وأنا غائب لأجل ألا يكلمني، غضبان منِّي يا سيدي، فردَّه هذه المرة بصَبْرٍ نفادٍ:

"يا أستاذ فرج، تأشيرة ابن سيادتك بمهنة عامل، ومنذ سبعة أشهر، منذ سفره وهو مُعَزَّزٌ مُكرّمٌ، يجلس هناك بالفندق موظف استقبال.

"أنا أعترف أني أخطأت في تَرْبِيَتِهِ، جيل ربُّنا يعلم به، ما أنت عارف؛ جيل لا يتحَمَّل مسئولية. أخوه، محمد أصْغَر منه، بكالوريوس تربية، أخلاق، وعِلْمٌ، حَدِّثْ ولا حرج، هذا الولد يشرفك. ثلاثة شُبَّان دفعت في تعليمهم دم قلبي، وفي الآخر قاعدين لي الثلاثة في البيت كما الْبنت البكر، بخلاف من سافر، هّمٌّ ثقيلٌ" فردَّ في نفسه: والله ذا بُعْدك، وفكر قبل أن يجيبه:

"الطلب على المدرسين في شهر يونية- إن شاء الله- عندما يطلبون مُدرِّسين أُبلغ سيادتك"؛ يَتخْلُصُ منه.

ويدخل على الآخر، فيطلب هذا منه- قَبْل أن يناوله صورًا لجواز سفر، ومؤهل دارسي، وسورة بطاقة:

"اجلسْ، أأنت ولدت واقفًا. افحص هذه الأوراق، وقل لي رَّأْيك"

فَيَفْعَلُ على مضض. فسأله مدير المديرية متلطفًا:

"هِي، المهنة هذه تناسبك. ابن عَمٍّ لّي، هِمتك معه في سفر ابنه هذا"

"حاضر ياريس"

وينصرف وقد أقسم في نفسه: والله لن أُكَرِّرَ خطئي، والله لن تنال مني شيئًا

ولا يتلبث شيئًا حتى يطلبه، فيجد عنده شخصًا آخر:

"أهلًا يا شيخ مجاهد" حَفِيًا به، يشيره إلى الشخص المنتظر:

"هو ذا يا سيدي، الشيخ مجاهد، مدير مكتب التسفير" ويضحك يَقْصُصُ على ضيفه من تاريخه:

"ذهبت معه إلى جهاز أمن الدولة، وبعد الاجتماع قلت للسيد رئيس الجهاز: عاوزين نشوف للشيخ مجاهد سَفَرِيّةً عندكم"، وَيُقَهْقِهُ، فَيَتَحَفَّظَ الضَّيْفُ عن المشاركة، ينظر إليه في إكبار، يتلهف عرض طلبه عليه من خلال السيد وكيل الوزارة.

وفي البيت كلما أراد الزوجة قامت إلى نور الشَّقة فأطفأته، فيضَجَّ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويعِظُها:

"اتق الله" فتمضي إلى الستائر الثقيلة التي صنعتها من نسيج سميك خصيصًا لهذا الشأن تسدلها فوق النوافذ، تمنع كل شعاع وَلوْ واهن آتٍ من الجيران، فتستحيل الغرفة ظلام دامس، ويرجع إلى جِدالِها:

"بالنهار عندما تدخلين الحمام، وقتئذ، ألا تَخْشَيْنَ تلك الكاميرات التي تصوّر، وضوء النهار الكاشف.؟"

"هنرجع ثاني لهذا الموضوع" فيجأر في نفسه: اللهُ يِعَكْنِنْ عليك يا بعيدة؛ امرأةٌ غبيةٌ، ويمضي يفكر: كيف يصلح لامرأة أن تكون أدنى فِطنةً من قِطةً؛ كان راجعًا من صلاة الفجر فأبصر بقطَّتهم عاشقة، تعرض نفسها إلى ذكر في براعة من

فوق ظهر سيارته، كانت القطة قد أخذت في حركات سريعة رشيقة فائقة اللطف كأحسن ما تكون عليه راقصة باليه..

في البداية لم تُفْهِمْه تلك الحركاتُ شيئًا، فاقترب من السيارة التي يوقفها في الجانب الأقصى من الشارع، على الحافة المتاخمة للحقول، خشية أن يصدمها شيءٌ ما مار بالشارع، والناس لا ترعى حُقوقًا. مضت القطة تتقلب على جنبيها في سرعة، من غير أن تخطئ فتسقط من فوق ظهر السيارة، لعُوبًا فكهةً، في خفة ورشاقة، وتعاود صَنِيعَها. فاقترب في هدوء يكتم أنفاسه يشاهد جمال الحركات، ورشاقة الجسم وانسيابه البالغ، وهو يُطاوع القطة في حركاتها..

وذُهِشَ، إذ رأى أمام بُوز السيارة قطًا هَوِسًا يجري يمينًا وشِمالًا، يُطالع القطة، وبين اللحظة واللحظة، يرفع يديه فوق بوز السيارة؛ عازمًا القفز، وفي كل مرة يجِدُه مُتريثًا لا يفعل، فقط، يَهْرَعُ إلى الجانب الآخر الذي تسبق إليه القطة لتتقلَّب لاعبة. فعجب من صنيعها وصنيعه، ولم يفهم لسلامة نِيَّته. ومر به ابن أخيه- طالب في الثانوية العامة، مجتهدٌ، يوقره ويتمثله في دينه- فعرج إليه لمَّا وجده واقفًا إلى جوار السيارة، يحسبه يحتاج إلى معونة، فابتسم له مومئًا؛ إلى التي فوق ظهر السيارة لاعبة.

وبعد العرض توقفت القطة فجأةً؛ لترقد بشكل فاضح؛ جثت الملعونة بصدرها، ورفعت مُؤخرتها، بَغِيَّة، وفي قفزة واحدة كلمح بالبصر كان القط مُعْتليها.

صرف بصره في حياءٍ بالغ، ومشي إلى جواره ابن أخيه مُسْتحيين جِدًا، من الفعل الفاضح؛ وقطتهم البَغِيّة.

في الصباح لَمّا خرج للعمل، وذهب إلى السيارة، وبينما هو يكشف الغطاء، لاحت منه نظرة فضول إلى الموضع الذي كانت تجثو فيه القطة، فرأى بللًا:

"يا اولاد الكلب"

ولَعَنْهما، وتجنب المكان الذي به البلل، وطوى الغطاء عن ظهر السيارة مُتأذِّيا جدًا.

بعدها، وكلما كان ذاهبًا إلى الصلاة أو عائدًا منها فرأته القطة، فجرت إليه كعهدها متوددة تتمسح بقدميه، كان يزجرها زجرًا، يطرحها عنه، يُعاقبها كَمذنبه.

وأغربُ، حين لقيه القط بالشارع يمشي مُتبخترًا غير مكترث به فهمٌ بضربه، وعجب: لما هو غاضبٌإلى هذه الدرجة، ألأن قطتهم رءاها بغيًا، جَدَّت في طلبها؟ أم لأنهما أتيا فعليهما الفاضح عيانًا، وفوق ظهر سيارته، فآذياه، ووجَدَهُ نفسه يُجِيبُهُ: وما عساه يريده الزوج من زوجته غير ما فعلت تلك القطة الذكية، وعجب لابن آدم يحنق على زوجه إذا هي راوغت وبالغت في استخفائها وينعتها بالغباء، ويحنق إذا جدت في طلبها بَغيةً.

الأعجب؛ أنه كلما عثر بالقطة رجعت لتنام أمام باب الشقة كان يسعى في طردها؛ فتصبر على إزاحته ولا تمشي.. إلى أن سمع قطان يتشاحنان أسفل السُّلْمِ، وعلا مُواؤهما فصار مُزْعجًا، كان قد مَرَّ وقت على تلك الواقعة فخرج ليطردهما، فوجد القطة متنمّرة تقف في شقٍ، والقط عينه مُتربصًا، يقف في الشق المقابل حَذرًا.

كانت القطة قد ناوشتهً، لمَّا وقع منه الإصرار وعاود ليقترب منها، فهجمت عليه شرسة، فارتد عنها، إلا أنه ظل في عزمه وإلحاحه وغباوته، لا يفهم أنها أمست حاملًا، وظل واقفًا يتحرش بها، فجرى وراءه.

المُدْهِش أنه كلما توقف عن المطاردة، توقف القط في عناد، عِوجًا لا يريد أن ينصرف، فانهال عليه بالطُّوبِ رجمًا؛ حتى أفَرّهَ.

وكانت العلاقة بينه وبين مدير المديرية؛ قد ساءت جدًا، إذ أُرْسلَ في طلبه مِرارًا فلم يصعد إليه، فبات مُتوقعًا أن يَستصْدِر قرارًا بِعَزْله عن إدارة الاستخدام الخارجي. وكان قد اقتربت نهاية خدمته، وطلب منه أن يبعث في طلب أصحاب شركات إلحاق العمالة للاجتماع بهم. وكان مدراء الإدارات والمناطق، والمكاتب، قد مَلّوا اجتماعاته الكثيرة عديمة الجدوى، ومضوا يفرون مِنْه. وكان قد بَعَثَ بإحدى عشرة مذكرة إلى الوزيرة بخصوص مشاكل الشركات ومقترحات علاجها، مدة بقاء مدير المديرية هذا بالخدمة والتي طالت لأربعة أعوام، فلم تَرُدُّ الوزيرة، فلمّا أَعْلَمَ أصحاب الشركات برغبة وكيل الوزارة الاجتماع بهم قالوا:

"يا شيخ مُجاهد مللنا اجتماعات هذا، ولدينا مشاغل"

وسألوه:

"كم مذكرة أرْسَلتها للوزيرة؟" فاضطر أن يجيب:

"إحدى عشر مذكرة؛ عرضت فيها جميع مشكلات إلحاق العمالة المصرية بالخارج، وسبل العلاج؛ لكن صبرًا؛ يضيعُ حقٌ وراءه مُطالبٌ"

قالوا:

"اصبر وحدك، وكيل الوزارة هذا الذي لا يمل الاجتماعات" وأخبروا أنهم لن يأتوا.

"أنت لا تريد أن تقتنع أنه لا فائدة في وكيل الوزارة، ولا الوزيرة، ولا الحكومة."

"وماذا أقول له؟"

"الكلام كثير، قلْ له دعوتهم فرفضوا، المهم أنت ألا تغضب لأننا لم نحضر، ونعترف أنك قد دعوتنا."

وصباح ذلك اليوم الذي رجم فيه القط، لما خرج للعمل، وذهب إلى السيارة، وجد الغطاء في إحدى جانبيه مُمزقًا، ففكر أن أحدًا من أعدائه في القرية أراد أن يبعث إليه برسالة تخويف مفادها: هذه المرة قد نِلْنا من الغطاء، لإنْ لمْ تَنْتَه ليكونن النَّيْل القادم من ذات السيارة. ورأته أمُّهُ يقف إلى جوار السيارة مهمومًا فجاءته لتنظر، فقال بلهجة مُطَمئنة وهو يُشير لها إلى مكان التمزيق:

"يبدو أن الكلاب كانت تطارد قِطًا، فهرب منهم تحت السيارة." فقامت تدعو على الغريمين كليهمــا بما فعلوه، وحملت الغطاء وراحت إلى البيت لتصلحه، وركب هو السيارة، وذهب.

في الطريق طفق يستعرض في نفسه أشخاص القرية: فمن عسى أن يكون قد أرسل إليه بهذه الرسالة؟ ففي المسجد قام في الناس بما يعتقد من الدين صحيحًا، مُستمسكًا به، ومضى الشخص الإخواني في إرْجافِهِ عليه، فقال لنفسه بما قال به نوحٌ عليه السلام لقومه تجاه عداوتهم له:"إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ.."

وكان قد أضحى مسموعًا، يرجع إليه جمهور الناس يستفتونه، أو يطلبونه لصلح ذات البين أو للمشورة، ولا يعتبرون إلى الشخص الإخواني فقال يُقَدّرُ: فمن غيره يحرض ذاك المنزوع الحياء- يعني أبا سريع- الذي غرّه الصُمْتُ فأقامَ غير مسْتَحْ، يَسْتَبِقُ الإمامة؛ وقال في نفسه: لهما نهاية.

وكانت علاقة غير الوفاق مع زوجه، والوَسْواس الذي أصابها من جراء قذف نساء الإخوان أنهما فردا أمن، عندما كانت مديرة حضانة جمعية تنمية المجتمع

وإظهار عداوتهنَّ لها، فلم تر لتلك العداوة تفسيرًا إلا أن تتهمه تلميحًا أو تصريحًا أنه سبب ما يحدث لها؛ وتَرَقُّبُ عزل مدير المديرية له- قبل أن يشاء الله فيَرْحَل- كل ذلك جعله مُستفزًا طوال الوقت، فلمّا جاءه زملاؤه من مدراء الإدارات المجاورة يطلبونه أن يصعد معهم؛ ليرحبوا بوكيل الوزارة الجديد ثار عليهم:

"لما لا ننأ بأنفسنا عن التكالب على من لم نعلم خيره بعد، على الأقل انتظروا حتى يستدعيكم للاجتماع للتعارف"

قالوا:

" يا شيخ أراحنا الله من فلان- مدير المديرية السابق- ومن اجتماعاته، والرجل حَلَّ ضَيفًا علينا من محافظة بعيدة، الواجب علينا الترحيب به، وعدم الانتظار لاستدعائه"

قال:

"أنا لا أعتبره ضيفًا، بل راع مسئول عن رعيته، فهرعوا في إخباره:

"نحن ماضون إلى المديرية، أنت دائمًا تَحْمِلُ الأشياء أكثر ممّا تحتمل"، فمكث يقرأ القرآن والزملاء والزميلات يتتبّعونه كُلٌّ من مصحفه، يمدونه إذا توقف أو يصوبونه متى اخْتلطَت عليه الآيات، وظل قلبه مشغولًا تخترقه الهواجس: كلهم مضوا، وأنت الوحيد الجالس، هذا الوافد لم تر منه إساءة بعد، وليس من الحكمة مُبادأة الناس بالعداوة.

وعقب القراءة، انبرى أحدهم يَقُصُّ من نبأ مدير المديرية السابق: "لآخر لحظة كان عنده أمل أن الوزيرة ستمد له سنةً، فقعد جنب التليفون حتى جاءه الفاكس يتحدث عن نهاية خدمته، وقدوم وكيل الوزارة الجديد، فقام مَخزيًا يُلَمْلِمُ أوراقه"

وتحدثت موظفة الوارد والصادر وابتسمت:

"يا شيخ مجاهد، فرغت من وِرْدِك وانصلح بالك، ليس فيها شيء لو طلعت فسلمت على الرجل الجديد، وأثنت، أنت أبو الواجب" فوافقها الجميع.

فلمّا دخل على استحياء مع مجموعة من المهرولين، وجاء دوره، وتقدَّم فمَدَّ يده يسلم، ولاحقه مدير مكتبه مُعرفًا به:

"الشيخ فلان، مدير إدارة الاستخدام الخارجي- وكان سيادته ثابتًا في مكانه، يتقدم إليه المصافحون الواحد تلو الواحد، كفعل وزراء مبارك مع مبارك في حلف اليمين- وخطر مجاهد مشهد مبارك في وزراء جيء بهم لقسم اليمين، فحرص أن يبدو مرفوع الهامة:

"السلام عليكم ورحمة الله " وثبت في وقاره، فنظر إليه مدير المديرية الجديد يتفحصه، من لحيته إلى أخمص قدميه في شك أو هذا ما استشعر؛ كصاحب اللِّحْيَة الوحيدة بين الجميع.

ولأنه لم يَسْمَعْ ردَّ السلام أحس بحرج شديد، وأنه وقع موقعًا في نفس هذا غير مرغوب فيه، فخرج يلومه في نفسه: هذا لا يرد السلام، وكأنَّهم في غباوتهم- يعني الرؤساء بعدم ردهم السلام- يصطنعون الهيبة لأنفسهم في نفوس الآخرين، وقال: نظر إلِيْك دَهشًا كأنه لم ير صاحب لِحْيِة في حياته، وقال يعظه: من خرج من داره قَلَّ مِقداره. وانقلب يحاجج عنه: وماذا على هؤلاء لو ردوا السلام؟ ماذا يريد هذا أن تصنع له، وأنت لم تلقه قبل اليوم، هم يريدوننا أن ننحني لهم وفقط، قاتلهم الله، يعني الرؤساء، ورجع يُبَكتُ نفسه، وماذا تنتظر وقد التحقت بذيل متزلفة تُقدِّمُ فروض الطاعة؛ قبل أن ترى أيَّة طاعة. وعَزمَ ألا يهرع إلى أحدهم في مقبلات الدهر أبدًا، وألا يدنو في غير ضرورةٍ.

وفي الحديث: إنَّ الله تعالى يحِبُّ معاليَ الأمورِ ويكرَهُ سَفْاسِفَها، وإذا ما اعتززت على الدنيا جاءتك تسعى؛ إذ لمَّا عَزَّ نفسه عن مدير المديرية فوجئ بمدير مكتبه يطلبه:

"كيف الحال يا عمّ الشيخ مجاهد؟ معك زاهر، مدير مكتب السيد وكيل الوزارة.

"الحمد لله، في نعمة وَسِتْر"

"عندك اليوم حاجة؟"

"عن أيِّ حاجة تسأل؟"

"يعني درس في المسجد، أو خارج مع الأهل مثلًا"

"لا، والدرس عندي يومَي الأحد والأربعاء"

"أقول لحضرتك: وبيَّنَ مدير مكتب وكيل الوزارة، أن زميلاً من الأمن الصناعي، من أجا، تُوفي اليوم، ومدير المديرية آخر النهار يريد الذهاب للعزاء، ويرفض الذهاب في سيارة المديرية، وقال:

"وأنا رشحتك للذهاب معنا بسيارتك الخاصة، أظن هذا عَمَلُ خير لن تتأخر عنه، خاصة ونحن نريد ألا يستحوذ على الرجل واحد من أهل السوء فيشوِّه صورة المديرية عنده، وأعلمك تكره القيل والقال، وإذا استفسر عن شيء فأنت ناصحٌ أَمِينٌ"

وانتهى الاتصال إلى اتفاق:

"إن شاء الله، نصلي المغرب جميعًا في المسجد الموجود على ناصية شارع ١٠، المسجد قريب من الاستراحة، ونذهب بين المغرب والعشاء للعزاء، فإذا أُذِّنَ

للعِشاء انصرفنا للصلاة، ولن نعود حتى لا نؤخرك، نُوَصل وكيل الوزارة لاستراحته، ونرجع"

"نعم"، قال مجاهد.

"اتفقنا، أنتظرك بعد المحطة، قدام جامع منتصر"- مسجد قريب من موطنه، قبلها بنحو كيلو متر من ناحية المدينة يجيء موطن مجاهد، بينما تقع أجا، محل العزاء بعد موطن، زاهر بنحو ثلاثة عشر كيلو متراً- فذهبَ قبل أذان المغرب بربع ساعة بالسيارة إلى المحطة قدام جامع منتصر فجاء به وانقلبا إلى المدينة ليجيئا بالسيد وكيل الوزارة.

وبعد ثلاثة أيامٍ ورد إليه من إدارة التنظيم والإدارة خطابٌ هذا نصه:

السيد الأستاذ مدير إدارة الاستخدام الخارجي

تحيةً طيبةً وبعد

نأمل من سيادتكم موافاتنا بأسماء السادة المفتشين والمفتشات المتخلفين من السنوات السابقة، أو ممن تم تسوية حالتهم بالمؤهل العالي الذين لم يؤدوا اليمين القانونية، لإرسالها إلى الوزارة لتحديد موعد حلف اليمين، أمام معالي الوزيرة،

وتفضلوا بقبول وافر التحية،

تحريرًا في٢٠٠٦/٢/٦

مديـــــــر

توقيـــــع

فَسُرَّ في نفسه سرورًا عظيمًا، وقال للزميل عبد الحي وللزميلة:

"استعدا، سنذهب معًا للوزارة لحلف اليمين أمام الوزيرة، وطار قلبه فرحًا للقاء غير المتوقع بمدام أُمنية، فقالت الزميلة، التي هي أكبر منه سِنًا:

"يا أستاذ مجاهد، بعد هذا السنِ، نذهب لحلف اليمين"

"وهل حَلفتِ اليمين من قبل يا مدام فلانة؟ "

"لا. لكن لم يعد لنا شيءٌ حتى نَخْرُجَ معاشًا"

قال:

"وأنا – أيضاً- لم أحلف اليمين، وسأذهب معكم" وأنبأ مسرورًا:

"اعتبروها زيارة للمحروسة، أنتم سترون الوزيرة عيانًا، وتؤدُّون اليمين بين يديها كفعل وزراء مبارك بين يدي مبارك."

وسألت الزميلة تضحك:

"وماذا نقول إن سألت عن سبب تخلفنا كل هذه السنيــن؟"

قال:

"لا تقلقا، سأسبقكم إليها بالإجابة"

وبات ليلته يُقَدِّر: سأعرج بهما على مدام أُمْنِيةٍ، لقد كانت معهم في مكتب الخبرة لسنوات طويلة، وبات سعيدًا بالفكرة. والأمر الآخر الذي بيَّتَ له، هذه الدراسة الميدانية التي أَعَدَّها في نشاط إلحاق العمالة المصرية بالخارج، معوقات ومقترحات علاجها التي أَرْسَلَ مضمونها، مذكرة مختصرة للوزير السابق فثار:

ما لهذا الموظف ومشاكل تلك الشركات، أعلموه واجبه الوظيفي، عليه فقط تحرير المحاضر للمخالف وليس الدفاع عنهم، وقيل له: أغْضَبَت مذكرُتُك معالي الوزير العماوي غضبةً لم نر لمعاليه مثلها قبل، وذكروا له ما قَالَهُ، فرجع يدعو عليه؛ أن يزول عن هذه الوزارة، فقبلها بأيامٍ كان قد شاهده بإحدى البرامج التليفزيونية وقد سُئِلَ، بِخُبثٍ، عن المدة التي ظَلَّها وزيرًا لهذه الوزارة، فترددَ قبل أن يذكر: أنَّه شاهِدٌ لعهود ثلاثة، الرئيس عبد الناصر، والرئيس السادات، وخمسة وعشرين سنة خلت من عهد الرئيس مبارك. فأقام بعدها في صلاة الليل يدعو الله من شغاف قلبه ستة أشهر حتى زال عن الوزارة، فلما جاء التشكيل الجديد بهذه الوزيرة، وكانت من العامة، لاحقها الكثيرون بالسؤال عن مؤهلها الدراسي، وكان الابتدائية القديمة، فانبرت في حمية: ليس عندي ما أخفية أو أسْتَحْيِ منه، إلا أني اعتز بالثقة الغالية التي خصَّني بها سيادة الرئيس مبارك، وأعتز بأنني من أبناء الطبقة العاملة، فأنا نقابية قديمة، غير أني مطلعة، آه، وأطلع كثيرًا.

وتفادت المؤهلَ فلم تذكره، وأسرعت تستدرك: إنَّ بابي مفتوحٌ لكل راغبٍ في مقابلتي، لن يحجبني عن الناس حاجب. فتشجَّعَ لهذه المقابلة، وطوى قلبه على ما طوى، فلمَّا دخلوا المدرج الذي يكون فيه أداء اليمين جلس بالصَّف الأول تلقاء المِنَّصة، أما الزميل والزميلة فلاذا فرارًا في آخر صف المدرج.

فلما هَلَّتْ معاليها هبوا قيامًا، وصفقوا بشدة. فلما جلست أبصرت به يجلس تلقاء المنصة، جاء لأداء اليمين وقد اشتعل رأسه شيبًا، وكان يُؤلفُ لكلماتٍ يستفتحُ بها عليها فأراحته من هذا العناء، ابتدرته هي:

"أصحيح، حتى هذه السن ولمْ تؤدِ اليمين؟"

فنهض في ثبات:

"صَحيحٌ معاليكِ، حتى هذا السن ولم أُؤد اليمين، لكن ليس هذا فقط هو الذي جاء بي من، وذكر المحافظة، بل أيضًا هذا الملف، وشرع ملفًا وقف يحمله، هذه دراسة ميدانية وقانونية في نشاط إلحاق العمالة المصرية بالخارج والمعوقات والمقترحات لعلاجها، من قبل ستة أشهر أرسلتها مرتين إلى مدير مكتب معاليك، مرةً تسلمها مني سيادته يدًا بيد، ومرةً أرسلتها في البريد، ولم أتلق ردًا حتى اللحظة. فأشارت إليه بالتقدم، فتقدم إليها بالملف. ودون أن تفتحه التفتت إلى معاونتها التي إلى جوارها فنهرتها:

"لمَاذا لمْ يعرض علي هذا الملف، وأردفت غاضبة، أين فلانٌ؟"

فتأتأت المسكينة، فرفعت الوزيرة الملف- امرأة جسيمة - وضربت به وجه المكتب ضربةً قويةً وجل لها جميع من بالقاعة وتوعدت: حسابكم معي عسيرٌ"

والتفتت إلى مجاهد وقالت في حسم:

"إن تعرض لك أحدٌ في الوزارة، أو احتجت مقابلتي، تعال إلى مدام زينب في مكتبي واطلب منها مقابلتي، فأومأ برأسه خاشعًا.

ولمَّا عرج بالزميلة والزميل على مدام أُمْنية لم يجدها، وقال من الغرفة مرحبين:

"هِيَ في أجازة، أي خدمة نقدمها لكم، فقال الزميل والزميلة:

"نحن زملاؤها من كذا وذكرا المدينة، وكنا هنا فجئنا لنراها. وتدخل هو:

"قولوا لها مدام فلانة، والأستاذ فلان، وفلان، كانوا بالوزارة فجاءوا للسلام عليك."

ومشى يظهر إنصاتًا للزميل والزميلة، وكانا لا يزلان دهشين من صنيعه لدى الوزيرة، بينما هو كاسف البال، لم تهنأ له نفس.

وكان قد أمّل في هذه الرؤية كثيرًا فهمَّ حَذِرًا بالاتصال التليفوني، كان اليوم يوم السَبْت، يوم أجازة من العمل، والراجح ألا يكون الزوج موجودًا، فقال لنفسه: في كل مرة اتصَلتَ كانت هي من ترد، فشجعه ذلك:

"وعليكم السلام، أهلا، كيف الحال يا أستاذ مجاهد؟" فابتسم:

"أتصل للاطمئنان عليكم، كيف حال الزوج وكيف حالكم وحال البنات؛ مررنا يوم الخميس علَيكِ في الوزارة، وكان معي الأستاذ فلان، ومدام فلانة، فعلمنا أنَّكِ في إجازة، قالت:

"سبحان الله، لنا نصيب أن نسمع صوتك قبل السفر للحج"

"غدًا مسافرون للحج أنا والزوج وعالية"

فلم يُهْدِرْ تلك الفرصة، فقال يُلمحُ:

"ومتى العودة، حتى اتصل فأطمئن على السلامة؟"

"بعد أسبوعين، وقالت، مسافرون طيران"

"تقبل الله منَّا، ومنكم وقال: ترجعون بالسلامة، بلغي سلامي للزوج ولعالية وللأولاد، ترجعون بالسلامة."

* * *

الفصل الثامن

أربع مرات يجِدُ غِطاء السيارة من نفس الوضع من إحدى الجانبين مُمزقًا، فراح في غيظ شديد، إلا أنّه استصغر هذا التصرف الصبياني، ورَغِبَ عن إنفاق الوقت إرصادًا لهذا السيئ، لأنه قد يضطره لضبطه السهر في الشارع حتى الصباح. لكن ما زاد في إيلامه، تَحَمُّلُ الوالدة الكريمة هذا العناء؛ تَحْمِلُ في كل مرة الغطاء، فَتَجِدُّ في إصلاحه. فعزم على المراقبة مهما أنفق من وقت.

صلى العشاء، ورجع من المسجد فمَوَّهَ أنه يأوي إلى البيت وعاد فتوارى.

لم ينتظر طويلًا، وكانت المفاجأةُ مُدهشةً، انبثق القط نفسه، ورآه يقف على الأرض بخلفيتيه رافعًا أماميتيه لينبش في القماش بمخالبه، يجذب الغطاء ليمزقه من جديد، فجرى فنادى:

"بِس، يا ابتاع الكلب؟"

ففر القط، فانطلق وراءه - لم يكن جادًا في محاولة إصابته بل أخذ يرجم وراء القط- فقط، لإرهابه حتى لا يعود. وتركه يهرب، ووقف يبتسم وقد أخذته الشفقة به.

وتَذَكَّرَهُ يوم جَمَحَتَ به الرغبة إلى قطتهم العشراء، فارتفعت بينهما الشحناء، فخرج فصدَّه عنها. وسعى في عقبه، وأصابه بحجر لمَّا رجع يتوقف معوجًا لا

يريد أن ينصرف، فلم ينسها القط له، يَحْسبُ أنَّه سَلَبَه حقًا، فقام مرة، تلو مرة، تلو مرة، مُنتقمًا منه، يُمَزقُ له غطاء السيارة.

وَعَجِبَ لبني آدم يتهاونون في الحقوق؛ فيوم السبت أول كل شهر يجتمع الدعاة من أنصار السنة ليتسلموا الجدول فَيُنَصِّبَ البعضُ من نفسه شيخًا على الباقين، يجلسون على الكراسي جنبي الرئيس، يتبادلون معه المَوْعِظة في القعود على الأرض ينتظرون بفارغ الصبر نهاية الاجتماع، ونهاية الحديث، الذي غالبًا لا يخرج عن التعريض من الرئيس ببعض الدعاة، وشكوى المساجد المستمرة من طول الخطبة، حتى هُجِرَت مساجد أنصار السنة، ولاذ الجمهور فرارًا إلى مساجد الأوقاف؛ لأنهم لا يطيلون الخطبة، رغم كونهم يتحدثون في شيء. وتَدَنِّي مستوى الدعاة، والتخلف المستمر عن حضور هذا الاجتماع الشهري رغم تكرار التحذير، فَرُفِعَ البعض من الجدول، ولعدم تقديم التقرير الشهري إلى لجنة الدعوة، ونموذجه:

تقرير مقدم إلى لجنة الدعوى بجمعية كذا، من الداعية الشيخ.. الداعية بالجمعية، عن الجهد الدَّعَوِي خلال شهر، وأسفل هذا العنوان يجئ:

أولًا: بيان بخطب الجمعة.

ثانيًا: بيان بالدروس التي ألقاها خلال هذا الشهر.

وينتهي النموذج بهذا التذييل، رجاء التكرم ببيان المقترحات لرفع مستوى الدعاة، مع بيان حالة الدعوة بالمساجد التي زارها، وتقييم الداعية لهذه المساجد، والقائمين عليها، وملاحظاته بذلك الشأن من كافة الجوانب، مثل، اتصالهم بالداعية، حسن استقبالهم من عدمه، عدد الحضور، تفاعل المسئولين عن المسجد مع رواده، وهل تحقق الدروس غرضها...الخ.

فاهْتَمَّ مجاهد بذلك كله؛ فقدم مقترحاته، وانتظر من اللجنة مناقشته أو الردَّ فلم يحدث، ولما جاء اجتماع الشهر التالي واصطف، كالعادة، أصحاب المقام العالي فوق كراسيهم، جاعلين من أنفسهم كذلك، مشايخًا للقاعدين على الأرض، ودار نفس الحديث عن تدني مستوى الدعاة، والتطويل، فأخذه الغضب، ورفع يده يطلب الكلمة:

"المرء مخبوءٌ تحت لسانه، إن تكلم ظهر، وأقترح تحفيزًا للدُّعاة على حضور هذا الاجتماع أن يترك الحديث فيه لجميع الدعاة، يَعْرض كلٌّ بالتناوب مع زملائه حسبما الوقت المتاح هَمَّهُ الدَّعويّ، وشيئًا مما يَبُثُّه في الناس، ويَسْتَمِعُ الباقون إليه، فإن وجِدَنا خيرًا انتفعنا به، وإن كان غيرُ ذلك قدم كُلٌّ ملاحظاته، نصيحةً للزميل نرفع بها مستواه، وكذا يتعرف بعضنا على بعض من خلال طرح بنات الأفكار"

فخرس الجميع، كأن لغزًا قِيلَ، فانتظر الاجتماع التالي، فلم يتعرض أحدٌ لِما قاله، فقرر الحديث المباشر مع الرئيس وأخذ من فضيلته موعدًا، عصر الخميس بمكتب فضيلته بمقر الجمعية بمسجد التوحيد، إذ الكل مشغولٌ بالإعداد للخطبة غدًا، فيَقِل الزحام على فضيلته، وابتسم فنصح بشكل مباشر:

"فضيلة الشيخ فلان، كي تنتهي هذه الفتنة، عَممِ الدُّعاة لجميع المساجد على السواء، فمشكلة تطويل الخطبة منشؤها تقليد البَعضُ للمشاهير، والتطويل مخالف للسنة، فكثرة الحديث ينسي بَعْضُهُ بعضًا، وأرى أن كثيرًا من الدعاة يسعى لأن يكون مشهورًا كـ فلان- وذكر اسم الدَّاعية الشهير- لأجل هذا يترك بعضهم مسجده ويذهب إلى مسجد أكثر شهرةً وجمهورًا، ويطيلُ الخطبةَ، يَحْسَبُ أنه بإظهار الكم أنه صاحب علم يستحوذ به على النفوس فيبيتُ مشهورًا، والنتيجة فرار الناس من مساجد أنصار السنة إلى مساجد الأوقاف، ويا ليت لديهم دعوة جادة"

فَصُدِمَ الرئيس، وبدا عَصَبيًّا، فحاول التخفيف بالابتسامة:

"وما فيها، أنا لا أرى في الأمر شيئًا على الإطلاق، من أراد أن يكون مشهورًا فليسع ليكون مشهورًا"

فعارضه:

"إن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأغنياء.. الحديث"

فصمت الرئيس، وبان له أنه يستثقل حديثه، ولا يريد إتمامه، فقال في مغزى:

"إذًا ربما العيب عندي. وحتى أعالج مرض قلبي، ضعني في الجدول احتياطًا لإخواني، فإذا عرض لأحدهم عذرُ كنت أنا البديل، وقال في ذات نفسه: كذلك تصله الرسالة أني لا أوافقه الرَّأيَ، ولا أرضى تقييمه، ومن ناحيتي لا أبيت يشْغَلني المسجد الذاهب إليه؛ كبير أم صغير، فتقدير الله خَيْرَ من تقديره، وقاما على اتفاق: أن اتصاله به يكون يوم الخميس بين المغرب والعشاء، ويجلس هو إلى جوار التليفون ينتظر تَسْييره.

ولمدة ستة أشهر كاملة، ظل يُعِدُّ خطبته كل أسبوع إعدادًا جيدًا، وينتظر كبديل لأحد المعتذرين فيقوم مقامه، ينتظر أن يتصل به رئيس الجمعية، وأبدًا ما كان تليفونه يَرِنُّ، فقام من الليل يصلي ويدعو عليه كشأنه مع العماوي الوزير، يسمي لله رئيس فرع الجمعية الحالي فلان، ويسأله أن يغنيه بفضله عن شرار خلقه، وأن يرد عنه كيدَ فلانٍ، كما ردّ عنه، بفضله، كيد الوزير السابق للقوى العاملة.

صبيحة كُلِّ جُمُعَةٍ كان يذهب إلى إحدى المساجد القريبة، فيمكث الناس ينظرون إليه فيخطر في قلبه هذا التساؤل: أجاءنا اليوم فلان خطيبًا؟ ويجيء الخطيب، ولَمْ يكن هو هنالك يروح في هذا التساؤل: ولَمَ يجلس فلانٌ كهذا؟ وهل

مُنِعَ من أمن الدولة، أم أنّه لم يثبت للفتن؟ وترك المجال لغيره، يرجع إلى البيت بتلك النجوى.

والمُغْضِبُ والمُحْزن معًا أنه لم يتصل به أحدٌ من الدعاة فيسأل عنه وأبى هو أن يتصل بأحدهم فيشكو، وعزَّ نفسه عن الذهاب لحضور الاجتماع الشهري للدعاة تلك الفترة. فلَمَّا ضاق به الصدر، قرر مواجهة هؤلاء فليس هو أدنى شجاعة من قِطٍ ضال سعى للقصاص لنفسه، ولو كان الثَّمن رفعه من الجدول وتركه لمجال الخطابة تمامًا.

واختار أولى المواجهات مع سكرتير المجلس، فذهب إلى المسجد الذي سيقوم فيه فضيلته خطيبًا هذا الأسبوع. وَبكَّرَ فجلس في الصف الأول، في مَوْضِعٍ اختاره ظاهرًا، وتابع ينظر إلى سكرتير الجمعية وينصت إليه ويقيم أداءه كخطيب دون أدنى رهبة، فلما فُرِغَ من الصلاة، قام إليه سكرتير الجمعية مباشرةً حفيًّا به يعانقه أمام الحضور، ويسأله عن سبب هذا الجلوس، فباشرهُ:

"وكأنك لا تعلم ما فعل بي صاحِبُك؟"

أجاب:

"ما عَلِمْتُهُ من رئيس مجلس الإُدارة، أنك من طلبت رفع اسمك من الجدول" وأحاط به مسئولو مسجد توحيد سلامون في إشادة:

"فضيلة الشيخ مجاهد هو أول من جاءنا هنا خطيبًا، فضيلته جاءنا وهذا المجمع من غير سقف، فقط، جدران في طور الإنشاء أرضُه حصباء، أرسله إلينا فضيلة المرحوم الشيخ محمود"، فضرع سكرتير الجمعية الحالي مبتهلًا:

"رحمة الله عليه، وجزاه الله عنَّا، وعن دعوة أنصار السنة خَيْرَ الجزاء، فضيلته كان شيخنا جميعًا" وفي الطريق لمَّا قص عليه ما ناله من رئيس المجلس جراء النَّصيحة، أنبأ:

"فضيلته سافر للحج، ألم به مرضٌ"- وابتسم سعيدًا- "والعبد لله؛ يعني ذاته، كُلِّفَ بأمر الجدول في غيبته. من الشهر القادم سيدرج اسم فضيلتك بالجدول ثانيةً، وعند عودتي إلى البيت سأتصل بفضيلتك أعلمك بالمسجد الذي ستذهب إليه خطيبًا، بمشيئة الله، الأسبوع القادم." فتذكر قيام الليل ودعائه على رئيس فرع الجمعية الذي تعمد تأديبه على النصيحة، وكَذِبَه فيما أخبر؛ أنه من طلب رفع اسمه من الجدول. واستشعر وُدًّا حميمًا تجاه سكرتير الجمعية لوعده على الفور بإعادته للجدول. ولم يمنعه ما ناله من كيد الآخر أن يصدع إليه بالنصيحة:

"إني أحبك في الله، ما سمعته منك في الخطبة كلام طيب أُسْعِدْتُ به"

"أسعدك الله"، سكرتير فرع الجمعية

"لكن وقع بعْضُ اللحن في القراءة، والقرآن سلاح كل خطيب مجيد، أرجو أن تهتم بالتجويد" وعزم على أن يُحدِّثُه بحديث بلغه عن فضيلة الشيخ محمود الرئيس الراحل:

"هل تعلم بأن فضيلة الشيخ فلان قبل موته عزمَ أن يعهد إليك برئاسة الجمعية بعد أن نشب الخِلافُ الذي تعلم"

فعاد سكرتير الجمعية إلى ابتهاله:

"رحمة الله عليه، وجزاه الله عنَّا وعن دعوة أنصار السنة خَيْرَ الجزاء" وكان رئيس الجمعية الحالي وسكرتيرها المُبتهل من المبادرين إلى خَلعِ فضيلة الشيخ محمود، من منصبة كرئيس للجمعية وهو ما ظلَّ مجاهد يجهله حينًا.

* * *

"وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.. " فإحساس مدير المديرية الحالي بقلة بدنه، ثمَّ إحساسه أنَّه غريبٌ، كانا له واعظين جيدين فترة عامين كاملين قضاهما في محافظة غير محافظته، أولًا: جَعْلِ سِرَه في عِبِّه، فلم يجهر يوما بَنِيَّةٍ نواها. ثانيًا: لم يكن صداميًّا متهورًا كمدير المديرية الأسبق، وقبل الأسبق، وإن لم يمنعه ذلك من تحقيق مآربه، ويمكن أن القول إنه حفظ جيدًا "استعينوا علي قضاء حوائجكم بالكتمان" سمعه مجاهد يعظ بهذا الحديث مرارًا، فإذا أغضبه أمرٌ كان يراه داعكًا إصبع إبهامه في إصبع السبابة دعكًا شديدًا كأنه لُدغ. دخلت عليه يومًا إحدى المفتشات لتوقيع خط سير للذهاب إلى منطقة من مناطق المديرية خارج نطاق المدينة، لا لأن لها عملًا هناك متأخرًا فتنجزه، بل لتقوم سيادتها بواجب العزاء في قَريبٍ، فاستفزَّ مدير المديرية هذا الطلب جدًا، فأخذ يفكر: هذه وقاحة، أجلس لأُعَرِّسُ عليكم أنا؟ وأردف يلوم الزميلة في نفسه، تأت لمدير المديرية ليوقع خط سير رسمي لسيادتها لتذهب في مصلحتها، لِتَذْهبْ لتعَزي في قريب سيادتها بعد انتهاء العمل؛ أصل الحكومة هي الحمارة الواطئة! ومضى يدعك إصبع الإبهام في السبابة دعكًا شديدًا حيْرة من وقع في فخ شديد، فَرقَّت له المفتشة، وابتسمت تُعْلِمْه عن مهمة أخرى تقوم بإنجازها:

"يا أستاذ أبو حليمة، منطقة السنبلاوين، لها (بُوسطة) لدينا في الأرشيف وأنا إذ أذهب للعزاء أذهب فأحملها إليهم معي" وضحكت، فوقع لها خط السيرَ مُرغمًا. ولمّا تأكَّد له أنها خرجت نادى مدير مكتبه:

"يا فلان" فهرع إليه مدير مكتبه، إذ لم يعهده غاضبًا إلى هذه الدرجة:

"أُؤمُرْ سيادتك" فاستمر في جِديته:

"فلان وفلانة ليسا تَابعين لي، لمّا يعوزوا حاجة، يطلبوها منك أنت"

فاتفق أن دخل الحجرة عندئذٍ فلانٌ إذ ليس بينه وبين مدير مكتبه حجاب إلا نصف حائط من زجاج فاميه، فسمع فلانٌ مدير المديرية يتحدث عنه كراهة، ففتح عليهما الباب ففاجأه:

"ونبقى نحن تَبعًا لمن يا أستاذ أبو حليمة؟" الموظف في دهشة وغضب

"أنت وفلانة تتبعان الأستاذ فلان، هو المسئول عن شئون هذه الإدارة."

فاحتج الموظف:

"أنا أقدم مِنْ محمد زاهر يا أستاذ أبو حليمة" فلم يجد مدير المديرية ما يدفع به هذا الاحتجاج، فتابع الموظف عيانه:

"وأنا لن أنفذ خط السير هذا يا أستاذ أبو حليمة" فكظم مدير المديرية غيظه:

"تنفذ أو لا تنفذ هذا شأنكم"

فرجع الموظف ليجلس إلى مكتبه يقتله الغضب. وكان مدير المديرية قد وَقَّعَ له خط سيرٍ، ليذهبَ إلى المحكمة مُتابعًا لتنفيذ الأحكام، يَحِدُّ في المبالغ المحصلة لحساب المديرية، ولم يكن قد علم بأمر زميلته التي ذهبت للعزاء، ولا بخط سيرها، فمضى يكلم نفسه:

"شيءٌ عجيب، هو أنا خارج ألعب، طبِ عَنّها ما اتحصلت أموال الغرامات، هو أنا وحدي المستفيد، سيادته أول المستفيدين"

فواساه من بالحجرة، وهم يَرَوْنَه يعود تاركًا الخروج، يجلس إلى مكتبه يقتله الغضب. وضحكوا فأحاطوه بأمر الزميلة:

"صفاء دخلت قبلك مضت منه خط سير، لتُعز في قريب لها"

"وما دخلي أنا بصفاء، موظفة تُزوِّغُ، يرفض سيادته توقيع خط سير لها أو يحولها للتحقيق، وأردف أنا: لم أرَ وكيل وزارة بهذا الضعف"

وفي ذات اللحظة دخل على مدير المديرية أحد السائقين بادي الغضب ليُطلعه:

"يا أستاذ أبو حليمة، الأستاذ فلان- الوكيل- مُقدم فِي مذكرة لِسيادتك" فاعتصم بالهدوء:

"دافع عن نفسك يا أحمد" فَفَجَرَ السائق:

"مـا أنا هـدافع عن نفسي، هـ أقول في التحقيق: إنكم من يومين طلبتم العربية في غير أوقات العمل الرَّسْميَّة، وكان مع الأستاذ وكيل المديرية، ناس مجهولين الهويِّة، عرفت منهم إنهم أقرباؤك، وصلتهم كما يريدون، ه أقول بـ يركب سيارة المديرية ناس مجهولين الهوية"

فتبسط مدير المديرية للسائق جدًا كأنه الموضوع لا يخصه:

"أنت أعصابك مشدودة يا أحمد، اطلع اسْتريَّح، هَدئ نفسك واشرب شاي. الأمور كلها تَنْحل"

فخرج السائق من عنده ليقعد بالصالة، ودخل عليه وكيل المديرية. ثم لم يتلبث إلا قليلًا خرج من عنده يبتسم للسائق في بلاهة، فعَرَفَ السائق أن المذكرة قد حُفِظتْ.

كان الأستاذ شاكر قد جِيء به وكيلًا للمديرية عقب انتخابات مجالس إدارات الشركات، وانتخابات نقابات العاملين بالمحافظة، التي تشرف عليها مديرية القوى العاملة. ولأنه لعب دورًا مجيدًا، بالتجهيز والإعداد لهذه الانتخابات، وتنقية قوائم المتقدمين لخوضها بالتعاون مع وزارة الداخلية وجهاز أمن الدولة من عناصر جماعة الإخوان، فسطع نجمة عند الوزيرة، وجميع الجهات المسئولة. وكانت معاليها قد صرحت لوسائل الإعلام قبل هذه الانتخابات: أن نقابات عمال مصر طول عمرها نقابات مهنية حصينة؛ لا يمكن اختراقها من الجماعة المحظورة ولا من غيرها. إبَّانها أعلن مدير المديرية مرارًا أمام الجميع، وكان قد خلا مقعد الوكيل بخروج الأستاذ فرج معاشاً: أَمْرُ الوكالة شيء بينكم لن أتدخل فيه، ليتقدم لشغله كُلُّ أَحَدٍ، لتختار معالي الوزيرة من بين المتقدمين من تشاء. وبهت مجاهد عندما عَلِمَ أن شاكر هو من جيء به وكيلا، فقبل كان يجلس تقريبًا بلا عمل إلى جانب معاون المديرية على بنشٍ عالٍ خلف الباب الرئيس للمديرية، وكلما مر به ناوشه، ومن فوق مجلسه هذا مرارًا:

"أنت فاتح الإدارات تَحَت مكتب تحفيظ قرآن، تُحَفِظُ قرآنًا؟ أبلغ فيك أمن الدولة، ويضحك بشدة.

وإذا وقع شِجَارٌ بين شخصين واتفق له أن رآه بديوان المديرية سارع بمناشدته أمام الجميع:

"يا شيخ فلان نريدك أنت وإدارتك هنا في المديرية، تقرؤون القرآن، تطردون منها العفاريت"، ويضحك.

ولمَّا رآه الزملاء محزونًا لخبر تعيين شاكر وكيلًا للمديرية واسوه:

"هذا، لا تحمل همّه، ذو قلب طيب، يتخاصم ويتصالح كما الأطفال في اليوم مئة مرة..

في واقعة السائق؛ كان سيادته ذاهبًا إلى مركز التدريب الإداري لإلقاء محاضرة، فطلب من الشئون الإدارية سيارة توصله، فاتصلت الإدارة بالسائق كيما يذهب إليه فيوصله، ولمَّا تأخر السائق قليلًا لأن الشارع كان مزدحمًا، الحادية عشرة صباحًا وقت الذروة، عَجِلَ الوكيل فأخذ تاكسي وذهب إلى مركز التدريب، وجاء السائق إلى باب ٦ فلم يجده، فعاد بالسيارة إلى الجراج. لمَّا رجع سيادته من المحاضرة لم يجد الشئون القانونية قد أعدَّت في السائق المذكرة التي طلبها في الشأن، فقام سيادته بإعدادها بنفسه، وحاول الكُلُّ أن يثنوه عن عزمه لأن الطريق كان مُزدحمًا وسيادته من تَعَجَّلْ، وأن السائق ذهب فعلًا إلى باب ٦ فلم يجده، ودخل على مدير المديرية في عزمه فقال له الأخير:

"وأين يذهب مِنَّا؛ السائق هـ يْفَتَّحْ علينا، قُمْ اسحب المذكرة!" وكان قد أقسم للسائق أيمانًا ألا يقوم بسحبها أبدًا؛ فرآه السائق يخرج من حجرة مدير المديرية؛ ينظر إليه في بلاهة ويبتسم؛ فتأكد له أن التحقيق حفظ.

وكان مدير المديرية إذا أراد فعل شيء هَيَّجَه به، كأن يقعد على الدفاتر، فيقوم بالتقفيل ولو على الكُلِّ؛ ضاربًا بالنظام السائد عرض الحائط، مفاجئًا الجميع بأن آخر ميعاد للتوقيع هو الثامنة والربع صباحًا بدلًا من الثامنة والنصف الذي اعتادوه، فيموج الموظفون بعضهم في بعض، ويضطرون إلى اللجوء لمدير المديرية لتطييب خاطره، يعلنون بين يدي سيادته، ترك التراخي، والعَوْدَ للالتزام، فقط: لِيَظَلَ آخر ميعاد للتوقيع بالدفاتر الثامنة والنصف بدلًا الثامنة والربع، الذي لم يعد أحدٌ يعمل بالجهاز الحكومي في ربوع مصر ملتزمًا به، فيتفضل سيادته

بالموافقة. فينطلقون في شدة غيظ لاعنين في أنفسهم هذا الوكيل الصاخب الذي لا يترك أحدًا يهنأ براحة.

أمَّا إن اتفق وقام مدير المديرية نفسه بتلك الجولة على الإدارات والمكاتب، فكان يظل جالسًا ينتظر آخر موظف قادم، مُكتفيًا بتقريع لين، وأقبل مجاهد وعلم أن الدفاتر كُلَّها مجموعة في إحدى الغرف لدى وكيل الوزارة، وكانت الساعة التاسعة إلا عشر دقائق فاستهله مدير المديرية:

"الشيخ مجاهد، قدوتنا، يأتي مُتأخرًا"

فأقسم:

"والله يا ريس، لا أتأخر إلى هذا الحد أبدًا، ربما أتأخر خمس دقائق إن تأخرت، كان الطريق اليوم مُزدحمًا على غير العادة، وإن كان هذا ليس مُبررًا، وأعد سيادتك ألا أتأخر عن الثامنة والنصف"، فأشار سيادته إلى الدفاتر التي لم تزل مبسوطة، وتابع في لومه الليِّن:

"وَقعَّ يا شيخ مجاهد. معك السيارة، فكيف بمن يأتون مواصلات وليس تحت أرجلهم سيارة" فاستأذن بعد هذا التقريع غاضبًا في نفسه: هؤلاء لا همَّ لهم إلا السفاسف، يلوم وكيل الوزارة.

ففي إحدى جولاته التفتيشية على شركات إلحاق العمالة وجد في حوزة إحداها جوازات سفر لمواطنين ذاهبين للعمل بدولة الإمارات، وشهادات لمن يهمه الأمر التي سبق أن حذَّر منها، وكتب مذكرة في ذلك بعث بها للعرض على معالي الوزيرة مفادها: أن هذه الشهادات وإن كانت موقعة من المستشار العمالي المصري بالخارج إلا أنها لا تحمي المواطن المسافر في دولة مقر العمل، فقال

لصاحب شركة إلحاق العمالة والمدير المسئول، بعد ما أخذ صور من جوازات السفر، وعدم الممانعة وصور من شهادات لمن يهمه الأمر:

"ممنوع تسليم هذه الشهادات للمواطنين، ولا إعطاؤهم عدم الممانعة، مِنْ أين اعتمدت هذه الشهادات؟"

"مِن الإدارة العامة للاستخدام الخارجي بالوزارة" مدير الشركة، فسأله:

"أمعك تليفون فلان هذا"، يعني، مدير الإدارة العامة للاستخدام بالوزارة قال:

"نعم أَطْلبُهُ لسيادتك على الموبايل تُكلمه"

فكلمه:

"الأستاذ فلان، معك مجاهد منصور، مدير إدارة الاستخدام الخارجي بالدقهلية، أنا الآن في حملة تفتيشية على شركة سِمْبو لإلحاق العمالة وجدت بالشركة شهادات لمن يهمه الأمر معتمدة من الوزارة، وهذه الشهادات لا تصلح أن تكون بديلًا عن عقد العمل لأنها غير موقع عليها من طرفي التعاقد، العامل، وصاحب العمل، ولا ذكر فيها لعدد ساعات العمل، والمزايا العينية والنقدية المتفق عليها قانونًا. وبالإضافة لأنها غير موثقة من خارجية دولة مقر العمل وأنها مذيلة بهذه العبارة، وقد أعطيت هذه الشهادة دون أدنى مسئولية قانونية تجاه الغير. وسبق أن تعرض مواطنين سافروا بها لاستغلال صاحب عمل؛ خَفَّضَ الراتب وحدثت مشاكل للعمال، فأرسلت مذكرة للعرض على معالي الوزيرة أَحذِّرُ منها، وَأعْلِمْتُ أنَّه تم الاتفاق على تعديل صيغة هذه الشهادات، فرد في اقتضاب:

"تعال نتفاهم"

"حضرتك غدًا موجوداً بالوزارة؟"

فاتفق مع المدير المسئول للشركة أن يلقيه غدًا بالوزارة ومعه جوازات سفر المواطنين وعدم الممانعة وشهادات لمن يهمه الأمر. فلمَّا دخلا عليه، ولم يكن سيادته يعرفه؛ سَلَّم مُعلنًا عن نفسه:

"فلان" وذكر المحافظة فَذَكره، فمد يده فصافحه عَجِلاً، وأنبأ:

"سأعود إليك بعد خمس دقائق" ونهض عن مكتبه وأشار له بالجلوس، فجلس يعيد الفحص لإحدى شهادات لمن يهمه الأمر إحدى حالات التعاقد، أخذها من صاحب الشركة للعرض. وَعاَدَ سيادته فأومأ مجاهد لصاحب الشركة بالانتظار خارجًا، وكان سيادته يُظْهِرُ نشاطًا، ويتحرك في سرعة وثقةِ رَجُلٍ مُهِمٌ، يخاطب في حزم:

"آسفٌ- لإنسانٍ قبل أن يهِمَّ بالجلوس- لن أستطيع الذهاب للسفارة السعودية اليوم، خُذ السَّيارة واذهب إلى هناك، واعتذر لمعالي السفير عن عدم تمكني من الحضور اليوم، وسوف أتصل به لنتفق على موعد لاحق"

فتلبث الشخص لدى الباب، وبدا أنَّه يود لو يستعلم عن شيءٍ إضافي، فاستطرد سيادته فَطِنًا:

"بعد هذه المُهمَّة، براحتك، أنت والسيارة، أنت في حِلٍ مِنِّي اليوم، أكيد سيكون الطريق مُزدحمًا" فابتسم السائق مُمْتنًا قبل أن ينصرف.

في عناية تابع مجاهد المشهد مُبديًا إعجابًا بهذا الموظف الحكومي الذي يعتذر عن لقاء السفير السعودي، وَيَعِدُ أن يحدد موعد لاحق لذات نفسه! فبسط أمام سيادته للاطلاع؛ شهادة لمن يهمه الأمر، وتحدث في لُطْفٍ:

"سيادتك، هذه الشهادات مثل التي تعاملت بها شركة دريم فتعرض المواطنين بسببها بعد سفرهم لمشاكل، قامت الشركة الإماراتية بخفض الراتب، ولم تلتزم به،

وزعمت أن الراتب الذي جاء في هذه الشهادات يشمل الراتب الأساسي مُضافًا إليه ساعات العمل الإضافي، وأنه يجب على العامل أن يعمل ١٢ ساعة يوميًا إذا أراد أن يقبضه، فلم يقبل بعض المواطنون بذلك، وعادوا بعد سفرهم وحدثت مشاكل، تمكنت بعد معاناة من حلها، فردّ سيادته:

"مـ النَّاسُ كلها تعمل ١٢ ساعة، وهل هم مسافرون يلعبون، النظام هناك كذا، وسأل في اسْتهانة:

"وماذا صنعت؟ يعني في مشكلة شركة دريم"

وللنبرة المُسْتَهِينة ردَّ ردًا غالبًا:

"رددت الأموال إلى أصحابها" فتابع سيادته بنفس نبرة الاستهانة:

"مـ المخالفة ثبتت على الشركة"

قال:

"وأنتم هنا في الوزارة إذا ارتكبت شركة إلحاق العمالة هذه المخالفة أوقفتموها عن النشاط مُؤقتًا. فإذا أُزيلت المُخالفة، عدتُّم فرفعتم عنها هذا الإيقاف المؤقت ورجعت الشركة من جديد إلى التعامل" فانتفض سيادته عن كرسيه من الغضب:

"آتٍ أنت كي تحاسبني هنا في الوزارة! المقابلة انتهتْ. ارجع إلى مديريتك، وقل لمدير مديريتك يُكَلِّمُنيِ"

استشعر مجاهد أنه أمام شخص إن ردَّ عليه الإهانة لن يتورع، كَبَغيٍ دائرة، أن يرميه ببلاه، وكان بالحجرة مواطنون وبعض موظفي الوزارة، ولكنه كان على مثل اليقين أن أحدًا من هؤلاء لن ينهض للشهادة ضد هذا. فكظم غيظه، وحمل حقيبته في هدوء وغادر المكتب حتى لا يعطيه الفرصة، مُتوجهًا إلى مكتب معالي

الوزيرة، وتذكر أن معاليها قالت له اسم إحدى معاونيها: مدام زينب، متى أراد مقابلتها، فتوجه مباشرة يبحث عنها. وكان قد مَرَّ على موضوع الملف الذي سَلَّمه لمعالي الوزيرة، يوم حلف اليمين أكثر من سنةٍ، وأغضبه جدًا أنه لم يتلق ردًا بخصوص تلك الدراسة التي أعدها في شأن مشاكل إلحاق العمالة المصرية المسافرة للخارج ومقترحات علاجها، وكل ما عَلِمَه أن الوزيرة أَقَالتْ مدير مكتبها، فطوحت به بعيدًا خارج الوزارة، مديرًا لمديرية القوى العاملة بالمنوفية، دخل مكتبًا ملتحقًا بمكتب معاليها يسأل عن مدام زينب، كان المكتبُ مُزدحمًا بالموظفات وأجهزة الكمبيوتر، فأشير له إلى إحدى النساء الغارقة وسط ملفات وأشياء كثيرة. فلمَّا كلمها قالت:

"معالي الوزيرة ليست اليوم بالوزارة، لكني أحيلك إلى مدام نِعْمت، بالدور الرابع، رئيس الإدارة المركزية للاستخدام، ترتب لك موعدًا للقاء معالي الوزيرة."

فقَصَّ على المدام، كيف جاء إلى الوزارة بناءً على طلب مدير عام الإدارة العامة للاستخدام الخارجي للتفاهم بخصوص شهادات لمن يهمه الأمر، وتصحيح خطأ وقعت فيه الوزارة، فقام سيادته بطرده من مكتبه أمام الجمهور وبعض موظفي هذه الإدارة فاتصلت به على الموبايل:

"الأستاذ فلان؟ معك نِعْمَت سعيد، الله يرضى عليك، متى فرغت كَلمْنِي على هذا الرقم، فكَلَمها فقالت:

"نعرف عنك دماثة الخُلُقِ، وحسن التعامل، عندي مدير إدارة الاستخدام الخارجي بالدقهلية، يطلب مقابلة معالي الوزيرة، كانت تتكلم في ثقة ورزانة وقد تعاطفت معه، لمَّا حكى لها، وذكرت سيادتها؛ أن العاملين في المديريات وفي الوزارة جميعا زملاء ينتسبون لنفس الوزارة. وفجأة ذهبت عنها تلك الثِّقَة، وارتدت في ارتباك، وانتفضت لتشهد:

"لا، لا، هذه مخالفة، لمْ يَذْكرْ لي ذلك، كيف يأتي إلى الوزارة ومعه صاحب شركة إلحاق العمالة. الله يرضى عليك، أعرف عنك حقًا، دماثة الخلق وحسن التعامل، مع السلامة، مع السلامة"

وانقلبت على مجاهد في شدةِ غضبٍ تؤنبه:

"أنت لم تقل لي ذلك، هذه مخالفة جسيمة"

فحاول أن يُبَيِّنَ، أنَّه ما جاء إلا لإيقاف التعاقد، ومنع سفر هذه المجموعة من المواطنين، وهذا ضد مصلحة الشركة، تَنْتفي به تلك التُّهمة التي أراد أن يقذفه بها هذا. قالت وهي ما زالت ترتعد:

"ارجع إلى مدير مديريتك يتصرف، واستطردت نافرة، يأتي الواحد منهم إليَّ إذا أراد شيئًا، ويخشى أن يدخل يكلم معالي الوزيرة. وأردفت وهي لا تزال مُزلْزلة ثائرة"

"هذا يقول لو دَخَلْت، سيدخل ويقول: قادم للوزارة ومعه صاحب شركة إلحاق العمالة؛ عاوز يدخل لمعالي الوزيرة يِقلبْ عليَّ وعليك الترابيزة" كانت تنتفضُ كأنها لُدِغت من ثعبان الكُبرى، فأشعرته أنَّه من ارتكب جُرْمًا، وليس هذا! فأسِفَ لذلك أسفاً شديدًا.

فمرَّ بمدام أمنية، وكان قد أقبل مسرورًا مُتحمسًا لهذه الزيارة المفاجئة التي لمْ يحتل لها، وقعد مهمومًا يحكي لها، فقالت:

"فلان! ذا شخص مكروه جدًا، يفعل مع زملائه من وكلاء الوزارة أكثر مما فعل معك، ولا أحد هنا في الوزارة يُحِبُّ أن يتعامل معه"

"يقول لي: المقابلة انتهتْ، ارجع إلى مدير مديريتك وخَلِّيه يكلمني، وحسبما علمي أنه لم يحصل على درجة مدير عام بعد، وأنَّه قائم بعمل مدير الإدارة العامة للتفتيش بالوزارة، فقالت:

"وتَسْنِدْ إليه الوزيرة الإشراف على الإدارة المركزية للعلاقات الخارجية والإشراف على الإدارة العامة للاستخدام الخارجي مع الإدارة العامة لتفتيش العمل! وضحكت؛ كفاءات نادرة، يا عمّ."

قال:

"لن أتركه، ولن أترك حقي. وسرقهم الوقت، فتابع آسفًا قبل أن ينصرف؛ أضعنا وقتنا في هذا."

فابتسمت:

"ومتى الزيارة القادمة للوزارة؟"

"والله لا أدري، وقال، سلمي على الزوج، وعلى الأولاد"

ورجع هائم النفس، حزيناً من كل جانب.

* * *

الفصل التاسع

في القرية بلغ الشقاق مداه، وقامت معركة بين محبيه وأقاربه، وبين فرد الإخوان وأقاربه. واقترب التشابك بالأيدي بينه وبين الشاب التابع لجماعة أنصار السنة، والمُحَرض ضدَّه من فرد الإخوان، وكان له غلامٌ إذا خرج إلى المسجد اصطحبه معه ليُوْقِفَهُ إلى جانبه في الصف الأول خلف الإمام، وكان هو كلما رأى غُلامًا لم يبلغْ الحُلُمَ بين صفوف الرجال أخره.

وكان الناس قد اختلفوا على إمامة والد الغلام بعدما خَلَفَها له، إذ ظل يسترضيهم، يُغَيِّرُ ويبدل في شأن ما استقر عليه أمْرُ الناس معه، فإذا انفتل من الصلاة يواجه الناس مَدَّ يده يصافح منهم ما استطاعت أن تصل يده إليه، وكان هو لا يفعلها. فإذا أراد أن ينصرف طاف على الباقين، فيمدون أيديهم له وهم جلوس للذكر بعد الصلاة في غير عناية، فيرفع صوته يُسلم عليه هو وقد أخذ ينصرف كي يجيبه فلا يجيبه ويقول في نفسه: أيُّ سلامٍ يريده هذا منّي، يريدُني أجيبه ليُعْلِمَ هؤلاء أني أُقرُّه على ما يفعل؛ يسبق إلى الإمامة وأنا واقف، بئس الصنيع، ويظل مُشتغلًا بالذكر الذي يكون عقب الصلاة، يتعمد ألا يرد السلام عليه، أو يعيره التفاتًا.

ولم تمنع مصافحته لهؤلاء، ولا توزيعه الابتسام، ولا التطواف بالسلام عليهم، لم يمنع كل ذلك من الخروج عليه؛ فيومًا أطال رَفْعَ يديه يدعو مُنَغِمًا بقافية واحدة في صلاة الفجرِ، فلما فرغ من الصلاة تَلَقَفَه سائق النقل الذي بالمعاش:

"يا أخي عارفين إنكم عُلماء، ساعة! واقف تُجيب من بعيد ومن قريب، يا أخي كَرَّهتُونا في الصلاة."

فرجع عن القنوت في صلاة الفجر وكان لا يفعله مجاهد، فخرج عليه آخرون، فعاد إلى القنوت مع تقصير القراءة، فأنساه الشيطان يومًا فَقَنَتَ فأطال، وأطال القراءة، فعل هذا ترضية للبعض وفعل تطويل القراءة ترضيةً للشباب الذين يكرهون منه التقصير وهم أغلب المصلين، فتلقفه الرجل نفسه مُتهجمًا عليه، فوقْف البعض أمامه، فاكتفى بضرب قعر المسجد بيده وصاح مُتَوعِده:

"لو شُفْتكَ في المسجد تاني، سأفعل بك، كيت، وكيت."

فمكث يجيء إلى المسجد كمأموم برفقته غلامه يوقفه في الصف الأول إلى جواره خلف الإمام، فانتقده البعض: كنتم تَصُفُّون أولاد الناس وحدهم خلف صفوف الرجال، فما بالكم اليوم تقفون بأبنائكم خلف الأمام في الصف الأول، فأجاب المنتقد:

"إن ابني هذا غلامٌ مُمَيزٌ قارئٌ تجوز إمامته" ولم يستجب لهم، فرجعوا باللوم على مجاهد:

"أولاد الناس كنتم تؤخرونهم خلف صفوف الرجال، فما بالكم اليوم تقدمون أبناءكم فتجعلونهم في الصف الأول خلف الإمام، وَضَربَ له الناقد مثلًا في التَّلَون: أئذا بال الكلب على جدار الناس قلتم وجب إزالة الجدار للنَّجاسة، وإذا بال على جدار أحدكم قلتم قليلٌ من الماء يُطَهِرُه!" فأكد لهم ما سبق أن قاله:

"نعم، صفوف الغلْمان تأتي خلف صفوف الرجال، هذه هي السُّنة، وفِعلُ هذا بابنه لا أُقِرُهُ عليه، وأنا كلما رأيت هذا الغلام بين صفوف الرجال أخرته ووقفت مكانه"

ولمَّا عاد إلى فعل ذلك مع الغلام استعصى، وما استعصى من قبل أبدًا. فأخَّره عُنْوة، ووقف مكانه، وعلم من اسْتعصاء الغلام أن والده حَرَّضه، وأنَّ هذه رسالة بَعَثَ بها إليه، غيْرَ أنه لم يستطع أن يفعل إلا عَلِمه، وتربص حذرًا. وأقبلت الصلاة التالية وأقبل الوَلَدُ والوالِدُ، فأراد أن يأخذ الصبيَّ من الصف ليؤخره، فنزعه والده من يده، وقال:

"لا شأن لك بابني بعد ذلك، ابني هذا لا تؤخره"

وبَرِق بعينيه في وجهه في جرأة، وانصرف بولده وعاد به إلى الصَّف، فآلمته تلك الجرأة، فبيّت على افتضاحه لدى رئيس جماعة أنصار السنُّة والإبلاغ عن مخالفاته ليُرْدع أو يُطْردُ من العمل لدى هذه الجماعة فيرفع اسمه من الجدول، فاسْوَدّ وجهه؛ وَكَذَبَ:

"لا علاقة لي بجماعة الإخوان، الأخ مجاهد هو من تربية جماعة الإخوان، والناس في القرية يكرهونه ويقدمونني عليه في الصلاة ويفسد في أمر الدعوة ويقاطع الناس"، فَبُهِتَ:

"أنت لا علاقة لك بالإخوان؟!" وسأله: "أنا في القرية من يكرهني الناس!؟ سلوه فليذكر من صفات وأسماء هؤلاء الذين يكرهونني؟"

ودخل في فضيحته فتابع:

"سلوه لماذا كان الأمن يطارده هو وهذا الشخص من جماعة الإخوان قبل انتخابات الرئاسة؟ فقفزا من الشباك إلى الغيطان لما جاء الأمن للقبض عليهما، وَفرَّا هاربين إلى الحقول."

"سلوه ألم يكن شريكًا في سوبر ماركت مع هذا الشخص؛ فسلط الله بعضهم على بعض فاختلفوا"

فتعرض سكرتير الجمعية لمسألة الغلام فِقْهِيًّا، قال:

"إن كان الصبي مُمَيِزًا، لا يُمْنَعُ من الوقوف في صف الرجال، لقد عاينت صبيًا دون الحلم أخذ عني في درس من العلم ما لم يأخذه غيره من الرجالً فعارضه مجاهد:

"يا أخي السُّنَّةُ أن تجعل الصفوف الأُوَل للرجال، ثم تأتي صفوف الغلمان، ثم تأتي صفوف النساء، وكان عمر رضي الله عنه إذا وجد غُلامًا دون الحلم بين صفوف الرجال أخره، والأحكام لا تُبني على حالة شاذة لغلام" تحدث نَكِدًا محاولًا كبح غضبه، ولم ينعت عامدًا سكرتير الجمعية بـالدكتور، أو بـفضيلة الشيخ فلان مما درج القاعدون أن ينعتوه به، ليُعْلِمَه والجميعَ أنَه لا فضل في العلم؛ أنهما في درجة العلم سواء، وكان قد شاهده حفيًّا بولده يُوقفه بين يديه إذا خطب الجمعة أو كان مُتحدثًا في درس، وكان قد حضر هذا الدرس الذي أجابه فيه ذاك الغلام، وسكت وكان عالمًا بالإجابة. وتحدث شخص آخر من الدعاة:

"خروجًا من هذه المشكلة، أرى أن يتنازل أحدكما للآخر، وطالما أن الأخ ترتاح الناس لإمامته، فأرجو أن يتنازل له الأخ مجاهد."

فَحَزِنَ فأجاب:

"يا أخي أنا تركت الإمامة منذ أكثر من عام، أنا أتحدث عمّا يقوم به هذا من دعوة معاكسة، فيبطل بعضُنا عمل بعض، ويتكلم في حقنا العوام، وأراد أن يُوضح أنه قبل هذه اللحظة لم يكن مُخبرًا عن شيءٍ، إنَّما اتصل به تلفونيًا فضيلة الشيخ فلان، وأنه من قام باستدعائه، فابتسم رئيس فرع الجمعية فأمّنَ:

"حقيقي الشيخ مجاهد لم يتقدم إليَّ بشكاية، الذي بلغني بالموضوع أخ من رواد المسجد يُدعى أسامه"، فردَّ الخصم:

"أسامة هذا عَيلٌ، لا يفقه شيئًا، أراد أن يعتديَ عليَّ بالضرب في المسجد، وهو صاحب الأخ مجاهد. فرغب الجُلوس في إغلاق هذه الخصومة، خاصة أنه قد شاع في مساجد أنصار السنَّة بين الأخوة مثل هذا التنازع على الإمامة، فصمت مجاهد لمَّا بدا له أنها رغبة الحضور.

وبينما هو يمشي في صحن المسجد عقب هذه المواجهة خارجًا، مَرَّ بالأخ الذي طلب منه التنازل عن الإمامة، فعزم على تلافيه لكراهة مقاله، فنهضَ إليه الأخ فتناول يده برفق مستوقفًا:

"يا أخي العزيز، والله، ما أشُك فيما قلت وأنَّك صادقٌ، هذا الأخ كذب عليَّ متعمدًا وجهًا لوجه"، وجلس يحكي له، ففاضت لسرعة النصر بالدمع عيني مجاهد.

وفَكَّرَ، وقد أخذته الشفقة بأبي سريع وكان لم يزل حتى حينه يستبق الإمامة، فقال مُعَزِّيًا له: هذا لم ينل من العلم قسطًا كافيًا، ويفعل ما يفعل إلف العادة، لقد اضطرته وفاة أبيه إلى الخروج من المعهد الديني ليعول أُمه وإخوته وهو غلام قد حِفْظَ القرآن بالمعهد صغيرًا. فقرر أن يصطحبه معه إلى مساجد أنصار السنّة التي يذهب إليها في البلدان؛ لعله يُطالِعُ عَالمًا أرحب من عالمه الذي حُبِسَ فيه، بعد أن أُخْرِجَ معاشًا مُبكرًا، وخَصْخصة الحكومة للهيئة العامة التي كان يعمل فيها كاتبًا للبوابة، وكان قد شاع أن فلسفة حكومة نظيف خصص وخلص، فقعد أبو سريع للإمامة..

بَيْدَ أنه؛ قد جَفَّ القَلَمُ بما أنت لاقٍ، وعُرِفَ أهل الجنةِ من أهلِ النَّار، فقال رجلٌ: فَلِمَ يعملُ العاملون؟ فقال صلى الله عليه وسلم: كلٌ يعملُ لِما خُلقَ له، وأردف مجاهد في نفسه، وقد زال عنده الإعذار سريعًا لأبي سريع: الحسنة تَدُلُّ على أُختها، والسيئةُ تُدُلُّ على أختها؛ فبعد الخُطْبة الأخيرة، وكان قد اصطحب أبا سريع معه، أراد أن يسبقه إلى السيارة فأعطاه المفتاح، وجاء القائم على أمر المسجد فوجده قاعدًا في الكرسي الأمامي، جوار مِقْعدِ السائق، فظنَّه السائقَ فناوله أُجرةَ السيارة، وأقبل هو فجلس في كرسي القيادة، وتبِعَه مسئولُ المسجد ليُوَدِعه قبل الانطلاق، فرآه يجلس إلى مقعد القيادة والأخ لا يزال جالسًا في المقعد المجاور، فساررُه: حسبت الأخ جاء يقود لفضيلتك فأعطيته بنزين السيارة، قال: لا بل جاء مُسْتَمِعًا، لم يكن الحديث الدائر بينه وبين متعهد المسجد خافتًا بالقدر الذي لا يُسْمِعُ الجالس، إلا أن الصاحب بالجنب، الجالس إلى جواره مكثَ ينظر في عَمىً إلى الأمام عبْرَ زجاج السيارة، وكأن الشأن لا يخصه.

وطوال الطريق انتظر منه إيضاحًا، أو تصحيحًا للخطأ إلا أنه لزم الصمت، وإن تحدث مال بالحديث بعيدًا عن الموضوع، وظل هو قائمًا يحدث نفسه غضِبًا: ما بال هذا! جئنا به مُسْتَمعًا، فجاء ليأخذ أُجْرةَ على سماعه! أولا يعلم أن مساجد أنصار السُنّةِ لا دخل للحكومة بها، أنشأتها تبرعَات الأهالي، ونحن إذ نسعى، نسعى متبرعين لا نأخذ أجْرًا؛ بل مقابل بنزين السيارة نعان به، فما نحن إلا عائلون منقطعون لأمر الدعوة، موظفو حكومة، وأردف: عجيبٌ شأن هذا، كأن- الأبعد- أخرس، يحسبنا نرتعُ في النعيم، هذه أموال مجموعة من أيدي الناس للنفقة على المسجد.

وما أدهشه أنه عاد يهرول للإمامة، وينطلق خارجًا من المسجد عقب الصلاة قبل أن يدركه فيسأله، ومنعه الحياء والشفقة أن يواجهه، واستطاع أن يصبر

أسبوعًا، أمهله في نفسه ليصَحِحَ خطأه، فظل يستبق الإمامة، ويجرى خارجًا. فسبقه خارجًا المسجد، حتى إذا أقبل يَودّ فراراً، وانطلاقًا إلى داره، اعترضه، ومن غيظه لم يستطع تمهيدًا:

"الجماعة أعطوك نقودًا؟" واستطرد في رفق لمَّا فاجأه؛ "المساجد التي نذهب إليها مساجد أهلية، الأهالي هم من ينفقون عليها وليست تابعة للحكومة، وأنا لا آخذ أُجْرةً على الخطبة، فقط عشرة جنيهات، آخذها بنزين السيارة، هذا إنْ أعطوا وكان الطريق بعيدًا، أعطوك ما أعطوك ظنًا منهم أنك السائق، وأنا أنوي ردَّها إليهم"، هنا أخرج سريعًا من جيب صدره، كأنه لُدِغَ، خمسة وعشرين جنيهًا، وتحدث:

"كنت ناوي أعطيها لك، مِنْ يَوْمِها وهي في جيب الجلابية ملفوفة" فأخذها منه، وقال يؤنبه في نفسه: كنت ناوي أعطيها لك، فما منعك؟ مِنْ يَوْمِها في جيب الجلابية ملفوفة. وكان قد هرول مخذولًا، فلم يستطع مجاهد أن يمنع نفسه من الضحك؛ وإن يَعْجَبْ فَعَجَبٌ قول أم زوجته لمَّا سألها من ستنتخبه رئيسًا:

"انتخِبُ مبارك" فَعَجِبَ:

"من بين كل هؤلاء، تنتخبين الرئيس الحالي؟!"

فاحتجت كذلك:

"أأنتخب رئيسًا جديدًا جوعان، ليشبع ثاني من أموالنا. مبارك خلاص امتلأ هو وعياله"

وكان هناك نُكتة شاعت على الرئيس ونجليه، علاء وجمال مبارك: واحد فقير حالته وِحشه قويّ لقي الفانوس السِّحريَّ، فأخذه وقعد يِحكّْ فيه حتى طلع له

عفريتٌ، قال العفريت: اخلع قميصك، فخلعه فأَخَذَهْ، فقال: اخلع حذاءك، فخلعه فأَخَذَه، فقال: اخلع بنطلونك، فخلعه فأخذه، فأخذها جميعًا ودخل الفانوس، فقعد يحك في الفانوس مرة ثانية، فخرج العفريت فقال: ماذا تريد؟ قال: أخذت مِني ثلاث حاجات، ولي عندك ثلاثة طلبات، فقال العفريت: هذا الكلام كان زمن علاء الدين، نحن الآن في زمن عــلاء مبارك.

وبينما هو نازل إلى الشارع بعد الصلاة إذ ناداه أخ:

"يا شيـــخ؟ فانتظر حتى لحق به الأخُ؛ وكان من مُحبِّيه، فسلم وتابع: "أنت اليوم، ما شاء الله، في مركز كبير في المحافظة، والقرية هذه لا يسعى أحد في مصالحها، غَرْقانة في المجاري، ونحن على أبواب انتخابات مجلس الشعب الجديد، وهذه فرصة للمطالبة بالإحلال والتجديد لشبكة المجاري التي صار لها خمسة وثلاثون عامًا دون صيانة؛ ثُمَّ هي لا تتعدى أن تكون مواسير ٦ بوصة فُخَّار متهرئة من كثرة التسليك، والبيوت كلها عائمة في المجاري" فأجابه:

"إذًا ندعو الناس بعد الصلاة لذلك".. وأعلم:

"أرجو من الجميع الانتظار قليلا، لشأنٍ عام أحدثكم فيه. وخطبهم:

قال تعالى:" لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا "؛ وقال:

"انتخابات مجلس الشعب الجديد ستبدأ، وسيبدأ الظهور للأعضاء المختفين منذ خمس سنوات طلبًا للأصوات، وتلك فرصتكم، فلنجعل يوم الخميس القادم بعد صلاة العشاء موعدًا لحضور الجميع لتختاروا من بينكم نفرًا يسعون في مصالحكم، تتعاونون معهم، ويعرضون عليكم أولًا بأول ما يتم إنجازه."

فتحدث شخصٌ من محبيه:

"يا شيخ مجاهد، خَيْرُ البِر عَاجِلُهُ، لِمَ الانتظار أسبوعًا. اخترْ أنت للمُهمَّة من تريد"

أجاب:

"بل ننتظر حتى يُعْلِمَ الحاضرُ الغائبَ، فيجتمع الناس الخميس القادم فتختاروا سبعة لن أكون من بينهم، فقط، أنا معاون متى طُلِبَ مني أن أعاون، فاستدرك آخر:

"على أن تسْتَبْعِدَ من اللجنة الخصمين، مَنْ تعرفهم، يعني فرد الإخوان وفردين من الحزب الوطني متشاكسين؟"

وكان فرد الإخوان، خصم مجاهد، وعضوان من الحزب الوطني، سقطا من قَعْرِ القفة، إذ لم يكن لهما قبل هذا التاريخ في الجُهدِ العام أيَّ مساهمة، لبثا يتحدثان عن إنجاز شيء تم بمعرفتهما في شبكة المجاري الجديدة للقرية، فيُعْرب فرد الإخوان أنه لم يتم شيء، يُشوشر عليهما، أن تلك دعاية انتخابية لمبارك، وكان هذان قد اختيرا عضوين في المجلس المحلي للدورة السابقة التي أحجمت عن المشاركة فيها جميع أحزاب المعارضة لعدم وجود ضمانات للنَّزاهة، وأقصي الإخوان عنها، فوجدا هذان الشخصان لأولِ مرة الباب أمامهما مفتوحًا، فدخلا الانتخابات - في البداية - كعضوين مستقلين، فازا بالتزكية، وفاز بجميع المقاعد الحزب الوطني، فراق للشخصين الالتحاق بالحزب الوطني ضمانًا للنجاح في المستقبل، على أمل أن يُرشحهما الوطني للدورة القادمة.

ولأنهما لم يحققا إبَّان الدورة السابقة أية جماهيرية، إلا السعي في إشهار نادي رياضي للقرية، مكث ينازعهم على مجلس إدارته فرد الإخوان، فاسْتُبْعِد اسمه،

وكل اسم لأقاربه دسّه في القائمة المرسلة لأمن الدولة للإقرار، فظل على عداوته؛ نَشِطا بين شباب القرية يرجف؛ بتصرفات مالية مشبوهة لهذين العضوين استقطابًا للشباب، وظلت بينهما الحربٌ الكلامية، فكلما أعلنا عن شيء في ملف الصرف الصحي للقرية تَمَّ إنجازه، تلقاه فرد الإخوان بلسانه، فأذاع: أن الأمر لا يعدو كونه دعاية للانتخابات الرئاسية الجديدة لمبارك، وأن هذين فاشلان.

وأقبل يوم الخميس ولم يقبل إلى المسجد شخص الإخوان تأبِّيًا أن يكون مقودًا، لأنَّه لن يكون إلا كذلك في مواجهة مجاهد. واجتهد أن يصرف الناس عن الحضور، ولم يستنكفا عضوا المجلس المحلي السابقان، عضوا لحزب الوطني المجيء. فتحدث إلى الناس مجاهد:

"اختاروا من بينكم سبعة نشطاء تثقون بهم؟" فوقعوا في الخرس جميعًا، فانطلق صوت في حماس ينادي:

"يا شيخ مجاهد وكلناك للشأن، فاختر معك من تثق به" فأسف لما آل إليه حال الناس؛ وكأنهم من كثرة ما اخُتِيرَ لهم والتزوير باتوا أعْمِياءًا.

أجاب:

"سأجتهد، سأختار النشطاء من كل الأعمار يمثلون فيكم أغلب العائلات، من الأربع شوارع، وحسب كثافة السكان بالشارع"

وكلما ذكر اسمًا قالوا: نعم. فاختار لهم ستة، وتوقف عامدًا مُتعمدًا، ثم قال:

"بقي واحدٌ اختاروه أنتم؟" فصمت الجميع، فصاح جار له:

"يا شيخ أنت النَّفرُ السابع، أنت رئيس اللجنة، وأنت المسئول قُدامنا؟"

أجاب:

"على شرط: متى طلبتكم أن تأتوا معنا إلى جهة أفرغتم ما بأيديكم ونهضت للمصلحة العامة" وتحدث إلى العضوين السابقين للمجلس المحلي في رفق: نجلسُ معًا فتطلعاني على ما انتهيتم إليه، والأوراق التي لديكم في الموضوع.

قالا:

"الموضوع كله الآن في الهيئة العامة للمياه والصرف الصحي، قسم الشئون الهندسية عند المهندسة إيزيس، وأخبرا: الموضوع متوقف على وجود الاعتماد المالي للتنفيذ. قال:

"غداً نذهب معًا إلى هناك في سيارتي الخاصة، ومن هناك نذهب إلى المحافظة لمقابلة فلان-عضو الحزب الوطني لمجلس الشعب- لمساعدتنا في الحصول على تأشيرة من المحافظ لتمويل هذا الاعتماد من صندوق الطوارئ، وحضهما فرحبا، فقام الناس جماعات وفرادى يتحدثون في شهية وحماسة بالرأي. وقام من ينظر بعضهم إلى بعض يتهامسون، لسان حالهم يقول: "هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ" قرأ مجاهد الآية في نفسه، وأخبر عن مهمتهم التي ابتعثهم فرد الإخوان من أجلها: هؤلاء هم الجساسة.

* * *

ليلة العودة من الوزارة لم تهدأ نَفْسُ مجاهد من الغَيْظ، فصعد في الصباح إلى ديوان المديرية؛ وكانت إجابة وكيل الوزارة:

"يا شيخ مجاهد، أنت غضبان؛ لأن مدير عام في الوزارة قال لك: المقابلة انتهت، هؤلاء مُسْتقوون لأنهم في الوزارة، معاليها كنَّا معها في اجتماع فقالت لي أمام جميع الزملاء: يا فلان إن كانت الدقهلية، واسعة عليك نشوف لك مديرية مقاسك، فلم أردّْ"

تكلم بمرارة، لقلة بدنه، واستخفاف الوزيرة به، وأردف:

"اكتب مذكرة في الموضوع للعرض، نرسلها إلى رئيس الإدارة المركزية لشئون مكتب معالي الوزيرة"

فعلم أنه استند إلى حائطٍ مائل، وأن مدير المديرية هذا لن يوقع على مذكرة مرسلة إلى الوزيرة يَذْكُرُ فيها ما تعرض له من إهانة، فأبرق من خارج المديرية فاكسًا عَنوانَه- ودٌّ لو أهان هذا من أهانـه- بَعْضُ القيادات في الوزارة تعاملنا كأننا مواطنون من الدرجة الثانية، طردني الأستاذ فلان، من مكتبه لأني راجعت سيادته في خطأ وقعت فيه الإدارة العامة للتشغيل والتمثيل الخارجي بالوزارة، قال لي: اذْهَبْ، أجئت لتحاسبني؛ أنا هنا في الوزارة. وأمهرها بتوقيعه مدير إدارة الاستخدام الخارجي بكذا.

وكان قد بعث مذكرة سابقة للعرض على معاليها بعنوان؛ الموضوع، استبدال عقد العمل المنصوص عليه في قانون العمل ١٢ لسنة ٢٠٠٣ بشهادة، لمن يهمه الأمر، وبعد العرض، والرَأيُ، لا تعتبر شهادة، لمن يهمه الأمر، والمرفق لمعاليكم صورة منها، لا تعتبر بديلا عن عقد العمل، ولا ضمانًا لحقوق العامل، بل تعرض العمالة المصرية المسافرة للعمل بالخارج لضياع الحقوق واستغلال أصحاب العمل لهم بالخارج.

مرسل لمعاليكم، برجاء التكرم بالاطلاع.

تحريرًا في ٢٠٠٦/١٠/١

وفي ٢٠٠٦/١٠/١٥ وقعت مشكلة شركة دريم، اشترت الشركة ستين تأشيرة دخول للعمل لدولة الإمارات العربية، بمهنة ضابط أمن، مُصَدَّقٌ عليها من المستشار العمالي المصري هناك، دفعت فيها ٢٦٠ ألف درهم لـشركة (نايتس) على أن تسافر العمالة المصرية على دفعتين، فلما سافر مع الدفعة الأولى مدير شركة دريم لتسليمهم العمل واستلام إذن الدخول للدفعة الثانيـة، ثلاثين تأشيرة، لم تعترف شركة (نايتس) بشهادة لمن يهمه الأمر التي أصدرتها وقامت بعمل عقود جديدة خَفَّضَتْ فيها الراتب الأساسي لضابط الأمن من ثمانمائة درهم إلى ستمائة، فخضع للأمر الواقع الثلاثون مصريًا، أبوا العودة إلى أهليهم خائبين، إلا واحدًا طلب العودة إلى مصر، واتصل بزملاءٍ له من الدفعة الثانية حثهم على عدم السفر وحذرهم، وكانوا جميعًا ذوي مؤهلات عُلْيا، فجاءوا إلى إدارة الاستخدام الخارجي وتجمعوا عند مجاهد، وأعلنوا عدم رغبتهم في السفر، وطالبوا بحقوقهم لدى شركة دريم، وهي أحد عشر ألف جنيه، دفعها كل واحدٍ منهم من باع حُليَّ امرأته، ومنهم من استدان، أو أخذ على نفسه إيصالات أمانة، فهَدَّأهم بنبرة الواثق:

"ما دفعتموه سأتولى- وأنا أعلم كيف - أرده إليكم كاملًا، لكن يجب أن تطيعوني فيما آمركم به، اذهبوا إلى مديرية الأمن، قسم إدارة مكافحة جرائم الأموال العامة وحَرِّروا محاضر بالواقعة ضد الشركة ثم عودوا إليَّ. وأرسل في طلب والد صاحب الشركة"، وكان ابْنُهُ قد وعد أن جميع أموال الشباب سَتردُّ إليهم وأن أباه من ملاك الأرض، وأكد له تليفونيًا: يا أستاذ مجاهد، أنا ملتزم أمام سيادتك بذلك، أنا لم أخلف مع سيادتك من قبل وعدًا، أنا متوجه الآن إلى المستشار العمالي المصري هنا ليساعدني في حل هذه المشكلة، أو استرداد ما دفعته للشركة الإماراتية واستدعى أبو محسن. فأعلم والده:

"يا حاج إبراهيم هؤلاء الشباب لا ذنب لهم" وليحُضَّه على طاعته تابع: "للأمانة، هؤلاء الشباب قاموا بتحرير محاضر في مديرية الأمن ضد شركة دريم، وضد ابنك محسن بصفته المدير المسئول، وهم على استعداد جميعًا، للتنازل متى ردت إليهم أموالُهُم، وللعلم لو لم نُعَجلْ بالحل الودي سيقبض على ابنك محسن في المطار، وأنا حتى هذه اللحظة لم أتخذ أي إجراء قانوني ضد الشركة وهو قاسٍ، ولم أرسل بالواقعة إلى الوزارة، فما رأيك؟" أعلم الجميع:

"ليس لي مصلحة في الموضوع، إلا رَدّ أموال الشباب إليهم، والابقاء على شركة دريم، والمحافظة على سمعة الأخ محسن" فضَرَعَ إليه الأب:

"يا شيخ مجاهد أنت رجل تعرف ربنا، لا تحب الضرر، لكن المبلغ الذي سألتني كبير، أعطيني شهرًا مهلةً أدبر فيه حالي"

قال: "يكفيك أسْبوعٌ؟"

"لا، سيادتُك تمهلني شهرًا"

"يا حاج إبراهيم، شَهْرٌ كثيرٌ، معك عشرة أيامٍ تدبر فيها حالك"

وفي الميعاد أقبل الرجل- عِملاقٌ من أهل الريف القدماء الذين يوفون بالعهد- أقبل مُعتذرًا، معه ثلث المبلغ المستحق يطلب مهلة إضافية حتى يقبض باقي ثمن نصف فدان أرض باعه؛ ولأنه كان قد حضر مع الشباب المضار زوجان من المحامين، كتبوا وثيقة تقضي برد أموال الشباب على ثلاث دفعات، دفعة أولى تسلموها بالفعل في ٢٠٠٧/١/١٥ والثانية ١٥فبراير، أما الثالثة في ١٥مارس.

فلم يكذب المستشار العمالي بدولة الإمارات خبرًا؛ بعث إلى المديرية بعد يومين فقط من تسليم الدفعة الأولى للمواطنين فاكساً مفاده: أن المواطن، أشرف كمال،

تقدم بشكوى للمكتب العمالي كتبت هكذا، بأبو ظبي، رغم وجود حرف الجر، ضد شركة دريم لإلحاق العمالة؛ لأنها حصلت منه على مبلغ ١٠٠٦٠ جنيهًا مصريًا، نظير إلحاقه للعمل في مهنة حارس أمن في شركة حراسات الأمن بدولة الإمارات، وعند استلامه العمل تبين له عدم التزام جهة عمله بالإمارات ببنود العقد المبرم بينهما مما سيؤدي إلى إلغاء إقامته وعودته إلى مصر، يُرجى من سيادتكم التنبيه نحو إدراج اسم المواطن ضمن المواطنين الذين يطالبون شركة دريم بأموالهم.

فَحَوَّلَ مدير المديرية الأمر بِرُمَّتِهِ، وكتب، هام وعاجل، يورد، إدارة الاستخدام الخارجي، فغضب مجاهد غضبًا شديدًا من سيادته، ومن خلال موبايل أحد الشباب المتضرر اتصل به:

"الأستاذ فلان، المستشار العمالي بدولة الإمارات؟"

"نعم"

"معك، مجاهد منصور؛ مدير إدارة الاستخدام الخارجي بمديرية كذا"

أجاب: "مرحبًا بك"

"وصلنا الفاكس خاصة المواطن، أشرف كمال، وذَكَرْتَ أن المواطن عند استلامه العمل تبين عدم التزام جهة عمله بالإمارات بشهادة لمن يهمه الأمر المعتمدة من سيادتك، ودفعت شركة إلحاق العمالة ٢٦٠ ألف درهم للشركة الإماراتية ثمنًا لهذه التأشيرات، فحاول- سيادتك -استرداد ما دفعه المواطن من الشركة الإماراتية عندك، وما بقي له طرف شركة دريم، نتولى إدراجه في كشوف التسوية التي أقوم بها. وكأنَّه كفر؛ ردَّ سيادته مُستنكِفًا:

"أتأمرني؛ المفروض أن أخاطب الوزارة فخاطبت المديرية، أنت لن تعلمني شغلي" فاسْتُفزَّ مجاهد جداً، غير أنه قال في هدوء ومكر:

"إذًا أعرض مذكرة بالموضوع على معالي الوزيرة."

فأغرب سيادتُهُ:

"أنا لا أخشى الوزيرة، ولا حتى رئيس الجمهورية"

فأرسل مجاهد، بعد التحية، مذكرة للعرض على معالي الوزيرة، الموضوع، المستشار العمالي ودوره بدولة مقر العمل بالخارج، العرض، وكظم غيظه، ولم يذكر سوء أدبه وقوله الذي قال، حتى لا يُظْهرَ خصومةً وأنه يحرض عليه، والرأي طبقًا لما ورد في محضر أقوال مدير شركة دريم لإلحاق العمالة، أن سعادة المستشار العمالي ذكر أنه ليس من اختصاصه حل المشاكل التي تنشأ للعمالة المصرية بدولة مقر العمل، وأن دوره قاصرًا فقط على اعتماد الطلبيات وشهادات لمن يهمه الأمر لإتاحة الفرصة للنشر في وسائل الإعلان المختلفة بعد اعتماد سيادته. ثانيًا: أن سيادته يعتبر شهادة لمن يهمه الأمر بديلًا عن عقد العمل، على الرغم من أنه يُنَصُ في هذه الشهادة صراحةً (وقد أُعْطِيتْ هذه الشهادة بناءً على طلب صاحبها دون تحمل الشركة أي مسئولية تجاه الغير) ممّا يجعلُ العمالة المصرية بالخارجِ عاريةً تمامًا عن الحمايةِ، وأن دور المستشار العمالي كما حدد سيادته آنفًا يعتبرُ دورًا غير فاعلٍ.

تحريرًا في ٢٠٠٧/٢/١٢

* * *

"قاتلكِ اللهُ " تلاسنَ مجاهد والزوجة وَتلاحَقَتَ المطايا، فاشتبكا بالأيدي وارتفع صوتهما وانتهت الواقعة بالضرب، فالرجل غالب ولو كان عظمًا في قُفَّة، وَكَرِه فِعْلَه فتابع كالمعتذر:

"أسْمَعْتِ بنا الخَلْقَ" فألحقت به:

"لن أدعك تخرج، طلقني"، وقالت تبكي:

"بعدما مدَدت يدك لن أعيش معك دقيقةً واحدة بعد الآن"

وكان أكثر ما أحْزَنَه، اضطراره إيذائها، وإسْماعُ الجيران، وهم دونهما علمًا ولم يَسْمعا بهما يومًا. فخرج إلى المسجد فأدركه أخوه فمشى إلى جواره وبدا حَرِجًا، وكان يقطن الدور الثالث فوقه وتقطن أمهما الدور الأول تحتهما، فقال في نفسه: أكيد سَمِعَا. فآثرت أمه السلامة فلم تصعد إليه، وقال أخوه يتَحَسَّسُ:

"كيف الحال؟" فتحدث بصبر نافد:

"هذه؛ تريد أن تمشي." فصمت أخوه، فأردف كأنه يحرضه على الإصلاح:

"تقول طلقني، وأنا زهقت." فتحدث أخوه في رفق:

"نَصْبِر يا حَاج؛ ونظر إليه مُبتسمًا، ما أنت عارف، ناقصاتُ عقلٍ ودينٍ" وعاد إلى الصمت، فحرضه على التدخل:

"إن أردت أن تأتي وزوجتك للإصلاح فآتني".. فجاءا وتحدثت زوجة أخيه:

"ماذا يا جماعة، هل حُسِدتُّم" فرَقَّ:

"سلوها؟ " فتوجهت بالحديث إلى الضَّيْفَيْنِ دونه:

"يُطَلِّقْنِي" فضحكت زوجة أخيه:

"كبرنا على الأشياء هذه يا حاجة أميرة"

قالت:

"أنا كرهت العيشة هذه. وألمحت، وما يُصَبِّرُني. فاستفزه تعريضها أنهما بلا ولد فقال يُحذِّرُ:

"هذه هي المرة الأخيرة، بعدها بلا رجعة، فالتفتت إليه في عناد:

"طلقني؟" فتحدث في رصانة:

"شاوري أهلك، فلا يقولون ظلَمْتُكِ."

"ما لك دعوة بأهْلي، أنا من أقول لك، طلقني؟"

"ما فيها مشكلة؛ اتصلي بهم يأتون يأخذون الجهاز"

فقالت زوجة أخيه:

"صلوا على النبي يا جماعة"

"عليه الصلاة والسلام"، ردَّد أخوه في صوت خفيض، فانفطرت تبكي:

"أنا هـ طَقّْ، أعيش بين أربع جداران، أشعر أني ليس لي فائدة" وأردفت تلومه أمامهما:

"ليس عنده إلا الكتب، والدُّروس، والخُطَب." فَضَحِكَ:

"وهذا ما أُجيده." فانتقدته:

"يا شيخ؛ اعمل بما تقوله أولًا"

فقال يَحُثُّها إلى ما أحالت إليه:

"وأنت عندك دروسك للنساء بالمسجد" فهددت:

"لنْ أقبل دروسًا بعد اليوم، ولن أذهب إلى المسجد"

"مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ " فضحكت زوج أخيه تحرض على الحب:

"انظُرْنا يا حاج فلان؟" فخَفِضَ جَناحَه:

"ليس عندي مانع، تحدد هِيَ يومًا للراحة من كل أسبوع ألتزم به" "شبعنا من هذا الكلام، الزوجة، أنت أحسن منْ يُخلُّ بالاتفاق، هو أسبوع وترجع ريمة لعادتها القديمة"

فتعهد بالسبت من كل أسبوع يومًا للراحة، فاشترطت ألا يمسك فيه كتابًا.

ولما أقبلت بنات أخته- اللائي يُحبُّهن ويُحبُونه، بتحريض من الوالدة- للاطمئنان، وأحْيَيْن فكرة إنشاء حضانة للأطفال. وسَعَيْن ناشطات يفتشن عن مكان بالقرية يصلح للإنشاء، فأعْياهن البحثُ، فجميع الدور بالقرية، للأسف، بلا فناء بل مرصوصة رصًّا جنبًا إلى جنب، حجرتان بمنافعهما أو ثلاثة على أقصى تقدير، ويشترط للحضانة فناء واسع للعب الأطفال. فوقع تعارف بينه وبين أحد موظفي مديرية التضامن الاجتماعي عَقِب درس له في مسجد التوحيد بسلامون؛ فابتسم يسأله المعونة:

"يا أخي العزيز، أنتم في مديرية التضامن تشترطون أشياءً معجزة لإنشاء حضانة أطفال، ثلاث غرف- على الأقل- ودورتي مياه، وفناءً واسعًا، وهذا مستحيل أن

تجده في الريف، فالدور مرصوصة رَصًّا رصًّا كل جدار لجار، من الضيق، يريد أن يُزَحْزِحَ جدار جاره! فسأل موظفُ التضامن:

"أعندكم في القرية مدارس؟"

قال:

"لا مدارس، ولا حضانة، وأقرب مدرسة بيننا وبينها مسافة كيلو متر وزوج من الكباري لعبور المركبات وفيه خطورة على الأطفال."

قال:

"اجمع توقيعات من الأهالي، أن القرية في حاجة ماسة إلى إنشاء حضانة أطفال، وأنَّه ليس لديكم أية مدارس، وربك يسهل بالباقي"

فرجعن للنشاط بنات الأخت وطُفْنَ يجمعن التوقيعات في حفاوة:

"امض لنا هنا يا خال فلان؟"

فسألهن:

"وأية ورقة هذه؟" فابتسمن مبشرات:

"هـ نعمل هنا حضانة، وأومأت إلى الدور الأول من البيت، الذي تقطنه الوالدة؛ فسأل مُسْتَغْرِبًا:

"لم يعلمنا أحدٌ بهذا."

قُلْنَ:

"الحضانة شيء طيب جدًا يا خال، يا خال امض، سنعمل فيها مع امرأة خالي مجاهد، امض بالله لأجل ما نذهب نِمَضّي باقي الأهالي؟" وكُنَّ قد استوقفنه أمام الباب قبل أن يدخل، فنظر في الأسماء المكتوبة على الطلب بإنشاء حضانة، فقرأ أسماء أبناء عمه وأسماء الجيران، وأسماء كثيرة، فأخذ القلم يمضي، ويسأل:

"وأين ستقيم الحاجة؟"

"الحاجة ستقيم في البيت الثاني؛ بيت البنات." وهو نصيب أخواته البنات من تركة الوالد، أما هذه الدار فقَسْمُهُ وقَسْمُ أخيه مناصفةً، وتنازلت الوالدة الكريمة للجميع عن حقها في الورث على أن يظل هذا الدور الأرضي مسكنها ما دامت حَيَّةً، يعود إليه وإلى أخيه بعد الوفاة مناصفةً، فعاد يسأل:

"لمْ نعرفْ، لم يقل لنا أحد بهذا" لم يكن اعتراضه واضحًا.

فلما لقيه مجاهد ووجد منه غضاضةً قال معتذرًا إليه:

"والله يا أخي، لم تتح لي فرصة لأفاتحك، أرجع من العمل فأنام، وتذهب أنت بعد العصر لدروسك فلا ترجع إلا منتصف الليل، وأكون أنا قد نمت، فلا أقابلك" وأردف:

"بنات أختك أصحاب الفكرة، وأنا أعرف أن مصلحتنا واحدة، وإلا انتظرت لأفاتحك قبل أن أبدأ في أي إجراء"

فَمَكثَ وامرأته، وأبناؤه، فترة تجهيز المكان للحضانة يجوزون المدخل؛ يمُرُّونَ سراعًا يلقون السلام أحيانًا، وأحيانًا لا يلقونه، لا يتوقف منهم أحدٌ أبدًا، فيسأل معونة. فقال مجاهد لبنات أخته:

"يبدو لي أن شيئًا ما في نفس خالكم فلان، وزوجته، وأبنائه من موضوع الحضانة."

فأقسمن عليه:

"بالله يا خال، كلمه مرة ثانية؟" فقالت زوج أخيه:

"كُنّا آخر من يعلم."

قال:

"كيف؛ وأنتم من سعى للإصلاح بيننا، ومشكلة الزوجة كانت معروضةً أمامكم، وتصرفْنا لِعلمنا أن المصلحة واحدة. وعاجلًا أو آجلًا كنا سنفاتحكم."

ودلل على حسن النوايا:

"الجلسة التي أعقدها يوم الجمعة للناس منذ سنين هنا في بيتي ما فكرت فيها إلا من أجل أخي وأبنائه. وكم كانت فرحتي بنتيجة الولدين في الثانوية حين جريا ورائي بعد صلاة الفجر يبشرانني بالنتيجة وبالمجموع. والله كنت أحمل هَمَّهُما، ولم أنسهم يومًا بالدعاء، واستطرد في إعزاز خاشعًا وهو لا يعلم أنها ستكون القشة التي تقسم ظهر البعير:

"وكم دعوت لابنكم فلانٍ لمَّا سارع بالمسجد قبل أن انْحَنِيَ على الحذاء ليناولني إياه، استشعرت به، رغم حداثة سنه، فَهْمانًا مُحبًا لعمه، وفرحت أن بات لديه مِيزانًا صَحيحًا يَزِن به قدر الناس" فذهب حديثه بلا فائدة. وسألته الزوجة مُنْكرة:

"ألم يستخدم أخوك الدور الأرضي سنوات في إعطاء الدروس للطلبة ولم تطالبهم يومًا بحقنا في المكان؟"

أجاب:

"أنا لم أفكر أبدًا في هذا. وأوصاها بزوجة أخيه، وأن تصعد إليها فتدعوها، فتسألها المشورة قبل الافتتاح من باب النصيحة والإكرام. إلا أنها ظلت تصعد وتهبط لاوِيةً رأسها لا تلتفت ولا تسلم، فقال لزوجته من باب إصلاح ذات البَيْن:

"إذا قابلتيها قولي، أنت طالعه ونازله علينا في الحضانة، لا سلام ولا كلام، ماذا جرى؟" فأسرعت في غضب:

"ولِمَ أَلْتَفِتُ، وأَلْتَفِتُ لِمَ؟"

كانت قد استوقفتها في الطريق لتعرف منها، فماذا يفعل المضطر إلى خصمه إلا السَّعي للتراضي. فوَّضَ مُجاهِدُ إحدى بنات أخته للشأن:

"قابلي خالك فقولي له، إن كنت تعتقد أن خالي قد بخسك حقاً فاختر من شئت يُعَدُ تقييم إيجار الدور الأرضي، والدور الرابع السطح، ولو وُجَدَ لك حقًا عنده أعطاكاه، وإن شئت خلصك في الدور الأرضي، ويبقى الدور الثالث، وسطح الرابع خاصتك وبنيك، فأجابها:

"أنا أعترف أني مدين له بإيجار السطح، وهو دين له في ذمتي" وكان قد انقطع الحديث المباشر بينهما، وقام أخوه باستكمال بناء حجرة بالمنافع كانت بالسطح أنشأها الوالد قبل موته، وحزن في نفسه؛ أن أخاه الأصغر تعمد ألا يُشاوره.

ولمَّا أن أراد أن يأخذ مكتبة خشب كانت بالدور الأرضي تعلقت بها الزوجة، والنساء يتعلقن بالخُرْدَة:

"أخوك أخذ ضلفتين من المكتبة طَلَّعَهما فوق"

"دعيه يأخذها"

فاحتجت:

"أليست لك. أحتاجها لحفظ متعلق الأطفال وحاجيات الحضانة."

"أَشتري لَكِ جديدة"

"ولِمَ نشتري وهي عندنا؛ ألمْ تقل إنك بعثت له فلوس من العراق فعمل السرير وهذه المكتبة".. فسأل أخاه من باب المعاتبة فقط:

"أخذت ضلفتين من دولاب المكتبة؟"

"نعم"

" ألا تسأل؛ هل تخصك أم لا؟"

"وهل تخصك" ردَّ أخوه بلغة خشنة

قال:

"نعم، أرسلت لك وأنا بالعراق، فَعَمِلتَ سريرًا لننام عليه، وهذه المكتبة" فاستمر أخوه في لغته الخشنة:

"أنا لا أريد شيئًا ليس حقًا لي"

فغضب فزجره، وكان يحذر لذلك:

"إذًا اطلع فأت بها" فمكث صَامتًا، وكان يعلم أنه لن يقدر أن يأته بها لو أراد، فمضى أسفًا، وتركه واقفًا في الشارع ينظر إلى الأرض.

* * *

في مصر عدم استجابة الأعلى للأدنى من دواعي الأُبَّهة ومن بروتوكول وظيفة وزير، حتى آمن الناس، أن المياه لا تطلع العالي، وهذا ما أَبَى مجاهدٌ أن يُقِرَّ به.

بَعَثَ إلى الوزيرة مرة، تلو مرة، تلو مرة:

نتشرف بأن نبعث لكم رفق هذا مذكرة للعرض على معالي فلانة، وزيرة القوى العمالة والهجرة، بخصوص نموذج استرشادي تم تصميمه من قبلنا لمندوبي مديريات القوى العمالة بمكاتب تصاريح العمل.

وبعث: نرسل إليكم رفق هذا، مذكرة للعرض على معالي الأستاذة فلانة، وزيرة القوى العمالة بخصوص دراسة ميدانية وقانونية، قامت بها مديرية القوى العمالة، إدارة الاستخدام الخارجي، بشأن مشاكل التطبيق العملي والمعوقات التي تواجه شركات إلحاق العمالة المصرية بالخارج ومقترحات علاجها.

وبعث: نرسل لكم رفق هذا مذكرة للعرض على معالي السيدة فلانة، وزيرة القوى العمالة والهجرة بشأن قيام بعض الشركات بنقل مقرها من محافظة إلى أخرى، هروبًا من مخالفات مالية وقانونية، ومقترحاتنا في سد هذه الثغرة. إحدى عشرة مذكرة لمعاليها، مرشحة للزيادة في المستقبل، ولم يَيْأس إذ لم تَرد الوزيرة.

فلمّا نما إلى علمه أنها قادمة غدًا للدقهلية بشأن اعتصام طال للعاملين بإحدى شركات قطاع الأعمال التي تم خَصْخَصَتُها، فشلت المديرية في فضه، فَوَفَدت معاليها للتفاوض مع العمال، فعكف مجاهد على الإحدى عشرة مذكرة التي أَرْسِلَتْ لمعاليها متتابعة، فجعلها في ملفٍ واحد وعزم الأمر قطعًا للشك، أن يُسَلِمَهُ لمعاليها يدًا بيد، ولم يستأذن مدير المديرية في الشأن. ومن حسن الطالع أن الوزيرة لمَّا حضرت لم توافق حضور المحافظ كما كان مُعَدًا سلفًا؛ هرول سيادته ليرافق أمين عام السياسات بالحزب الوطني السيد جمال مبارك الذي قدم فجأة في

لفيف من الوزراء لافتتاح إحدى الطُّرق السريعة، فوجدت معاليها فرصة لقبول الدعوة المرفوعة لسيادتها لتشرِّفَ بزيارتها مديرية القوى العاملة والهجرة.

ومن الدور الأرضي حيث ديوان عام المحافظة، إلى الدور الرابع حيث ديوان المديرية فُرِشَ البِسَاطُ من بداية مسعى معاليه إلى منتهاه، واصطف العاملون على جانبيه للترحاب، تحْذُوهم الأمانيُّ في شهر مكافأة يخرجون به من هذه الزيارة. الوحيد الذي وقف مشغولاً بغير هذا الشأنِ مجاهد، يتفحصها وهي تسعى في بذتها الرجالي كعملاقٍ يهرولن في عَقبيها القيادات النسائية بالوزارة، وعلى جانبيها يهرعان حفيان بها مدير المديرية ووكيلها. بَيْدَ أن مجاهد حمل المِلفَّ الذي يشغله شأنه، ظاهرًا، لم يحاول اخفاءه. فلما عَرَجت سَريعًا إلى قاعة مكتب مدير المديرية دَلَفَ في إثرها، فلمح مدير المديرية الملف:

"بَلاش، يا شيخ مجاهد" فأعرض عنه نكدًا فلم يجبه، فراح يهيب به: " ليس وقته يا شيخ مجاهد." فلم يسمعْ له.

وأشادت معاليها بالنشاط الملحوظ لمدير المديرية، وتمنت له التوفيق، وكَبْكَبَ الموظفون ينصتون إلي كلمتها المرتجلة القصيرة:

"طبعًا عاوزين حاجة بمناسبة الزيارة، والتفتت تخاطب مدير المديرية المتنحي جانب مكتبه لتشغله معاليها، وقالت بنبرة آمره:

"جهزوا كشفوف بالأسماء، وحددوا المبلغ، وتعالوا خذوا الموافقة بالاعتماد مِنِّي في الوزارة."

فَصَفَّقَ الحاضرون في سعادة، وفَكَّرَ مجاهد في نفسه: لو أن مارجريت تاتشر خرجت على تليفزيون لندن وقالت سأعطي جميع العاملين بالدولة خمسة عشر يومًا لقيل لها: مرحىَ مرحىَ، إما أن تعطي من جيب أبيكِ أو هَلُمِّ إلى السجن.

ولأن أكثر من حضرنَّ نسوةٌ زَغْرَدْن؛ فنهضت معاليها؛ فتقدم إليها مجاهد قبل أن تترك المكتب:

"معاليكِ، هذا ملف به إحدى عشرة مذكرةً سبق أن أرسلت بها إلى الوزارة، كلها بخصوص معوقات نشاط إلحاق العمالة المصرية بالخارج ومقترحات علاجها، فلم أتلقَ ردًّا." فَحَفِيت به، ومدت يدها فأخذت الملف، وحاولت التفكر:

"أعرف أنك لقيتني في الوزارة" فأسرع مدير المديرية مُلَقنًا:

"معاليكِ الشيخ مجاهد مدير إدارة الاستخدام الخارجي من المديرين الأكفاء." قالت:

"سأتولى بنفسي النظر فيه" وناولت الملف للقيادة الوزارية المرافقة.

وصبيحة اليوم التالي أَرْسَلَ وكيل المديرية عاجلًا في طلبه:

"ماذا يا فلان، هل أنت تعمل برأسك، مكاتب العمل تحت عاملها مديرية قوى عاملة خاصة بك، ألم نحذركْ، ليس شُغْلُكَ أن تتقدم بشيء إلى الوزيرة.

قال:

"الملف صُوَرٌ لمذكرات موقع عليها من مدير المديرية أرسلت من قبل للوزارة، وتابع، مشاكل لإلحاق العمالة المصرية بالخارج ومقترحات علاجها، رفضتم أنتم مجرد الاستعلام عن مصيرها" وخَلَّفَه غاضبًا وأقبل مباشرةً إلى السيد وكيل الوزارة:

"سيادتك وكيل المديرية نتعامل معه باحترام، وهو يتعمد إهانتي، أناديه سيادتك، يا أستاذ فلان، وهو يصيح يبكتني أمام العمال ماذا يا فلان؟ لو ناداني مرة ثانية كذلك، سأناديه أنا أيضًا كذلك.

"يا شيخ مجاهد، أنا رجوتك ألا تتقدم بالملف لمعالي الوزيرة، قلت: بلاش يا شيخ مجاهد، ليس وقته يا شيخ مجاهد"

"يا ريس هذه مُعوقات ومشاكل بادرنا بتقديم مقترحات لعلاجها، وهذا يعطينا الريادة والسبق، لايُعيبُنا."

فتكلم الرجل في نبرة صدق ومودة:

"وهل أنت معتقد أن معاليها ستقرأ الملف، هي فاضية إلا للظهور في القنوات الفضائية، ناهيك عن اجتماعات مجلس الشعب ومجلس الشورى واجتماعات الحزب، أرِحْ رأْسكَ."

فمكث يحدوه الأمل في تحريك الماء الراكد خاصة بعد أن حقق نجاحًا في مشروع الصرف الصحي بالقرية، وإن لم يكتمل المشروع بعد، حصلوا على موافقة بالتمويل مقدارها ثلاثمائة وثلاثون ألف جنيه من صندوق الطوارئ بالمحافظة بموجبها ينفذ المشروع على مرحلتين، وَطُرِحَ المشروع للمناقصة العامة.

وطوال فترة الإجراءات التي مكثت أكثر من ستة أشهر ظل فرد الإخوان مُرجفًا أن الأمر لا يعدو كونه دعاية انتخابية لمبارك، حتى بعد أن بدأ فعليًا تنفيذ المشروع، فوقف عقب إحدى الصلوات مُهيبًا بالمصلين الخروج للإدلاء بأصواتهم ومُذكِّرًا، أن الرئيس الحالي في حكم الناجح كما تعلمون، يتوجب على القرية السعي في مصالحها، لقد أعطينا عضو مجلس الشعب للحزب الوطني الذي جاء بتأشيرة التمويل من المحافظ وعدًا بالخروج للانتخابات، ولم يسْتخْدِم عبارة، التصويت لمبارك، فاستمر عضو جماعة الإخوان في بعض الأشخاص مُرجفًا عليه، فقال مجاهد للشخص الناقل للإرجاف:

"مشروع الصرف الصحي للقرية طرح للمناقصة العامة، وهناك عطاءٌ قد رسي على أحد المقاولين، والتنفيذ يقع قريبًا" فوقف الشخص خذلانًا لا يدري ما يقول. للأسف؛ كان قريبًا له؛ فاستطرد يستدرجه:

"غدًا سيحملك أخي في سيارته الخاصة لتذهبا معًا إلى حي غرب- الإدارة الهندسية- لتطلع بنفسك، الموضوع ليس ادعاء ولا من باب الدعاية الانتخابية لمبارك، نحن نسعى في مصلحة القرية فقط، والمشروع فعلا قيد التنفيذ"

ومن باب إصلاح ذات البين قال لأخية لمّا جاءه يطلب إليه تحْدِيدَ إيجارًا للحجرة بمنافعها التي بناها لبنيه في الدور الرابع، بعد إنشاء الحضانة:

"ما كنت لآخذ أجرةً من ابْنَيَّ أخي في مَوْضِعٍ يحتاجانه للإقامة، وحضّه للشأن العام، وتابع، وحتى لا يزوغ منك عمك فلان، اتَّفِقْ معه في صلاة الفجر على ساعة الذهاب للحي والتزمه، فلا تتأخر عنه حتى لا تعطيه الحُجَّةَ علينا، فأجابه أخوه.

وأراد متى اطلع قريبهما هذا على الحقيقة أن يكسبه في صفه، ويقلبه على عضو الإخوان، أو على الأقل أن يكفَّ عن الإرجاف، فلمّا تأخر عن الحضور حسبما اتفقوا، وذهب أخوه في طلبه، رجع يقول:

"يا عم، كلها دعاية لانتخاب مبارك"

ورفض الذهاب مع أخيه للحي، ونما إلى علمه، أن فرد الإخوان عرف باللقاء، فلزم أذني الشخص عينه- وكان يعرفه خفيفًا، رُبْعِ متعلمٍ، فمكث يتودد إليه وينفخ فيه، حتى أثناه عن الذهاب للحي- فمر به، وعضو الإخوان أمام المسجد لا يزال ينفث فيه من سَمَّه، فرماه بنظرة استصغار، ومر ولم يلق إليه سلامًا، وكان هذا إيذانًا منه بالمقاطعة لشخص هو ابن عم أبيه.

ولم يكتف فرد الإخوان؛ حَرَّضَ شابًا من القرية المجاورة، بزعم أن المشروع يمر بطريق، هو رأس حقله، ملكية خاصة، فوقف الشاب أمام الحَفَّار، وطلب النجدة، وحَرَّضَ الأهالي، وكان مقاول المشروع قد بدأ تنفيذه، فوقفوا له جميعًا، وكان مُقررًا للمشروع الذهاب بخط الصرف ليصب في بئر لهذه القرية تمَّ إنشاؤه بالجهود الذاتية، ثم يعود الصرف، صرف القريتين، فيخرج من هذا البئر ليصب في المصرف الكبير الممتد خلف الحقول سائرًا جهة المشرق إلى أمدٍ غير معروف. ولأن ملكية البئر آلت بعد عمله للهيئة العامة للصرف الصحي، ولم يعد من حق هؤلاء منع أحد من الصرف فيه رُوَّجَ أنه لن يستوعب صرف القريتين، وأن قريتهم، صغرى القريتين هي من تضار، ووجد المقاول نفسه أمام قرية بأكملها دون حماية أمنية. فلاذوا بـرئيس القطاع:

"سيادتك المقاول توقف عن الحفر، وسحب معداته من الموقع، ولا توجد متابعة للمشروع من المهندس المختص، وتَرَكنا الحيّ وجهًا لوجه مع المقاول الذي يخشى اعتداء الأهالي، نؤكد، لسيادتك، أنَّا حَصَلْنا على توقيعات بالموافقة، على مرور خط الصرف بهذا الطريق من جميع الأهالي الواقعة أراضيهم في هذا الزمام، وأغلبهم من قريتنا، وهذا الأخ الذي وقف للمقاول من القرية المجاورة هو أَحد ورثة، قام أخوه الأكبر بالتوقيع لنا، سيادتك، وهذا الطريق ذاته يمر به الصرف الصحي لتلك القرية، برجاء استدعاء الشرطة لتأمين عمل المقاول."

فتمَّ مخاطبة الشرطة، فرد مأمور القسم، أنهم بصدد عمل دراسة أمنية، فتوقف تنفيذ المشروع إلى أجل غير مسمى.

والمضحك والمحزن معًا، أن لكل شخص يعمل بالحكومة أو لا يعمل بها ملفًا في جهاز أمن الدولة، وكأن كل مصري بات يبيت لمصر الشر لأنهم أمسوا فجأة، ليسوا مصريين، وإن تعجب، فعجبٌ أن الناس باتوا يتوافقون مع الشأن هذا؛

يسرع أَخٌ يريد أن يُعَيَّنَ إمامًا وخطيبًا في إظهار أنه ليس له في الالتزام بالطَّاعة ليجتاز العَقَبَـة، فسأل مجاهدٌ الأخ وقد أصبح حليقًا وكان ذا لحية:

"حَلَقْتَها لِمَ، وتركت الشارب؟"

"أو لمْ نُؤمرْ بقصِّ الشارب وإعفاء اللحَية؟"

قال:

"تقدمت لمسابقة للدعاة بالأوقاف ونجحت في الاختبار، ويَجري الآن التَحرِّي عنِّي. أنا الآن أحرص على الجلوس على القهوة ولعب الدمونو" فَكَرِهَ مجاهد من هذا النفاق، وهَّم بالانصراف، فاستوقفه الأخ ليقسم له:

"والله؛ إنِّي مُحبٌّ للسُّنَّة، كل ما أرجوه ألا يأتي التَّحري عني بالرفض أو مُتأخِّراً" فقال في نفسه: أَيَّ نوعٍ من المسلمين سَيخْرِجه هذا.

أمسى كُلُّ من يريد أن يكون رئيسًا لتحريرِ جريدة قومية أو رئيس جامعة أو نقابي أو عميدًا لكلية، أو مُفتيًا للديار المصرية أو شيخًا للأزهر أن يوقن أن رضى جهاز أمن الدولة من رضى الحاكم، وكان العاملون في جهاز أمن الدولة على قناعة تامة أنهم الحُكَّام الحقيقيون لمصر وسادات زمانهم، قناعة تعلمها مجاهد بعد الذي سمعته أذناه، ووعاه قلبه، إذ وافق وجوده عند قيادة كبيرةٍ من قيادات هذا الجهاز، وكان قد استدعى بصفته الوظيفية كمَسؤول مُباشرٍ لشركات إلحاق العمالة المصرية بالخارج بالمحافظة، فاسْتُدعِيَ للبحث في أسباب الهجرة غير الشرعيـة، وقضية عدم الانتماء التي تدفع المواطن المصري إلى الإلقاء بنفسه بـقارب صغير في عرض البحر عبر شواطئ ليبيا، وهو يعرف أنه مُحتملٌ جدًا ألا يصل إلى الشاطئ الآخر، وإن ينجو فمُحتملٌ جدًا القبض عليه من حرس الشاطئ للدولة الأجنبية أو من البوليس الداخلي، عندها سيسجن أو سَيُعاد ترحيله

إلى مصر التي فَرَّ منها، وهو هالك أيضًا بعودته بهذه الطريقة؛ لأنه سيخسر مبلغًا كبيرًا جمعه، جُزءًا منه نقدًا، والباقي إيصالات أمانة أخذها على نفسه يتوجب سدادها، تُقَدَّرُ بخمسة وستين ألف جنيه، وبالتأكيد وقد عاد بهذه الطريقة، هو عاجز عن السداد.

فقال للضابط الكبير:

"فقدان الأمل في المستقبل، وشَهْوِة الغنى السريع التي سادت المجتمع أو الفكاك من الفقر، يجعل الناس تكرر التجربة، رغم ما يشاهدونه ويسمعونه في وسائل الإعلان أن أغلب من سبقوهم غَرِقوا أو سُجنوا بعد القُبِض عليهم أو عادوا إلى مصر ترحيلًا، ولكن نجاح حالة واحدة للمسافرين عبر البحر، وظهور أثر الغنى عليه في قريته يُنْسي هؤلاء أو يتناسون ذلك، فيكررون التجربة، واستطرد؛ أمَّا ضَعُفَ الانتماء، فسببه أن المواطن أصبح مهاناً، يشعر بالغربة في بلده، وقص للضابط شاهدًا لذلك، هرول جندي الخدمة شاهرًا عليَّ سلاحه بمجرد أن أبطأت لأقف بالسيارة في الرصيف الفسيح الخالي أمام مبنى الجهاز ونَهْرني. فقلت له:

"يا ابني، أنا طالع للعميد شبراوي، وهو من أرسل إليَّ للإعانة في دراسة مطلوبة عن الهجرة غير الشرعية، فَزمجر شاهرًا عليَّ سلاحه:

"ممنوع الوقوف هنا"

"يا ابني أين أذهب؛ والمكان هنا خالٍ، والوقت ليلًا، وسياجًا طويلا ضُرِبَ قبل هذا المبنى وبعده؟"

"فاضَطررت إلى السير إلى مكان بعيدٍ للغاية، ولمّا رجعت، ومن طول ما قطعت من المسافة على قدميَّ، ظننت أنني ضللت الطريق إلى الباب"

فأجاب الضابط الكبير:

"جندي جاهل لم يحسن التصرف"

فتشجَّع لجو الود فأبدى رأيه:

"الجندي لا يتصرف من رأسه، هي أوامركم التي صدرت إليه" فَاصطَنَّعَ ضابط أمن الدولة غضبًا، واسْتدعى عبارةً تهديدية يجيدونها:

"لا، ه تزعلنا منك." فتغافل تهديده وأظهر ثباتًا، وحدَّث يُثبِّتُ فؤاده: هم يعرفون، لَيْسَ تهديدهم يُخِيفُك، هذا يقصد مِزاحًا" وكان لا يأمن جانب ضابط الشرطة، ولا وكيل النيابة، ولو كان أخاً له، واسترسل سائلًا الضابط:

"أتريد عرض المشكلة دون مواربة أم أن الأمر لا يعدو كونه تتمَّة لأوراق ترفع لجهة عُليا؟"

قال:

"لا، ليس الأمر مجرد تتمَّة أوراق، نريد الحقيقة"

هنالك أفاض يبيِّنُ: من الواقع العملي والمتابعة الميدانية، شركات إلحاق العمالة المصرية بالخارج لا تقوم بتقديم أغلب ما يرد إليها من طلبيات من أصحاب الأعمال بالخارج إلى مديريات القوى العاملة للتسجيل والمراجعة، ويذهب أغلب من يسافر للعمل بالخارج دون عقد عمل معتمد، وبمناقشة أصحاب هذه الشركات عن الأسباب أجابوا: الادارة العامة لمصلحة الضرائب، تقوم بالتقدير الجزافي للضرائب المفروضة علينا أضعافًا مُضاعفة، وتطالبنا بها دون الالتزام بالمبالغ المسجلة بالدفاتر التي حددها القانون وهي نسبة الـــ ٢% من راتب العامل عن السنة الأولى. قال: فأطراف المشكلة ثلاثة: وزارة الداخلية، وزارة القوى العاملة،

وزارة المالية. وهذه الثلاث تعمل كأنها في جزر، لا تنسيق بينها. وزارة الداخلية، تعتبر نفسها وزارةً سيادية؛ فوحدات تصاريح العمل التابعة لها تكتفي فقط بتقيدم المواطن تأشيرة الدخول المثبتة على جواز السفر أو إذن العمل للدولة المُسافر إليها دون التقيد بعقد العمل المطلوب والمعتمد من وزارة القوى العاملة.

ووزارة المالية لا تتقيد بدورها بالمبالغ المقيدة بدفاتر هذه الشركات المعتمدة من وزارة القوى العاملة، ولا بالنسبة التي حددها قانون العمل، لمعرفتها أن تلك الشركات تأخذ من المواطن مقابل فرصة العمل أضعاف أضعاف ذلك، فتفرض نِسبًا جزافية، فتلجأ تلك الشركات للتهرب من تسجيل ما يرد إليها من أصحاب الأعمال بالخارج، فتضيع مبالغ طائلة من جراء هذا التهرب على الدولة. هنا رَنَّ جرس التليفون، فرفع الضابط السماعة. وسمع مجاهد طرفًا من المكالمة:

" أكيد؟؟" فأجاب ضابط أمن الدولة الكبير مُحَدِّثَهُ:

"نعم يا بنـي آدم، من غير ما تدخل امتحان ولا يحزنون"

بيد أن مستقبل الحديث - وهو ما استنبطه مجاهد- ظل شاكًا في قدرة الملازم الأول، الذي رفعه الضابط رُتْبَةً، على فعل هذه المعجزة الحصول؛ على رخصة قيادة من المرور فورًا دون رِشْوة أو امتحان، وهو ما دفع ضابط أمْنِ الدولة الكبير ليسخر منه:

"يا بني آدم، النقيب فلان، رئيس جمهورية زفتى"

"إلى هذا الحد؟!" تساءل مجاهد في نفسه؛ مُستنبطًا الحال التي وصلت إليها البلاد من الفساد والإفساد، وسيطرة وزارة الداخلية وجهاز أمن الدولة خاصة على مقاليد الأمور، وهنا أيضًا أخذ الحديث بينه وبين الضابط الكبير منحىً آخر فقال يقص عليه:

"من مدة، استدعاني الرائد عدنان، مسئول المساجد، فضحك الضابط لِما يفيض فيه من اليقين وليس بيقين، قال:

"عدنان هذا اسمًا حركيًا للضابط، مستعار" فتابع مجاهد يقصص:

"جائتني من عنده ورقة، تُرِكت لي عند صاحبة كشك؛ الحضور الساعة التاسعة صباحًا يوم الثلاثاء لمقابلته فجئته.

كانت هذه المرة الأولى التي جاء فيها إلى هذا الجهاز بسبب اشتغاله بمجال الدعوة، سَلَمَ قصاصة الورق لموظف جالس على بِنْشٍ عالٍ يمين المدخل جنب الباب ووقف ينتظر، فَطَلَبَ الموظف منه البطاقة، ولما َفرَغَ من مطالعتها احتفظ بها، ومال وهو جالسٌ ففتح حاجزًا خشبيًا ذا ضلفتين تعملان معًا في تصفيق، نصف باب، وأشار له بالدخول فدخل.

وكان قد احتاط لنفسه، فحمل معه المصحف وأجندة الدرس يستعين بهما على مشقة الترقب والانتظار، ورأى جمعًا من أصحاب اللحي بقاعة الانتظار وقليلًا منْ غيرهم، فاصطفى بعض أشخاص قدَّرَ فيهم القدرة على القراءة جلس إليهم تباعًا، يُعطيهم المصحف ويُشير للشخص أنه سيقرأ عليه منه، ومتى أخطأ صَوَّبه أو توقف فيمُدَّه ويذكِّرَه، وكلما جاء دور أحدهم للمثول، فذهب، انتقل بالمصحف إلى غيره، حتى سَمَعَ أذان الظهر من مسجد قريب، فاستأذن للصلاة، وأخذ المصحف وأجندة الدرس، وقام إلى الجالس يمين الباب الذي سلمه البطاقة وقصاصة الورق فطلب منه:

"أُصَلِ الظهر جماعة في المسجد القريب وأعود"

"ممنوع"

"ممنوع الخروج؟ أنا جئتكم بإرادتي الحرة."

فأدام الجالس إلَيَّه النَّظر، وقالت النظرة، هذا أول مرة يُشِرفْ هُنا.

"عاوز تصلي، صل هنا"

"وهل هنا مكان تُقَام فيه الصلاة؟"

فناوله سجادة صلاة (قياسٌ عريض) كان إلى جواره فسأله عن دورة المياه، فدخلها فوجدها طافحةً، شديدة القذارة

ولما رجع إلى حجرة الانتظار بيده المسجادة قام أغلب من كان في الحجرة فصلى معه.

وقال للضابط الكبير:

"تخيل؛ لطعني لآخر واحد، ففي الركعة الثانية نُودِيَ اسمي، فأشار بعض من كان جالسًا لا يصلي للجندي المنادي إشارةً مؤداها: أنه هذا الذي يصل بهم إمامًا، فارتد الجندي راجعًا، وسمعته يُدَمْدِم: صل براحتك بقي، ه تتلطع لآخر واحد هنا.

"فرجعت أستأنف القراءة، قرأت خمسة أجزاء كاملة، وقرأت درس كان من المفترض تأديته يومها بين المغرب والعشاء بمسجد بسندوب" مجاهد للضابط الكبير، وهنا توقف عن قص جانبًا من أصل الحكاية يمس شخصه العزيز، لمّا خَلِيَتْ عليه الحجرة تمامًا واقترب آذان العصر فأنشأ صدره يضيق، وبلغ القلق منه غايته، فَخَلَّى الحجرة ومضى يزحف حتى بلغ الممر الذاهب إلى الحجرات المغلقة فقعد فيه، وراح يتابع الساعين في شغلهم الشاغل، وهم يذهبون ويعودون، فحزر هيئةً منعمة مُمُيَّزة يمر صاحبها هرولة فاستفسر في نفسه: أيكون هذا عدنان الذي سيمثل أمامه؟.. وحين سمع اسمه ينادى به، وكان قد تَنَقَّلَ بالطُّرقة في

جلوسه القلق حتى اقترب من باب الحجرة الأخيرة التي دخلها، فَتَحَ الباب، فوقع بصره أول ما وقع على مقعد جلدي ثخين، فشرع من شدة الغضب في الجلوس فورًا في تحدٍ من قبل أن يؤذن له: أَيُلْطَعَ كل هذا لأنَّه عُلِمَ أنه يُصلي، ورفع الضابط وجهه عن ملفات كثيرة بعضها فوق بعض تملأ المكتب أمامه، وأشار له بجلوس كان قَد شُرع فيه، ثم عاد ينظر يساره في جهاز حاسب آلي مفتوحٌ، فابتدره بسؤال يحمل شيئًا من الغضب وعتاب هَيِّنٍ:

"ما جريمتي التي ارتكبتها وأنا لا أعرف؟"

كان يُحاول السيطرة على غضبه، فردَّ الضابط بنبرةٍ هادئةٍ:

"وهل أنت لا تعرف ما صنعت"

"لو عَلِمتُ ما اقترفتُ ما سألت حضرتك"

فتحدث الضابط في نبرة أكثر جِدّةٍ:

"تخطبُ في مسجدٍ غير مسجدك، ألا تعرف عقوبة من يَصعدُ منبر مسجد غير مسجده، ستة أشهر سجن." فهدأ وقد عرف هون المصيبة، فانشرح صدره للقص:

"أحكي لسيادتك وحكى؛ أن جماعة أنصار السنة التي يخطبُ الآن في مساجدها كانت قد أعفته من إحدى الجمع، ولأنه مَلَّ السفر، فيوميًا يذهبُ إلى العمل، وفي الغالب يُسافرُ أيضًا كل جمعة ليخطب في بلدٍ، فَكَرِهَ السفر، فقرر يومها أن يُصليَ الجمعةَ في مسجدِ القريةِ الوحيدِ، التابع لوزارة الأوقاف، مهما يكن الخطيب غير مجيد، وجلسَ ينتظرُ في الصفِ الأولِ، ولمَّا جاءَ الخطيبُ ورآه جالسًا طلب إليه أن يصعدَ المنبرَ مكانه، فطيلة ليلة أمس لم ينم، ظل سَاهِرًا إلى جوار أخته التي لم

تضع مولودها إلا الصبح، أضف إلى ذلك القلق الذي لم يجعله جاهزًا ليقوم في الناس بشيء، وسأل ضابط أمن الدولة:

"سعادتك، لو كنت في مكاني كيف كنت تصنع؛ أأترك هذا الأخ فأعرضه للحرج أمام الناس وقد لجأ إليّ؟" فردَّ الضابط بحسم:

"أتعرض نفسك لستة أشهر سجن، عَنُّهم مَّا صلوا"

فاكتفى بالصمت وابتسامة دهشَة، وهدأت نفسه وقد عرف أصل الحكاية، فنهض نشيطًا فنشر أجندة الدرس أمام الرائد عدنان، وأنشأ يَفِرها ليطالع:

"أنا أتكلم في الفقه ولا أتكلم في السياسة لأني لا أُحِبُها، وأتكلم في الخطب في أسماء الله الحُسْنى، وعندي اليوم درس بين المغرب والعشاء في سندوب في فقه الصلاة، أنا أتَعَلَمُ الدين وأعلمه للناس، فهل لديكم مانع أن أذهب للدرس؟"

"لا، ولكن احذر فسندوب مليئة بالإخوان"

فراح يعود إلى البيت، فمر به أخ صاحب سيارة ملاكي فوجده واقفًا في المحطة ينتظر، فوقف له:

"فضيلة الشيخ فلان، اركب تعال" وظل الأخ حفيًّا به، فضيلة الشيخ أهلًا وسهلًا ومرحبًا، فَعرفه: أخًا يحملُ في سيارته هذه مشايخ أنصار السنّة العَتائق، يُوفي بهم المجمعات الكبيرة، حمله ذات مرة منذ سنوات لإلقاء خطبة في مسجد التوحيد بطناح، وعلم أنه من المترددين كثيرًا على جهار أمن الدولة، لمَّا أجابه من أين هو قادم. فعلق الأخ قائلا:

"لا تقل جهاز أمن الدولة، بل قل جهاز أمن مبارك"

وللمرة الثانية اليوم ينتبه لملاحظات جديدة، فراح يفكر في الأحداث التي مَرت به في صمت، ولم يعلق على كلام الأخ، وودعه عند أول منازل القرية. فقابلته أمُّه وزوجه طالعتان إلى الطريق العام من شدة القلق، فأعادهما تحت جناحيه، فسألت أمُّه في لهفة كذلك:

"ماذا يا بُنَيّ، ما الذي أخرك إلى هذا الحَد؟" فابتسم، يطمئنهما، وبدا له أن روحها رُدَّت إليها:

"جاء دوري وكنت أصلي الظهر، وعلم الضابط، فعاقبني، فتركني آخر شخص، وضحك ليذهب عنها هَمّها.

وكانت زوجته قد أخبرتها أين هو.

* * *

الفصل العاشر

"عاوِزَ أقُل لّك سر"

فمال بمحدثه عن طريق المارة، وكانا خارجين من صلاة الظهر. وبعد تردد أنبأ هاني صلاح:

"الفلاحون يقولون فيه جُثّة مَرْمِيَّة في المنيل"

واستمر يعبث في أصابع يديه من الخوف، فاصطنع مجاهد اللامبالاة وأبدى أنَّه لم ينقطع للخبر؛ ما زال يفكر فيما هو آخِذٌ فيه، والأمر عاديٌّ لم يثر دهشتهُ، كذلك أراد أن يُفْهِمَه، وشرع رأسه، وأومأ إليه إيماءةً مفادها: ماذا قلت، أَعِدْ، لم أكن مَّعك، ولم أسَمَعْ جيدًا؟. فأعاد هاني مقالته:

"واحد مَقتُول ومَرْمي في المنيل"

"مَنْ قال لك؟"

"أيْمن بن عمي، والفلاحون كلهم عارفين، وخائفين أن يُبَلِغوا"

"هل رأيته؟"

قال:

"لا، الفلاحون يقولون مَرْمِيٌّ من قبل العيد" فتساءل في نفسه: اليَوُمُ السبْتُ، وهذا الأسبوعُ هو التالي لأسبوع العيد، العيدُ كان الجُمعة، إذًا يكون قد مرَّ عليه أكثر من ثمانية أيام في الماء، فسأله غاضبًا:

"كيف يتركون آدمي مَرْمي في الماء كل هذه المدة، ويأتون عليه ويروحون ولم يبلغوا."

فشعر هاني أنه تَسَرَّعَ إذ أعلَمَهُ، فعاد إلى الصمت، فقال مجاهد يستنطقه:

"يتركونه هكذا لتأتي عليه الكِلابُ والقِطَطُ لتأكله"

قال:

"الفلاحون خائفون مما يِحْصُلُ لهم في المركز، الحكومة تأخذ الواحد ترميه في الحجز على مَّا يبقوا يتحروا، ويتهموه هِوَ، خلاف الإهانة والضرب"

فشرع يفكر ويسأل ويتسأل، لعل هاني يعترف بالمزيد، فيتأكد له الخبر:

"لَكِن من الممكن أن تكون ثيابًا أُلقيت في المنيل فامتلأت ماءً فَظُنَّوها شخص، فَنُبَلِّغَ فيأتي البلاغ كاذبًا، وَهَمَّ أن يَقُولَ، فنعرض أنفسنا للحبس، فأمسك كي لا يرعبه، وكان هاني يَتْبَعُهُ وهو خائفٌ فأعاد عليه:

"ما رأيت الجثة؟ ما ذهبت إلى هناك؟"

قال:

"لا، لو رأيتها لن أنام."

"أين المكان؟"

فأخذ هاني يصف:

"أنت عارف المنيل الذاهب للشياخة، قُرْبَ الآخِر، المنيل يتفرع فرعين فرع ذاهب ناحية شاوه، وفرع ذاهب ناحية سللنت، ومضى يصف المكان.." فنزل به إلى الشارع، الذي يكون منه إلى هناك.

ولأنه لحظ أنَّ هاني خائفٌ لا يريد السَّير معه، وشاهده يُصلي الركعتين بَعْدِيَة الظهر، فلم تعجبه صلاته، فشرع يُلْهِيه، يُحدثه عن تلك الصلاة:

"صلاتك خفيفةٌ، ووقفتك غير مضبوطة، فحَالَة قدميك تَجْعلُهما باتساع البدن، وكيف تسجد، وما المواضع التي ترفع فيها يداك في الصلاة؟" ومضى يشغله عن الخوف، وهو دون الأربعين بقليل، موظف بالهيئة العامة للاتصالات السلكية واللاسلكية المملوكة لنجيب ساويرس، ويوم الجمعة عقب صلاة العصر يجلس وآخرون عنده يتعلمون القرآن.

ولأنه ارْتَدَ عن مقولة الفلاحين أنَّها جثة، وأن كل ما رأوْه بنطلونًا طافيًا فوق الماء لا يدرون أهي جثه أم لا. وكان يَهِمُّ بالتوقف حَثَّه:

"تعال نُشاهِدُ" هنا توقف تمامًا، وأعْرَبَ:

"لا أَقْدِر، لو رأيتها لن أنام"

"طيب؛ تعال فقط شاور لي- من بعيد- على المكان."

ومرّاَ ببائع قصب، فاشترى عودين ناوله أحدهما فرفض:

"لن أَقْدر، واعتذر كذلك: هَسّ تاركه من يَدِي قبل الصلاة" فاكتفى بشراء عودٍ واحد، أنشأ يَمُصُّ، ويحدِّثُه عن الصلاة، حتى اقتاده إلى المنيل، منتصف الطريق

إلى الجثة، هنا توقف هاني، ولمْ يتتعْتعْ، إذ سارا الآن في الاتجاه، وأفصح عن ذُعْرِه:

"أنا خائف، سأرجع"

وقال لمجاهد وأشار:

"أترى الشجر الذي هناك، في الفرع المتجه ناحية (شاوه) في نهايته، تلقاه مرمي في المنيل، هناك" ورجع، فاستأنف هو الذهاب وحده.

الوقت ظُهرًا، والشهر آخر نوفمبر، أول فصل الشتاء، لم يَلْمَحْ بالزمام كله عن يمين المنيل أو عن يساره شخصًا واحدًا هناك، وكانت الحقول مزروعة إمّا قمحًا نابتًا لا يزال أو برسيمًا فُتِحَ فيه، فعدى الخوف عليه وقد صار وحده. وكلما مضى في الاتجاه تَلَفَت، رُبَما يكون المكان مُراقَبًا، أو يراه أحد الأهالي وليس له أرضٌ هنا فتدور حوله الشُّبُهات، ويقع هو فيها، وقال في نفسه: الغريب أني لا أشاهد أحدًا أبدًا، وكأن الجميع عَالِمُون بالأمر، فتواطؤا على ترك المجيء إلى المكان.

على جانِبَيِّ المنيل عشبٌ كثيف من نبات الحلفا، وشجر صفصاف تدلى ليخف تقريبًا سطح الماء، فمشي الهوينى، وكلما بدت فرجة، نظر من طرفي خفي إلى سطح الماء، حتى دنا من المكان، عندما تفرع المنيل إلى الفرعين. فشاهد في حقل مجاور جانب الطريق طائفة من الغربان، فاستشعر بتأكُّدِ الخبر وقد خطر بقلبه: "نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ.. " فقَتَلَ أخاه" فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ " على الفور اقشعر جلده. بَيْدَ أنَّهُ تَشَجّعَ كي يفرغ من تلك المُهِمَّةِ الثقيلة.

ركب الفرع المتجه ناحية شاوه، يمشي خائفًا، كالمسحور يكتم أنفاسه يَدفَعُه ضرورةُ إنجازِ شيءٍ لابُدّ من إنجازه، فترك آدمي مَيْتًا مَرْمِيًا في الماء قرابة عشرة أيام شيءٌ فظيع في حق إنسان، قال يُشجع نفْسَهُ.

انتهى إلى المكان، فمال عن الطريق، ونزل قريبًا من الشاطئ، يَنْظُرُ من بعيد، ومنعه من الاقتراب الفِرارُ من الموت المُتَبدَّى في آدمي ميِّت مُلقى في المياه، فارتد سريعًا إلى البرِّ وطلع إلى الطريق ولم يرَ شيئًا. لكن كيف؟ فليس معقولًا أن يشيع بين الفلاحين خَبرٌ وليس هنالك شيءٌ، فَهمَّ بالأمر.

رجع حَذِرًا؛ يهبط إلى الشاطئ، ونزل حتى حافة المياه، ونظر أسفل الشجرة التي سبق أن أشار له إليها هاني، دَقَّقَ في هدوء، فوجد بالفعل شيئًا طافيا تأكد له مِنْ سُرَّته البادية وسط بطنه وقد انحسرت عنها الثياب، وجلد البطن البَضّ المشدود كالرُّخام؛ أنَّه آدمي، ومن أصابع القدمين الدقيقتين الخارجتين من رِجْليِّ البنطلون، ومن الذراعين المنشورتين على اتساعهما فوق الماء، أنَّه فَتىً قويًّا. لم ير له رأسًا كأنَّها قُطِعَت، ففوق العنق البَضِّ الفَتيِّ عند موضع الحلقوم شاهد شيئًا أسودًا ملفوفًا عليها، ورأى أصابع كفيه مبسوطتان وكأن بهما جُوَنْتِيين سوداوين لإخفاء البصمات، فربما كان يريد قتل صاحبه أو صاحبيه فعاجلاه. وصُبَّا على الوجه والكفين (ميّةُ نارٍ) لإضاعة الملامح والبصمات.

لمَّا رجع عن الجثة، وشاهد ما شاهد، راح يمشي بيده بقية عود القصب الذي اشتراه ليتسرَ به، يفكر حزينًا في مصير الإنسان، وقد ذهبت عنه الرغبة في عود القصب، بل عن كُلِّ طعام، فأنشأ يسير غافلًا عن بقية العود في يده، كأنه طفل تعلق بحاجة ثُمَّ نسيها فنامَ.

طُوال طريق العودة لم يقابل غير فلاح واحد قَدِمَ راكبًا دراجة يُبَدِّلُ في سرعة كأنه في مهمة عاجِلة، كان ذلك في منتصف الطريق، وعَرَفَ أنَّه من سندوب،

وقَدَّرَ أنه يعرف بالأمر، فَمَا قدم راكبًا تلك الدراجة إلا ليعود سريعًا فلا يمكث في المكان، هذا ما استنبطه، ألقى الشخص السلام عليه - كان يَعْرِفُه عندما كان صغيرًا يعمل هنا في فرق مقاومة (العلامات) كان هذا خُولِيًّا عليهم- ويعرف أن له أرضًا هنا.

ولما رجع إلى هاني، وكان أمام البيت، خلف القرية، بُورًا يَخُصُّ أحد الخواجات اتخذه الأهالي مَرْبطًا للبهائم ومَقْلبًا للنِّفايَة، فمال نازلًا إلى بيت هاني، وأشرف على أحد الفلاحين الذي بدا مشغولًا بِإطعام دوابه. وقبل أن يصل إليه، فاجأه الفلاح بهذا السؤال:

"عملت أيه في المشوار اللي كنتَ فيه؟"

"يعني، أنت عارف"

فتأتأ في ارتباك:

"أَأَّ، أنا لا أعرف"

"تعني، أنك لم تذهب إلى هناك، تحُشُّ البرسيم أو تُعَلِّقُ ماكينة الريّ تروي، فأجاب الفلاح في سرعة لافتة، كمن فكر سنينًا في إجابة لمثل هذا السؤال:

"البرسيم لم أفتح فيه، ولم تنزله الماء من أكثر من شهر"

فغض عنه بصره، وفَاجأه بهذا السؤال:

"منذ مَتَى هو مرميّ بهذا المكان؟"

"أنا لا أعرف، من قبل العيد بمدة، وأنا لم أرح لهذا المكان"

فعرف أنَّه لن يحصل منه على شيء، فتركه، ومشي في اتجاه بيت هاني، فعلى مَبعدة كانت أم هاني هي الأخرى، تجلس هناك على إحدى درجات السلم الطويل المطل على الحقول، فصعد إليها وسألها عنه:

"هاني موجود؟"

وكأنّهَ وهاني كانا على اتفاق، إذ برز على الفور من إحدى الغرف قبل أن تناديه، برز وبيده شيء كان يُحاول إصْلاحه، فطالعه، ثمَّ أرخى بصره ووقف يعبث في الشيء في صمت:

"أنا سأبلغ"

فسأله هاني ويداه ترتعشان.

"ومنْ ستقول إنه قال لك؟"

"أقول هاني صلاح، والذي قال لهاني ابن عمه أَيْمَنُ محمود" هنا خرجت أم هاني عن صمتها، فنادت:

"يا مْصيبتي!" فاستطرد هاني:

"قُلْ: كُنْتُ ماشي أقرأ في المصحف فرأيتَه مَرْمِي في المنيل"

فقال له في نبرة عتاب:

"يا أخي في الصدق النَّجاة، المكان خُفْيةً وليس لنا هنالك أرض، فما يحملني على هذا الذهاب، كلام لا يُعْقَلُ، أأضعُ نفسي في موضع الشُّبُهاتِ، أنا لن أقول إلا ما أعرف.

ردَّ:

"سأقول، إني لم أَقُلْ لك شيئًا"

هنا تزلزل الكُلُّ، الأم والأب والولد جميعًا، ووقعَ بعضُهم في بعض، وكان أبو هاني جالسًا على الدرجة السفلى لِسُلَّم البيت فصاح لمجاهد كذلك:

"يا جَدَعْ، قل هاني هو من قال لك لأجل أن يَتَأَدَّبَ، فوقعت أم هاني فيه، وقالت تدرأ عن ابنها:

"ابني لا يعرف شيئًا، ابني لا ينزل حقلًا، ابني لا يذهب إلى هناك، ابني ليس له أرْضٌ، الأرض ابْتاعها أبوه، قُلْ أبوه هو من قالَ لك، وختمت كذلك، أبوه عارفٌ والفلاحون كلهم عارفون"

فالتقطها مجاهد نكته، ليُهدئ من رَوْعَ الجميع:

"متى تزوجتم يا أم هاني؟"

"من خمسين سنة، ونحن متزوجون"

فسألها ضاحكًا:

"يا شيخة، تضحي بعشرة خمسين سنة، وتريدين أن تضعي الرجل في الحجز، فصاحت:

"ابني؛ ضناي" وأبصر بالزوج يضحك في سماحة ذاهبًا ببصره إلى الحقول، ففكر في العَمَّ صلاح، وحيد أمِّه وكان لا يعيش لها الذكور، فذكر شبابه، وتلك الحَلْقة التي علقتها أمُّه في أذنه اليسرى كي يعيش، وشاهدها هو معلقة بإذن العم صلاح لم ترفع إلا قبل زفافه بزمن يسير:

"صدق رسول الله: يا مَعْشرَ النساء تصدقنَّ وأكثرنّ الاسْتِغفار فإني رأيتكنَّ أكثرَ أهلَ النار، فقالت امرأةٌ منهنَّ جَزْلةٌ، وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار، قال، تُكْثِرنَّ اللعْنَ وَتّكْفُرنَ العشير" وشرح لأمِّ هاني مُبتسمًا:

"يعني لا تحمدن الزوج يا أمّ هاني"

وقال يطمئنهم:

"لا تختلفوا، لن أُبلغ، سأعتبر الموضوع سِرًا ائتمنني عليه هاني"

في الليل؛ خاض في أفكاره: لقد عُرِفَ أنك ذهبت إلى هناك فرأيت الجثة ولم تبلغ، والحكومة في النهاية ستكتشف الجثة، عندها ستقبض على فلاحي الناحية جميعًا وتضربهم ليُقِرُّوا. وتسألهم، لِمَ تركتم جثة حتى تفسخت وفَاحتْ رائحتُها؛ ألم تعلموا أن هذا مخالف للقانون؟ فيضُجَّ أحدهم في ألمه: تحبسوننا لأننا لم نبلغ ونحن الجاهلون وتتركون شيخًا عارفًا، ولم يبلغ، وهو عارف بالقانون والدين. فمنْ هو؟ الشيخ فلانٌ، فما تقول، ويتحدث الناس، جَبُنَ فلان، ولست قُدوة. فنهض ولم ينام، فاتصل، بمن يعرف لِيفتيه.

قال:

"اوْع تبلغ؛ هـ تروح في سين وجيم ، وأنت رجل محترم، كُل ساعة يَنَطُّونَ لَك، ويرسلون في طلبك، أنصحك أن تبعد عن الموضوع. وكان الناصِح يعرف ضابط شرطة، فلما ذهب إلى العمل، وظل قلقًا، عاد فاتصل به كي يصحبه للبلاغ عن الجثة حتى يحسنوا مُعاملته في قسم الشرطة.

قال:

"انتظرني قليلًا، سأتصل بضابط شرطة صاحبي، نائب مدير أمن دمياط، أستشيره في الموضوع، واتّصِلُ بك على الموبايل.. فأفاد:

"ينصحك أن تبعد عن الموضوع؛ هـ يبقى فيه سين وجيم، وكل ساعة يستدعونك." فلم تعجبه هذه المشورةَ.

واتفق أن زاره في العمل في نفس الساعة صاحبٌ آخر فأخذه وخرج يستشيره:

"يا أخي أخشى إن بلغت من تليفون بالشارع، كما أشرت، حتى لا أُعْرَفَ ألا يؤخذ الموضوع مأخذ الجِدِّ ويُترك إنسان مرمي، تأكله الكلاب والقطط، وإني أسْتَحْيِي أن أستخفي وألا أواجه الحقيقة"

قال:

"لي صاحبٌ محامي نتصل به، نعرف منه موقفك في الموضوع وما يمكن أن تتعرض له، وماذا لو بلغنا من تليفون بالشارع"

فردَّ المحامي:

"انصَحْ الفلاحين بالتبليغ، مجموعة منهم تذهب تُبلغ، قول لَّهم سيتعرضون للإيذاء إذا لم يبلغوا بأنفسهم"

قال:

"الفلاحون خائفون ولن يذهبوا، أنا أريد معرفة موقفي أنا القانوني إن بلغت، فرجع يقول:

"انصَحَهمْ، قل لهم سيؤذون كثيرًا"

ولمَّا رجع من العمل وجد الزوجة قد قَصَّتْ على العاملات بالحضانة، أنَّه ذهب إلى المنيل، ورأى الجثة، فغضب غضبًا شديدًا:

"قاتلك الله. أنت مُصِيبَةٌ."

"إنَّا لله وإنا إليه راجعون" فأنبأت المسكينة:

"وماذا حصل، ما النَّاس كلهم عارفين."

قال في حزن وغضب:

"الناس كلهم عارفين أني رأيت الجثة ولم أبلغ"

وأكل قليلا، وقام فاتصل بصديقه يسأله، عن موقفه الآن؛ وقد شاع في القرية أنه رأي الجثة، قال:

"أردُّ عليك بعد نصف ساعة"

قال: "خَليها بعد المغرب، لأني داخل أنام" ودخل لينام فأُرسلت عليه الهواجس، فانتفض، فلبس ثيابه، وقال لزوجته:

"أنا ذاهب لأُبَلغ".. واتصل بصديقه، فأخبره:

"اتصلتُ به فنصح أن تبلغ"

"أنا لبِسْتُ؛ وخارج الآن"

قال:

"انتظرني عند الكوبرى، أنا قادم إليك بسيارتي لأحملك إلى هناك"

وخرج فوجد أم هانئ لا تزال مرابطة، هناك فوق درج السلم أمام الدَّار، فأخذت تنظر إليه، فنادها أن تُرْسِلَ إليه هاني.. فجاء:

"أنا ماضٍ لأبلغ، الأفضل أن تأتيَ معي"

فظل هاني صامتًا، فتركه ومشى قليلًا، ورجع فناداه:

"تعال؟" ويئس منه، فذهب وتركه واقفًا خلف العزبة وسط الطريق تَعبثُ بيداه بنفس الشيء الذي يحاول من الأمس دون جدوى إصلاحه.

وأقبل صاحبه فحمله في سيارته، إلى قسم الشرطة، وكان آذان المغرب وشيكًا فاستشاره:

"أصلي المغرب، وأذهب إليهم، فوافقه، وتحدث إليه سريعًا قبل أن ينصرف:

"معك رقم الموبايل، اتصل من أي سَايْبَر، أجيئك فورًا، لا تتردد"

فقال في حَزَنٍ

"جزاء الله خير. السلام عليكم. وعليكم السلام"

وتركه أمام مسجد الصالح الصغير بناصية سوق الخواجات وولىَّ.

كان لا يفصله عن مديرية الأمن غير شارع وُسْع ستة أمتار، إذا خرج من المسجد يجد نفسه تلقاء باب القسم، بيد أنه بانصراف صاحبه اسْتَوْحشَ وحشة شديدة، رغمَ كَثْرة الغادي والرائح، وسعي الخلق مُحِيطَ المكان.

* * *

قَضى الصلاة وخرج على الفور مُتوجهًا للقسم، فاستوقفه الجندي لدى الباب:

"نعم يـــا شيـــــخ" فلم يستطع أن يمسك نفسه عن التبسُّم للنبرة الممطوطة التي تحدث بها الجندي، كانت النبرة تقول، كَثُرَتْ متاعبُكم يا أصحاب اللحي، ما جاء بك إلى هنا!"

أجاب:

"داخل لرئيس المباحث"

"خيـــــــــــر؟" سأل جندي الخدمة بنفس النبرة الممطوطة فارغة الصَّبْرِ، فاسْتَمرَّ مُرغمًا على الابتسام، وتحدث بصوت عال:

"أبلغ عن جُثَّةٍ" فقريبًا منهما، في الشارع، أمام بوابة القسم، كان شَخْصٌ في لباسٍ مدني حوله آخرون- دونه وجاهةً وفَخامة- يلقون بسمعهم إليه حافين به. فَمالَ جندي الحراسة فهمس له:

"الباشا رئيس المباحث" وأومأ له إلى ذات الشخص المحْفيٌ به.

فتنحى عن الجندي كي لا يؤذيه، وانتظر قريبًا منهم حتى حضرت سيارة شرطة، فَفُتِحَ بابها لذاتِ الشخص فركب جنب السائق وهو مازال يتحدث. وانطلقت به السيارة.

فأقبل الفردان اللذان كانا يحيطان بالباشا، وشرع أحدهما يَلومُ مُجاهد:

"يعني يـــا شيـخ، ما كنت قادرًا تنتظر الصباح!"

"لو انتظرنا إلى الصباح قلتمْ، ما أَخَّرَكُم، لِمَ لَمْ تُبَلِغُوا، وابتسم، فسألاه:

"معك سيارة؟"

قال:

"تركتها عند القرية، لو أعلم أننا سنذهب إلى هناك في سيارتي الخاصة لجئت بها" وأسعده السؤال لِما استنْبطَ تقديره، وأنهما يحسنان معاملته إذ تأكد لهما مَعْرِفَتهما بامتلاكه سيَّارة.

وأثناء وقوفهما يبحثان عن تاكسي شاهدا ثالثًا لهما يركب سيارة ملاكي جديدة فاستوقفاه:

"مبروك جديدك، تعالَ وصلنا بها سندوب"

وركبا معه، وكانت السيارة جديدة وصغيرة، فانطلق يضرب بها غُرَزًا بين العربات؛ وفي كل لحظة ظلَّ مُجاهدُ يَهيبُ به:

"حاسب. لا تسرعْ" فيضحك زميلاه ويتمايلان من السرعة يَهْزلان:

"يا فلان، على مهل الشيخ" حتى ضَجِرهم:

"لو كنت أعلم أنكم تفعلون هذا، ما ركبت معكم"

وانزوى قلبه خوفًا وهو يرى في كل لحظه سيارتهم ستلبس في أُخرى، فيأخذ بهم قائدها ملفًا طائرًا، ويزوغ مُبتعِدًا، كأنَّه في سابق سيارات أو يلاحق مُجرمًا، مُتجاوزًا من اليمين واليسار، مُخالِفًا كُلَّ قواعد المرور، فأخذت جميع السيارات تتراجع، مفسحة له الطريق، تنتظره أن يمر، وهو ينطلقُ من بينها كالعابث المجنون. ولمَّا بلغوا القرية ضرب ملفًا طائرًا ظن مجاهد أنه ملاقٍ حتفه لا محالة، وتوقفت جميع السيارات بالميدان، ليَمْرُقَ، فناداه:

"حاسب. انتظرْ" وصاح:

"هذه هي القرية، هُنا المكـان"

ونزلوا، فأخذهما إلى سيارته التي تقف.

"هذه سيارتي"

فسألاه كذلك:

"أين هي الجثة؟"

"خلف القرية، في المنيل، هناك، وأشار"

وركبا سيارته، فنزل بهما حتى نهاية القرية، وأوقف السيارة، وسارا على القدمين حتى بلغ بهم المنيل، فسألاه عن مُسَمَّاه، قال:

"لا أَعْرِفُ، أنا اعرف اسمه المنيل، لكن هذا هو حوض البرك، وهذا حوض الطرح الشرقي، وهذا حوض الأمينة، وذاك لا أعرف اسمه" ومضى يمشي أمامهما ويشير، وهما يَتْبعانه، فقاما يجادلان:

"يا شيخ هذا الحوض ليس يتْبَعُنا، الأراضي هذه كلها تتبع المركز." قال:

"أنا أعرف أن كل هذه الأراضي تتبع جمعية سندوب، وسندوب تَتْبَعُ قِسْمَ أوَّل، وقريتنا تَتْبع سندوب"

"المُهِمُ أن الأراضي تتبع جمعية كذا، المهم في أي تقسيم إداري هي، أوَّل أم ثان، جادلاه كذلك" فقال:

"أنا لا أعرف عن هذا التقسيم الإداري، أنا أعرف أنَّ هذه الأراضي فلاحيها من قريتنا أو من سندوب" فمضيا يسيران، وكلما قطعا في سيرهما مسافة طلبا يستوقفانه:

"يا شيـخ، بقى لنا ساعة ماشيين، يا شيخ مشينا أكثر من عشرة كيلو، يا شيخ هذا ليس تابعًا لنا، فمضى بهما دون توقف، يُشير إلى المكان الموجود به الجثة من خلال الأنوار المضيئة الوافدة من العمران البعيد:

"يا شيخ، هذه بلدة شاوه، وهذه سللنت، وهما تابعتان للمركز، فضاق بهما ذَرْعًا:

"إن كنتما تريدان الرجوع فَارْجِعا، أنا فعلت ما تَوَجَّبَ عليَّ فِعْلُهُ" فجادلاه عن نور بادٍ:

"أليست هذه ميت الصارم؟"

"لا، هذا مصنع طوب أسمنتي، ميت الصارم هناك، وبعدها تجيء سللنت، هنـاك. فأشارا له إلى دخان صاعِدٌ:

"أليس هذا مَقْلبَ الزبالة؛ المقلب تابعٌ للمركز، وقال يخاطب رفيقه:

"المئذنة هذه، ألا تشاهدها؟ هناك تابعٌ للمركز. والتفت إلى مجاهد يُعاتبه:

"يا شيخ النَّورُ الظاهر هناك معسكر الأمن المركزي، كل هذا تابع للمركز."

فاستمر يَقُودهما دون توقف حتى وصل بهم المكان؛ ودون أن يقترب من الشاطئ، أشار لهما إلى موضع الجثة، فضَجّا في تَصاغُرٍ:

"يا شيخ، جئت بنا أيـن؟ هذه أرض سللنت، هذه تتبع المركز. وأخذ أحدهما من يده الكشّاف، ونزل إلى شاطئ المَنيل، فَصَلَّتَ ضوء الكشاف، وأخذَ يُدَقِّقُ أسفلَ الشجرةِ يبحثُ في الماءِ، ثم صعد عن الشاطئ رويدًا، رويدًا، ومن خلال الموبايل أنشأ يُهاتف رئيس المباحث يصف له الجُثَّة:

"شاب صغير، عشرون سنة تقريبًا، نائم على ظهره فوق الماء، يبدو أنه مرمي ـ على الأقل ـ من قبل عشرة أيام؛ الجثة منتفخة وبدأت تتحلل.

* * *

حِكايةٌ هاني صلاح وابن عمه أيمن محمود، آيتان في الذُّعْرِ، بالفعل شُوهدت قططًا كانت تُحُومُ حول الجثَّة، شاهدها مجاهد وهو يمسك بالكشاف يُسلطُ الضوء على الماء لفردي الأمن ليعيدا التحقق من الجثة، فوقع منه الوضوء على الشاطئ البعيد، فرأى القططَ سارعت تترك الشاطئ المعشوشب وتصعد هاربة.

عَاوَدَ فرد الأمن الاتصال برئيس المباحث يصف له المكان، وكلما طُلِبَ من مجاهد الإجابة على سؤال أجاب باقتضاب حتى اقترب آذان العشاء، وأمرهما رئيس المباحث أن يتصلا بمباحث المركز، فاتصلا وقد أُذِّنَ للعِشاء، فخرجوا من الحقول في اتجاه قرية شاوه، ولمّا بلغوا الطريق وبدت البيوت قال مجاهد:

"أنا ذاهب أصلِّ العِشاء، ومشى"

وفجأة صاحا يستوقفاه:

"معك بطاقة يا شيخ؟" فرجع إليهما يَضْحَكُ:

"وهل أنا أهرب، قال، نعم معي بطاقة"

واستخرجها من جيبه فأعطاهما، وتركهما يمشيان على مَهَلٍ، وانطلق يجري باحثًا عن المسجد قبل أن تفوته الصلاة. وكان حابسًا للماء فأدرك من الجماعة ركعة بعد أن جَدَّدَ وضوءه، فحمد الله أن لم تفته الصلاة. وخرج يبحث عن فردي الأمن فلمْ ير أحدًا، فمشى يحدث نفسه بالرواح للبيت، فذكر الكشاف الكهربائي خاصته، فَأسِفَ أن تركه لهما، فقال في نفسه: وأين سيذهب. أكيد لنفسه، بعد استخراج

الجثة سيتم استدعائي للقسم، عندها أستطيع أن أطلبه ممن أراه. ووقف على الطريق يَتَرقَّبُ أيمًّا قادم بسيارة فيستوقفه فيركب معه، ولم يَكَدْ يُفكِّرُ، حتى جاءه صوت فرد الأمن يناديه، كأنه يرى في الظلام:

"يا شيـخ؟"

فترك الانتظار ومشى إليهما يُعَسْعِس، فوجدهما واقفين ينتظران ضابط مباحث المركز أو هذا ما حَزَرَه، إذ جاءت سيارة ملاكي جديدة فنزل منها شاب حديث السن في زيٍ مدني فسَلَّمَ عليهما، ولم يلتفت إليه، فتوجس في نفسه خيفةً وقال: هذه هي البداية، قد يكون مَبيتُكَ الليلة خارجَ البيت، وكان قد ابْتَهل وهو ساجد، أن لا يبيت الليلة خارج البيت، وأن يصلي الفجر جماعة في مسجد القرية، فتبعهم مهمومًا.

وعرف من حفاوتهما بالوافد أن صاحبيه، فردا أمن وليسا ضابطين. وحانت فرصة، فدنى من أحدهما يُسِرُّ إليه، يستطلع مستقبله مع هذا الضابط:

"صاحبكما لم يسلم عليّ"

"لم يَعْرِفْكَ" قالا يطمئنانه. وتحدث الضابط:

"جئتم بي من الكمين."

"يا باشا الأمانة تبعكم." وسارا إلى جواره يضحكان، بينما الضابط عاكفٌ على الموبايل يتصل ويتكلم، شاب في العشرين نحيفٌ جدًا، من شدة نحافته، ترك البنطلون وسطه وتَدَلَّى، وكأنَّه يسقط تاركًا ردفيه، فتشجع مجاهد فَحَزَرَ يقيس قوته إلى قوته، ورغم أنه ليست له خبرة بالمشاجرات ونحيف كذلك، وليس طويلا، إلا

أنَّه قَدَّرَهُ قُوَّةً، بالنسبة إلى قوة هذا الضابط، فقال يَعْجَبُ: كيف لهذا مُصارعة القَتَلَةً والمجرمين.

ورجعوا إلى الجُثَّةِ عبر الحقول، الضابط يسير أمامه. ومرَّة تِلْو مرةٍ، تِلْو مرةٍ، راح يعْثُرُ، وهمَّ أن يسقطَ، وهو يسير على الحد الفاصل بين الحقول، لِقِلَّة الخبرةِ، بينما هو خلفه يمشي مُستقيمًا لم يعْثُر مرةً حتى وصلوا المكان، فوقفوا ينتظرون مجيء المخبر العارف بالتقسيم الإداري للمنطقة.

وجاء، فكان بينه وبين فردي الأمن هذا الحوار:

"الأمانة تَابِعَة لكُمْ، المنطقة هذه تابعة للمركز" وقالا يسألانه:

"أنت فاكر الموضوع الفلاني؟" فقطع عليهما المُخْبر إخبارهما؛ فأنبأ:

"كان جُثّةَ حِمار" وتابع يسألهما:

"وصلكم في الصباح بلاغ فرجعتم، ولم تتعرَّفُوا على المكان؟" قالا:

"لا، تعرفنا عليه، ووجدنا الجثة، وكانت جُثَّةَ حِمار"

وطفقوا يتجادلون، ومجاهد يسٍتَمع إليهم، حتى انتهى جدلهم أن الأمانة تقع في المنطقة التابعة لدائرة عمل المركز، فأسلما بطاقته للضابط، وانطلقا فِرارًا، وصاحا في طريق عودتهما فَرِحان:

"الشيخ معكم" فوقع مَحْزُونًا لا يعلم مصيره، بين هؤلاء وبين وهؤلاء، وكان يظن مهمته قد انتهت، خاصة عندما عرف أن بلاغًا آخر عن الجثة وصلهم هذا الصباح، وقال لنفسه وهو ينظر إلى الضابط الذي لم يترك من يده الموبايل عاكفًا يتحدث: ليلى مع هذا شاقٌ طويل.

ونزل المخبر إلى الماء، ومضى يُقلبُ في الجثة ويصفها:

"شعره طويل، ذو لحية، يبدو من العِيال السَّرِّيحة على الطريق"

وتابع:

"نائم على ظهره والجثة متعفنة ومنتفخة، لابس بنطلون زِيتِي وتي شرت أسود، كان عايقًا في لبسه، فصاح الضابط يُحذره:

"لا تلمسْه" ومن خلال الموبايل أنشأ الضابط هو الآخر يصف للمأمور. فأحسَّ مجاهد أنَّه مزْنُوقٌ، فأعلم أحد أفراد الأمن حتى لا يظنُّوه يهرب:

"أنا ذاهب أستتر للحاجة، وأوضح للغته بهذه اللفظة: مزنوق"

وسار بعيدًا، ثمَّ مال عن الطريق يستتر، فهبط حافة حقل مجاور، وجلس يقضي حاجته. بينما الضابط الصغير ذاهبٌ وجاء يتكلم في الموبايل، فابتعد عن المكان، واقترب من القاعد، فسكت فجأة، وقد دنى جدًا من شخص مُرابط، فحَذَّرَه بصوتٍ خفيض:

"من القاعد؟"

أجاب: "أنا الشيخ" فتنفس الضابط الصعداء وعاتبه صادقًا: "يا أخي خَضَّتْني"

ورجع عن المكان، فناداه المُخْبر وكان لا يزال مع الجثة في الماء:

"لن نقدر على إخراجه من الماء، محتاجون شكائر بلاستيك نرفعه فيها"

فرجع الضابط يتحدث إلى المأمور من خلال الموبايل فقال يأمره:

"اتصل بالإسعاف تأتي فتحمله"

فركب مجاهد خلف أحدهم موتوسيكل، فانطلق به إلى القرية ليأتيهم بشكائر البلاستيك، فوجد أمَّه بالباب، فقال يُجِيبُها بينما هو يتناول بعض الشكائر من فوق حظيرة للدواجن جانب الباب:

"مشوار بسيط يا حاجة. لا تقلقي"

وقال:

"ادخلي ولا تقلقي، ولمَّا أرجع، أقول لك"

ولمّا جاءا بالشكائر؛ وجدا الجثة قد استخرجت من الماء، والمأمور قد جاء في لباسه العسكري، عقيد، رجلٌ كبير، فسأل مجاهد وقد عَرَّفه له الضابط الصغير:

"هل تعرَّفتَ عليه؟"

"أنا لم أقترب منه، فقط عرفت أنه جُثّةٌ من سرته التي انكشفت عنها الثياب"

فأردف المأمور:

"شاب في العشرين"

"لا أدري، أعتقد أنه من المنطقة المحيطة، وليس من عندنا، لو كان من عندنا لسَمِعْنا من الأهالي أو جاء أهْلُهُ"

وعاد فَحَمَلَهُ فرد الأمن إلى القرية، ليدل الإسعاف على الطريق متى جاءت؛ فقَصَّ عليه، فطلب فرد الأمن أن يرى هاني صلاح، فقال لـ صفوت- زميل هاني في العمل- جاء يُسلم عليه، لمّا شاهدهما يجلسان أمام المسجد:

"اتصل بهاني"

وكان صفوت يفتح مركز للاتصالات بالقرية، فرجع ليخبر: أن زوجة هاني قالت؛ إنَّه ليس بالبيت، وأنا أعتقد أنَّه هناك، ويرفض أن يأتي. فقال لفرد الأمن:

"أرأيت. يرفض؛ وكنا نرجو أن يأتي ليشترك معي في البلاغ وفي كتابة المحضر ولا شيءٌ علينا كما أكدتَّ لي"

قال:

"أنتَ رجلٌ محترمٌ"

وتكْرمة لَّه لمَّا جاءت الاسعاف، أراد أن يجلسه في الأمام؛ جوار السائق، فرفض بشدة، وركب في الصندوق الخلفي، وقبل أن يغلق عليه الباب جرى ابن عمٍ له خلف الاسعاف ومد يده ليعطيه موبايلًا، قال:

"أنا لا أعرف كيف أستخدمه، وأغلق الباب دونه"

فانطلق شباب من القرية يجرون في إثْرهم، فانفتح الباب، وعاد ابن عمه ليقدم إليه الموبايل، وقال يرشده:

"الموبايل لابنة أختك فلانه، افتح من هنا، وأغلق من هنا، وهمّ من سيطلونك ليطمئنوا عليك"

كانت الجثة بعد ما استخرجت من الماء، قد فاحت فَيَحانًا شديدًا، ومن قبل، عندما وصل مع فردي أمن قسم أول، ليدلها على المكان، لمَّا شاهد القطط التي جاءت تحوم حول المكان، ظنَّ القطط عفاريت القتيل؛ فالمكان خُفْيةً وبعيد جدًا عن العمران، فما جاء بالقطط إلى هنا، لا يمكن أن تكون في حقيقتها إلا كذلك؛ عفاريت القتيل، والآن عرف أن من جاء بالقطط من أبعد من ألف متر هذه الرائحة الشديدة، وعاد المأمور يسأله وهو يضع يده على أنفه:

"انظرْ، أتَعْرِفْه؟"

"لا أستطيع أن أقترب"، مجاهد، "أعتقد أنه ليس من عندنا، لو كان من عندنا لجاء أهله ولم يسكتوا." ورأى الجثة عالية ضعفين أو ثلاثة لِمَا شاهده منها في الماء، وذهب بعض الشباب فاقتربوا منها. قالوا:

"لا، ليس من عندنا، لا نعرفه"

فقال له المأمور:

"شاب؛ ٢٥ سنة" فعاد يؤكد:

"لا أدري، فقط، عرفت من سُرَّتِه، ومن الحزام أنَّه جثة"

وعلى الموبايل كَلَّمَ المأمور وكيل النيابة فَدَلَّه على المكان وقفل عبر الحقول عائدًا، يرافقه فردا الأمن، وخَلَّفَاه. فأقبلت أُخْتٌ له وزوجها للاطمئنان عليه، فقال يحثها:

"رَوَّحي"

وقال لزوج ابنة اخته التي بعثت له الموبايل:

"ارجع بهما، واتصلوا بي على الموبايل أطمئنكم، فقط، أروني ثانِيةً كيف يعمل"

فرجعوا بعد إصراره، فوقع مُسْتوحشًا حزينًا يفكر في وكيل النيابة متى يجيء، وهذا الضابط الذي لا تروقه صحبته..

وفجأة جاءه الفرج، توقف ركب المأمور، ونادى أحد فردي الأمن اللذينِ معه على الضابط:

"ابعثْ الشَّيْخ".. وقاموا ينظرونه حتى لحق بهم.

وكان الكشاف خاصته قد فرغت شحنته أو انطفأ فجاء به، فقال أحد فردي الأمن يُعاتبه:

"يا شيخ، لِمَ لَمْ تترك الكشاف ينّور لهم"

قال:

"فَرِغتْ شحنته" ورجع يعبث بأزرار الكشاف يُحاول معه، وهو يسير ليُؤكد لهم، فأضاء الكشاف فجأة، فحزن لحرصه، وأنَّه جاء بالكشاف معه. وركب المأمور فركب معه، ووقف فردا الأمن معهم الكشاف خاصتهم إلى جوار السيارة ينتظرونها تنطلق.

"انتظرا هنا حتى يأتي وكيل النيابة، المأمور، فرافقاه إلى هناك"

وانطلقت بهما السيارة، فأراد أن يأخذ في حديث وُدّي يشعر به المأمور أنه شخص موثوق به ويستنبط: هل هو مُضطرٌ أن يبيتَ الليلةَ بالقسمِ أم يمكنه المبيتَ بالبيتِ، وفي الصباحِ - متى شاءوا- جاءهم، وهَمّ أن يُؤلفَ حَديثًا يُديره كذلك: سيادتك، تعرف مأمور قسم أول، السابق، العميد جمال عبد الراشد، يعرفني، كان يعمل رئيسًا لوحدة تصارح العمل وظللت أكثر من عشر سنوات في وحدة التصاريح أعمل مندوبًا لمديرية القوى العاملة أدقق لهم التأشيرات وأراجع لهم عقود العمل، فقط، سيادتك قل له: تعرف الشيخ فلان، وأردف في نفسه يستبدله بحديث آخر أفضل منه: حضرتك، تعرف المقدم إيهاب بيه السلاب، رئيس وحدة مكافحة جرائم الأموال العامة عندكم، فيه تعاون بيننا في هذا المجال، أنا الآن مدير عام إدارة الاستخدام الخارجي، وزاد كلمة عام، إدارة تختص بنشاط إلحاق العمالة المصرية بالخارج، وكلمَّا همّ أن يبوح بحديثه لم تُطاوِعْه نفسه، واستحْيا

أن يُظْهِرَ جَزَعًا، فاستمر طوال الرحلة صامتًا يفكر، لقد دعا الله في صلاة العشاء: أن لا يَحْرِمَهُ الله من صلاة الفجر جماعةً في مسجد القرية..

وللمرة الثانية يأتيه الفَرَجُ؛ تحدث المأمور إلى الضابط المرابط بالقسم يستحثه، وكانا قد دخلا مكتب المأمور:

"خذ منه كلمتين، واعْملْ محضر، كلمتين قليلتين بسرعة، لا نريد أن نُؤخره." واتصل بوكيل النيابة يستأذنه:

"الرجل تَعِبَ معنا، رَجُلٌ طيبٌ، لو رأيته سَتُقَدِّرُه، رجل محترم جدًا" وأَنصت، فسمع طرفًا من الحوار:

"يأتيني غدًا صباحًا في العاشرة أو في الثامنة، وإن أمكن جاءني الآن حتى لا نتعبه غدًا، لن أُؤخِّره. فذكر ورده الذي لا يفرغ منه في الصباح قبل العاشرة، فقال للمأمور:

"بل أذهبُ إليه الآن"

فعاد المأمور يستحث الضابط إتمام المحضر:

"بسرْعة، وأرسل معه عسكري لا نريد أن نُؤخِرَه" وكان وكيل النيابة قد مضى يعاتبه على عدم انتظاره، ورجوعه من عند الجثة قبل مجيئه فاعتذر إليه في لطف:

"لو شئت جئت الآن عندك، ملابسي كانت خفيفةً وصَقِعْتُ، وهو أنا أقدر"

ولما دخل عليه مجاهد أجلسه، وقال في مودة:

"أتستطيع أن تأتيني بهانئ صلاح، وأيمن محمود؟"

أجاب:

"سأحاول، ولكني طلبتهما قبل مجيئي، أن يأتيَا مَعِيَ فرفضا"

قال:

"إنَّا نرسل للواحد مرةً أو مرتين فإن رفض جئنا به عن طريق المركز، من مصلحتهما أن يأتيا، وإلا جيء بهم والحَديدُ بأيديهم"

وتنفس في راحة، وحمد الله لمّا وصل إلى القرية، وكان الليل قد انتصف. وعن طريق الموبايل؛ اتصل ابن عمه الذي رافقه بسيارته من القسم إلى وكيل النيابة؛ اتصل بهاني، فوجده لم يزل صَحْوانًا يترقب فأخبره:

"الشيخ يقول لك، تتقابلان في صلاة الفجر لتتفقا على كيفية الذهاب لِوَكيلِ النيابة غدًا."

ولمَّا ذهب إلى العمل، وفرغ من ورده- قرب العاشرة - ولم يأته هاني صلاح كما وعد، نهض هو وقال لزملائه بالإدارة:

"أنا ذاهب إلى وكيل النيابة وحدي لأخبره، فسَمِعَ من وراء الشباك من يناديه فنظر فإذا هو هاني تحت الشباك فوق دراجته البخارية، أنبأ:

"أيمن رفض أن يأتي معي" فخرج، فركب وراءه، وتابع هاني:

"بعثت له ابن عمك أكرم، فرفض أن يأتي معه، قال: قال أكرم: بحثت عنه فلحقت به يركب عربتهم الكارو يسرح بها، ما إن اقتربت منه حتى انطلق بالعربة، وصاح وكأن جِنًا مسَّه: أنا لا أعرف، أنا لم أر. وفر هاربًا، ولم ينتظر حتى أطمئنه.. "

وانتظر هاني، وكان وكيل النيابة قد وعد؛ إن جاءه به، سيرجع وهو في يدك، حاول وهات أيمن محمود معه. وخرج هاني فأخبره:

"حَمَلَ عليَّ وكيل النيابة حَمْلًا وهاجمني، أنت ذهبت إلى هناك، أنت شاهدت الجثة، أنت تعرفه. ونظر إلى مجاهد في امتنان:

"لو ضغط على أيمن هكذا سينهار ويبكي" فطمأنه:

"سنرجع وهو معنا، فقط حاولْ أنتَ معه، وقابلني في صلاة العصر، وإلا عدت إلى وكيل النيابة أخبره"

ورأى أيمن بعيني رأسه ابن عمه هاني بشحمه ولحمه لم يحبس، وقد عاد، فأذعن له مُبديًا: أنَّه ذاهب معهما إلى وكيل النيابة غدًا.

* * *

ما أهدأه للسر، وأصْلَحْهُ للبال؛ تَركُ المرء ما لا يعنيه، وأن لا يستقص مَن أَخَذَ ومن لم يأخذ، فيومًا قيل له: يا شيخ، لك مبلغ في المديرية اطْلعْ فاقْبِضْه"

"لي وَحْدي، أمْ لي وللإدارة معي، فراغَ القائل رافعًا يديه علامة الخضوع وترك الإفصاح، وكان جارًا له، وأعرب:

"أيُعْطُوني، فأقل لهم لِمَ تُعطونني، وضحك وتابع، أنا لا أستقصي، فقط، لمحت اسمك بالكشف عند عبد القادر"

فصعد إلى أمين الصندوق، وبينما الأخير يمد يده له كشف الأسماء، سأله:

"أيّ الأموال هذه يا أستاذ عبد القادر؟"

قال:

"قياس مستوى المهارة" ولأنه هذه الأموال كانت توزع على العاملين بإدارة الاستخدام الداخلي، ومدير المديرية، وعلى الوكيل فقط، فلمّا نالَهُ منها، دخل يسأل مدير مكتب وكيل الوزارة. قال:

"يا عم الشيخ مجاهد، خير ساقه الله إلينا نأخذه، وليس لزامًا علينا أن نسأل، فاستدرك عليه:

"كنَّا لا نسأل لأن هذه الأموال لم يكن ينالنا منها شيءٌ، فماذا حدث كي ننال منها اليوم."

قال:

"رُؤيَ تحقيقًا للعدالة أن يُشْركَ فيها مديري الإدارات، وفرد واحد من كل إدارة بالتتابع، اقترح ذلك وكيل المديرية، ووافق السيد وكيل الوزارة."

فسأله عن وكيل الوزارة، وأخبر:

"عندي مشكلة؛ رفضت السفارة السعودية توثيق عقود المصريين المسافرين للعمل لديهم، وطلبت توثيق الخارجية المصرية للعقود أولًا" وكفعل أرنب يمسح عن وجهه عارضًا مُزْعجًا، مسح زاهر وجهه، أومأ بظهر يده في صمتٍ إلى حجرة وكيل الوزارة المغلقة. ففتح مجاهد الباب، ودخل مُتشكِّرًا لعدالة التوزيع الجديدة، وقال يُخْبِرُهُ:

"يا ريس لدينا مشكلة.. وأنَّ لديه جوازات لمواطنين ينتظرون حلًا، إمَّا إعطاؤهم جوازات سفرهم والسماح لهم بالسفر إلى دولة السعودية دون توثيق للعقد بسبب تعنت السفارة السعودية بالقاهرة وإما منعهم من السفر خشية أن تحدث لهم هناك مشكلة."

"اتَّصِلْ بالوزارة، وأشار له إلى أحد التليفونات عن يمينه. فظل يُحاولُ مع الوزارة مُستميتًا حتى فِتِحَ الخط:

"معكم، مدير إدارة الاستخدام الخارجي بالدقهلية، مدير المديرية يريد محادثة مدير عام التشغيل والتمثيل الخارجي لأمر عاجل"

فَتَرِكَوه على الخط حتى زَهَقَ، ثُمّ -دون سابق إنذار- قاموا بغلق الخط فغضب غضبًا شديدًا:

"يا ريس كيف ينبغي لهم ذلك؛ سيادتك مدير مديرية، وهذا الذي نريد مكالمته مدير عام إدارة، فأعرب مسالمًا:

"لن يجدِ معهم التليفون، سافر أنت بنفسك لحل هذه المشكلة"

وسَفَرُ مِصرَ قطعة من العذاب ثلاث ساعات على الأقل غادٍ، وثلاث رائح، لكن رب ضارة نافعة، هذا ما خطر ببال مجاهد، وسَعِدَ بهذه الزيارة المفاجئة التي جاءت على غير احتيالٍ لها، فحاله في الصبر على الشَّوق صار قاتلًا.

فبات واجف القلب، فماذا لو كانت مدام أمنية في أجازة، ورجع لم يرها؟. ودخل على رئيس الإدارة المركزية للعلاقات الخارجية بالوزارة فقالت:

"لا أستطيع الآن أن أكلم معالي الوزيرة، معاليها مسافرة بعد قليل إلى شرم الشيخ لحضور اجتماع وزراء العمل، ارجع أنت إلى المديرية، وبعد انتهاء المؤتمر والرجوع سأكلم معاليها في الموضوع"

"لا أستطيع، جوازات سفر الناس عندي من أسبوع والناس لن تصبر علَيْنا أسبوعًا آخر، لابد من حَلٍّ اليوم للمشكلة."

فلم تنطق مدير الإدارة المركزية للعلاقات الخارجية، ونهضت مرتبكة تبحث عن أوراق تريدها، فعلم أن الاستمرار في حديثها لا طائل منه، فتركها مُتوجهًا مُباشرةً إلى مكتب معالي الوزيرة يُدركها قبل السفر، ولم يكن قد مَرَّ بعد على مدام أمنية، فقال له مدير مكتب الوزيرة:

"اذهب إلى رئيس الإدارة المركزية للعلاقات الخارجية تحل لك المشكلة، لا يمكنك الآن مقابلة معالي الوزيرة، معاليها مشغولة"

"أنا قادم من عند الأستاذة فلانة، لم تفعل شيئًا، لابد من مقابلة معالي الوزيرة، ورفع صوته بالخطاب يناوش، لعل معاليها تسمع، فتسأل، فيجاء به إليها، فتلطف مدير مكتب معاليها:

"معالي الوزيرة في مؤتمر صحفي في الدور العاشر وممنوع الوقوف أمام الباب تفضل هنا اجلس سيادتك في الاستراحة نأتي لك بشاي" فاطمأن أن معاليها لم تغادر بعد فأطاعه.

جلس وعينه على الباب، حتى إذا لحظ حركة غير عادية بالطرقة، وبدأت الهرولة، علم أن معاليها تُشْرفُ قادمةً، فترك الاستراحة ووقف جنب ضلفة الباب ووقف معه شخص آخر. وأقبلت معاليها ومدت يدها تسلِّمُ، فخشي؛ إن لم يمد يده -وكان لا يصافح النساء- وهو ذو لِحيةٍ، تعتقدَهُ مُتطرفًا، فترفض أن تقابله، فمد يده على استحياء فسلم، فدلفت مُسرعةً ودلف في إثرها الشخص الذي كان يقف معه، فلمّا هَمَّ بالدخول، منعه مدير مكتبها، فصاح يُسْمِعُها:

"لا تمنعني من الدخول" فالتفتت فرأتهما، فقالت بكلمة واحدة زاجره:

"سِيبه" فرفع ذراعه عن الباب فجأة كأنَّه لُسِعَ، وكان قد عَرَّضه ليحجبه، فتركه يمر.. يـااه، الحجرة، واسعة كالجُرنِ؛ ذكَرَ مجاهد في نفسه، وكانت معاليها قد

جلست وأشارت لهما، فجلس يشاهِدُ المكتب الطويل اللامع، بنش، وجلس تلقاءه في الآخر صالحٌ، ووضعت معاليها زوجين من الموبايل أمامها، وكان قد تَعَرَّفَ على صالح، رئيس شعبة شركات إلحاق العمالة، وعرف أنه قَدِمَ، أيضًا، لنفس المُشكِلة، فتريث وتركه يتكلم، وأخذ هو يتفرّج، فاستفتح صالح مُتَزَلِّفًا:

"معاليكي متى تشرفينا في شعبة الشركات، ظللنا مشتاقين للقاء بشدة ونريد أن نأخذ من معاليكي موعدًا الآن، معاليكي وعدتِنا بهذه الزيارة"

"أنا مشغولة يا صالح، أرجع من مؤتمر شرم الشيخ، ونبقى نحدد ميعادًا للزيارة"

فتحدث، فأخبر عما فعلته السفارة السعودية تلقاء الرعايا المصريين المسافرين للعمل لديها، فاستدركت تسأله:

"وأين هي المشكلة!"

"معاليكي الخارجية المصرية رفضت توثيق العقود وطلبت تفويضًا للمديريات من الوزارة"

وكان مجاهد قبل مجيء معاليها قد اتفق وصالح، تسهيلًا على الناس وسرعة للإنجاز- أن لا يَصْدرَ التفويض لمديري المديريات لكثرة مشاغلهم وقلة تواجدهم بالمديريات، وأن يصدرَ التفويضُ مُباشرةً لمدير الإدارة المختصة- الاستخدام الخارجي- مع فرد ينوب عنه حال غيابه عن الإدارة. فنادت معاليها في حسم، وقد تفهمت الأمر:

"هاتوا لي فلانة" وإثر النطق باسمها، وكأنما فلانة هبطت من السماء أو كانت تقف خلف السِّتارة، هَرعت إليها في اللحظة والتو فزجرتها الوزيرة:

"لِمَ لَمْ تُنه هذا الموضوع؟"

"أعددت به مذكرة للعرض على معاليكي هذه، فقط تحتاج إلى اعتماد معاليكي، وبسطت المذكرة للتوقيع، فأمرتها الوزيرة:

"بسرعة يُتَّصلْ بالمديريات"

وأَسِفَ مجاهد جدًا لصاحبة المؤهل العالي التي مضت أصابعها ترتجف بينما هي تبسط على عَجَلٍ المذكرة لـ معالي التي لم تحصل إلا على الابتدائية القديمة، كي تُمْهرها بالتوقيع.

واستأذن صالح، ومَكثَ هو جالسًا يَرْقُبُ سكنات وحركات الوزيرة، فَشَهدَ هذا الاتصال، رَنَّ أحد الموبايليّن، وسُمِعَ جانبًا من المكالمة، كان وزير المالية، يستفسر عن الدّفَعِة المزمع صرفها للمصريين أصحاب الحوالات الصفراء بسبب الغزو الامريكي للعراق المُتَأخِر صرفها للمواطنين حتى تاريخه، فلم تدر معاليها، فأسرع يُلَقِّنها:

"حوالات شهر أغسطس عام ٩٠... فردَّدت الوزير تلقينه، ثم نظرت إليه في شكٍ، وسألت وزير المالية:

"لحظةً معاليك، أستوثق للأمر، ونادت مدير مكتبها فأكدَّ لها، فأكدت للوزير المقالة.

وتبين لمجاهد من تشكُّكِها أنها لا تذكره فعرفها بنفسه:

"...، مدير إدارة الاستخدام الخارجي بالدقهلية، فلان" وأطلعها ما وراءه:

"بخصوص مشكلتين معاليكي، الأولى حُلَّتْ منذ قليل مشكلة السفارة السعودية، وبقيت واحدة، وأسرع في العرض، نموذج الاستخدام المعد لراغبي السفر للخارج الذي تعلن الوزارة عن وجوده، وكثرة تردد المواطنين الذين يسألون عنه

بالمديريات وبمكاتب البريد لإدراجه ضمن الأوراق التي يتقدم بها المواطن للفرص التي تعلن عنها الوزارة للسفر للخارج، النموذج لا وجود له لا بالمديريات ولا بمكاتب البريد، النموذج مستقر في مخازن الوزارة، وأخذ يُحدثها عن إمكانية استخدامه في ضبط أداء شركات إلحاق العمالة، بسبب تهربها من تسجيل فرص العمل التي ترد إليها من أصحاب الأعمال بالخارج، وعن كيفية صرفه للمواطنين من المديريات في حالة توفره دون تلاعب، بعد دمغه بخاتم، يُصرف مجانًا، فَقَطَعَت حديثه:

"أنت رجلٌ أمين وغيرك ليس بأمين، أنا مشغولة بالسفر؛ اذهب للِّواء سيد، واعرض عليه مقترحاتك"

وأمرت مدير مكتبها:

"خذه لِلِّواء سيد"

فانصرف يحدث نفسه؛ وقد أسِفَ: تعرض المشكلة في إيجاز ولغة بسيطة، فلا تستوعب وزيرة، وتقطعْ: هـ يقع فساد، ه تُباعُ النماذج المجانية للمواطنين، أنت رجلٌ أمين وغيرك ليس أمين. وتساءل دَهِشًا، ما دخل الأمانة هنا؟ وبينما هو ماضٍ في ذلك، جاءه صوتُها المُشَجِع:

"أعرف أن الدقهلية مُحافظةً نشيطَةً" وابتدرته مدام أمنية تعاتب:

"والله، وأراد أن يهتف بحق: وها أنا ذا قد أقبلت، والله، ما أقبلت إلى الوزارة إلا للقاك. ودرءًا للمفسدة أَمْسَكَ ودقق بدلًا منها هذه العبارة:

"جئت لِأُسَلِمَ عليكِ، والله، مَنْ يَومِها ما جئت إلى الوزارة"

كانت قد قامت فرحة نشيطة. فعادت به إلى الحجرة، وكان قد ذهب يتحسَّسُ عنها، لمَّا وجد الحجرة مهجورةً، فقال يُخبرها:

"أنا قادم من عند الوزيرة"

"خير"

"كانت هناك مشكلة"

وجلس جنب المكتب مُتكئًا بمرفقه على حافته الأمامية ذاهبًا ببصرهِ بعيدًا، وجلست هي إلى الوراء، يساره، خلف المكتب قليلا:

تخيلي أحدثها بخصوص نموذج الاستخدام الخارجي الذي تعلن الوزارة أنه بالمديريات ومكاتب البريد، وهو، لا بالمديريات، ولا بمكاتب بالبريد، بمخازن الوزارة، وأقول: نعطيه فقط للمواطن الذي تنطبق عليه شروط الوظيفة التي تعلن عنها الوزارة، بناءً على تقديمه للمستندات التي تؤكد صدقه، وتحتفظ المديرية بصور هذه المستندات للمراجعة، وكتابة أسماء المواطنين الذين يتم اعطائهم النموذج، بسجل يقوم المواطن بالتوقيع به أمام اسمه عند استلام النموذج، وختم النموذج بخاتم يصرف مجانًا احترازًا من البيع فتقول:

"أنت شخص أمين وغيرك ليس أمين، فأي مجال الأمانة هنا!. قالت:

"من يتعامل معك؛ يتأكد له أنَّك أفضل من هذا، فغَشَتْ رَوْحَهُ السعادة، واستكمل في نبرة خاشعة حميمة:

"هذا النموذج موجود في مخازن الوزارة منذ أكثر من عام ولم تضع له الوزارة أي نظام للصرف، ولم تكف عن الترويج له في وسائل الإعلان حتى هَوَسَ الناس، فقاموا علينا، جماعات وفرادى. كيف بالله، تتمكن من لم تحصل إلا على

الابتدائية تصريف وزارة، أو تستحوذ على موظفين أعلى منها مؤهلا وكفاءة، قالت:

"سمعت أنَّها ماشيه؛ تعني ذاهبه عن الوزارة الجديدة، وقالت هؤلاء هم أهل الثقة، ابنتي قالت إنها شاهدتها على النت تقبل يد سوزان مبارك، فردد، ولم يوقن:

"معقولة؛ كي تظل وزيرة! وقال:

"بينما أنا خارج من عندها شيعتني تقول، أعرف أن مديرية كذا، نشيطة، فضحكت مستبشرة:

"هي إن وضعت في رأسها أحدًا لن تتركه، ستأتي بك هنا بالوزارة"

فعلم أنها تأمل كما يأمل، فأفرحته تلك البشارة.

* * *

الفصل الحادي عشر

لم يَصْبِرْ مُدَّعو العدالة على القَدْرِ الضئيل منها! ففي الشهر التالي انتظر أن يُخْبِرَ أن أموال قياس مستوى المهارة خرجت من الحسابات ووصلت أمين الصندوق، فانقضى الشهر، وَدَخَلَ الشهر التالي، فسأل مدير إدارة بحوث العمالة القائم على التوزيع، فضحك:

"يا شيخ، اسألْ عن الشهر الحالي، قُبِضتْ منذ أسبوعين"

"لم يُخْبُرني أحدٌ، أكنُتُ في الكشف معكم؟"

"لست أذكر، اسأل عند عبد القادر، الذي يضع الأسماء فلان وفلان، وذكر مدير المديرية ووكيلها، فصعد المديرية، وسأل أمين الصندوق فلم يجد اسمه في الكشف، وكان قد ظَنَّ أنّه قبضها لنفسه، كما فَعَلها أمين الصندوق السابق معه، ووجد في الكشف من أسماء مديري الإدارات اسمًا حَفِظَه، كان يعلو اسمه مباشرةً في الشهر السابق، وكانا آخر اسمين في الكشف، فأُقْصي هذا الشهر وَحْدَهُ، من بين أسماء مديري الإدارات، ذلك ما استنبطه من البحث، فتوجه إلى وكيل المديرية غضبانًا:

"وهل أنا لست مديرًا معترف به؛ لِمَ يرفع اسمي هذا الشهر من كشف قياس مستوى المهارة؟" وقام إلى جواره تحف ثيابه بثيابه ليُلطف من غضبه الذي تحدث:

"لست وحدك"، الوكيل، "اتفقنا أن نراوح بين أسماء مديري الإدارات شهر وشهر، لينتفع الجميع، وسأل:

"قُلْ اسمًا واحدًا نزل هذا الشهر، وكان بالشهر الماضي"

"فلان، أجاب على الفور، مدير التفتيش المالي والإداري، نزل اسمه هذا الشهر، وكان معي الشهر الماضي." فَدَرأَ الوكيل التهمة عن نفسه: "الله يخرب بيِتك يا فلان" وذكر مدير إدارة بحوث العمالة، "هو من وضع الأسماء."

"وفلان هذا يقول، أنتم من يضع الأسماء في الكشف."

قال وكيل المديرية:

"سأبحث في الشأن"

فلم يهدأ بالُ مجاهد، فبحث أيضًا في الشأن، وَبَحَثَ القصة بِرُمَّتِها، فعثر بالقرار الوزاري الصادر بخصوص توزيع هذه الأموال، وكان قد أُخْفِيَ تمامًا، إلا من ثلاثتهم، مدير المديرية ووكيلها ومدير إدارة بحوث العمالة وكانت المفاجأة: ألا يجاوز ما يحصل عليه الشخص من مجموع أموال قياس مستوى المهارة وأموال التدريب والحرفة عن ٤٠ % من أساس الراتب كحد أقصى للشخص؛ نص القرار الوزاري.

فنظر في أساس رواتب الثلاثة فوجده لا يكاد يبلغ الـ٥٠٠ جنيهًا، في الوقت الذي يتحصل كل واحد منهم من أموال قياس مستوى المهارة وحدها على ما يقرب من ٥٠٠ جنيهًا ويحصل على مِثلها من أموال التدريب، والحرفة، أي أنَّهم يحصلون على أكثر من أربعة أضاعف ما يستحقون. وزاد الطين بِلةً اكْتشَافُه أنهم أقصوه وإدارته من أموال النشرة القومية للتوظيف، مجلة شهرية تصدرها

الوزارة لفرص العمل في الداخل والخارج، تُباع للجمهور، تنفد بمجرد صدورها لتهافت المواطنين راغبي السفر على شرائها، ومُريدي فرصة عمل بالداخل، والمضحك أن فرص العمل هذه عندما تُنْشَرُ يكون قد مر عليها ثلاثة شهور من وقت إمداد المجلة بها، ممّا يجعلها فرص عمل وهمية، ويتصل المواطنون بشركات إلحاق العمالة المُعْلن عنها تلك الفرص فيجدونها شُغِلَتْ أو سافر عليها آخرون لأن الإعلان يجيء متأخرًا. كما أن هذه الفرص ليست فرصًا متاحة كالزَّعْمِ بل - في الغالب- هي لأشخاص بعينهم جاءهم بها ذووهم في الخارج، وأن دَوْرَ تلك الشركات التعقيب فقط، أي الحصول للمواطن على تأشيرة دخول من السفارة على جواز سفره، فهم بدورهم لم يطلبوا الإعلان عنها.

والخطأ يجيء أنّه وزملاءه في إدارة الاستخدام الخارجي لا يستطيعون أن يفرقوا بين الطلبيات المُسَمَّاة التي تقوم تلك الشركات بتسجليها لديهم، وبين الأخرى غير المُسَمَّاة التي تجلبها تلك الشركات بنفسها من الخارج، وهي فرص عمل حقيقية متاحة، مطلوب اختيار من يُسافرُ عليها، وعَدْلًا في القول، لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي جعله يَمْدُّ النشرة القومية للتوظيف بكل ما يرد إليه من طلبيات مُسَمَّاة، وغير مُسَمَّاة لأنه يصعب التفريق بينها، بل لأنه كَلَّمَ مدير إدارة بحوث العمالة - المطبخ الذي تطبخ فيه جميع الأموال التي ترد للمديرية كحوافز ومكافآت، وهو شخصٌ كتومٌ- أنتم تبخسوننا حقنا، المفروض أن نَّأخُذَ نصف المبلغ الذي يرد للمديرية من النشرة القومية للتوظيف، إننا من يُمول النشرة بفرص العمل في الخارج، وأنتم تختصون بفرص الداخل، فكانت الإجابة:

"أنا أعطي ما أعطي على قدر عدد الحالات"

فأمر زملاءه: ابعثوا لنشرة التوظيف بكل ما يرد إليكم من طلبيات مسماة وغير مسماة كي نَحْصُلَ على حقنا، فماذا نفعل! هؤلاء كلما سددنا عليهم بابًا للنَّهب

فتحوا غيره، أَضِفْ إلى ذلك أن ما يرد لإدارة بحوث العمالة من فرص عمل بالداخل بالآلاف، تجيئهم من جميع مناطق المديرية الست على مستوى المحافظة- يَعْرِفُ أنها بيانات غير دقيقة بالمرَّة، وأنها فقط لإمداد المسئولين، ليُدْلوا بها إلى وسائل الإعلام، لإظهار جهدهم الجهيد لَدَى الرئيس، ويبقى الحال على ما هو عليه؛ كلٌ لصق منصبه لا يتتعتع، فها هي فرص عمل كثيرة بالداخل والخارج مطلوب شغلها، لكن ثقافة؛ إن فاتك الميري تَمَرَّغ في ترابه، فالكل يأبى أن يشعر بالأمان إلا أن يكون موظف حكومة، مهما يكن راتبه مُتَدَنِّيًا، يعرضون عن العمل في القطاع الخاص، أمّا مسألة تدني راتب الحكومة فيمكن تدبيره بالعمل بالقطاع الخاص، بالاحتيال على الضمير، والتزويغ، يقول الموظف لضميره: على قَدِّ فلوسهم، وأنهم مُضْطرُّون للذهاب للعمل في القطاع الخاص وقت الوظيفة. وسأل في الحسابات عن النشرة القومية للتوظيف فقيل له:

"جاء بخصوصها حتى اللحظة شيكان، شيك بكذا وشيك بكذا تم صرفهما؛ فدخل على مدير المديرية غضبان غضبًا شديدًا:

"سيادتك، ورد للمديرية من النشرة القومية للتوظيف حتى اللحظة شيكان لم تحصل إدارتي منهما على شيءٍ، والمفروض أن لنا من هذه الأموال النِّصْفُ، ففرص العمل التي تمول بها النشرة، فرص عمل للداخل والخارج، والإدارة الوحيدة التي تصدر عنها فرص عمل للخارج إدارتي، وقال لي فلان- مدير إدارة بحوث العمالة- أنه لاحق لنا فيها، لأن الجهة التي ترسل إلى المديرية أموال النشرة، الإدارة المركزية لسوق العمل رئاسته هو، فلا نصيب لإدارة الاستخدام الخارجي في هذه الأموال، ولنبحثَ عن نصيبنا في أموال النَّشرة عند رئاستنا نحن. وهذه مكاتبة نبعث بها إلى الوزارة، تصدق أو تكذب ما يقول. فتوقف عن التوقيع فورًا، وكعادته أخذ يفرك السبابةَ بالإبهام حيران. قال:

"بالأمس فقط وصل من الوزارة شيك، أعوضك أنت وإدارتك منه عن المرتين السابقتين وأرضيك فلا حاجة لمثل هذه الرسالة"

فاستمر يناوشه، وكان قد ذكر في المكاتبة المعروضة على سيادته: أن إدارة الاستخدام الخارجي لم تتحصل حتى تاريخه على شيء من أموال النشرة القومية للتوظيف.

ولأنه سعى كثيرًا حتى حصل على القرار الوزاري، أمده بصورة منه مدير تفتيش عمل أول سابقًا، عضو أمانة سياسات الحزب الوطني بالمحافظة رفعته الوزيرة حاليًا إلى مدير مديرية من الدرجة الثانية بدرجة مدير عام، أوصاه ألا يعلن عن مصدر حصوله على القرار، فانتفض مدير المديرية، وأفاد في نبرة قاطعة:

" نصيبي من جملة ما يرد للمديرية من أموال يحدده القانون بـ١٠% ولكني أتنازل عن جزء من نصيبي كي أُطْعِمَ الآخرين فاستفزَّ مجاهد هذا الكذب فردَّ في حدة:

"وأنا لا أحب أن ينالني شيءٌ من نصيب الآخرين، برجاء من الشهر القادم أن يرفع اسمي من كشوف قياس مستوى المهارة."

وقام من عنده وقد بيت في نفسه أمْرًا؛ احتال له بسفرة إلى الوزارة، يراجع فيه الادارة العامة لشئون المديريات في هذا الشأن، وزيادة في الفاعِلِية قادته مدام أُمْنِية إلى الأستاذة مدير عام شئون المديريات، فتمكن من الجلوس عندها ومن الاهتمام والحديث الودي المباشر، وقدمته إليها:

"الأستاذ فلان زميل عمل بالـمديرية سابقًا، عملت معه لأكثر من عشر سنوات في إدارة واحدة، فطلبت سيادتها أن يتقدم بشكوى مكتوبة يذكر فيها بعض هذه الأرقام التي حصل عليها كل من مدير المديرية ووكيلها ومدير إدارة بحوث العمالة من

أموال قياس مستوى المهارة وأموال التدريب والحرفة، فكتب أعلى الأشهر مبلغًا، فوعدت أنها ستنظر بجدية في الشأن، فقال لـمدام أمنية مُتحَببًا، وطمعًا في ظهير له في الوزارة: "متى تحصلين على درجة وكيل وزارة لقد استحققتها؟"

فأخبرت:

"هذه الأشياء تُدْفَعُ فيها، وأنا لا أقبل أن أكون مسؤولة لا تستطيع حماية مرؤوسيَّ والدفاع عن حقوقهم."

فارتفع عنده قدرها، وإن أَسِف على ضياع ظهير قوي له بالوزارة.

وبعد أيام أُعْلن بشكلٍ مفاجئ عن خبر انتهاء فترة بقاء مدير المديرية الحالي، وعودته لـمحافظته التي خلى بها مقعد وكيل الوزارة، وقد قضى سيادته هنا عامين غريبًا عن بيته، وقدم لمعالي الوزيرة شهادات طبية تفيد انحطاط شديد في قواه، واحتياجه إلى عناية بيتية فائقة للعَوْدِ إلى قواه الطبيعية، فحصل على الموافقة بالنقل، فسرى بالمديرية خبر أن مدام أُمْنِية هي المرشحة للمجيئ وكيلًا للوزارة، تولى إذاعة الخبر أحد أفراد نقابة العاملين بالمديرية يسافر إلى الوزارة.

ورغم حديث مدام أمنية معه بهذا الخصوص، إلا أن الإشاعة أفرحته، فأخذ في حديث بهيج مع النفس: وأنه سينعم بالقربى، وسيحرص كل يوم أن يتولى بنفسه عرض شئون الإدارة عليـها، وكذا يتاح له الحديث الودي والمشاهدة اليومية، ويرتاح قلبه فترة، ولو جاءت بعدها نهاية، ولا شك أن مدام أُمْنِيَةُ سترسل في طلبه للصعود إلى ديوان المديرية إذا أبطأ استحياءً من كثرة الصعود للمديرية. ولمَّا اقترب موعد رحيل وكيل الوزارة، اتصل به زاهر:

"يا عم الشيخ مجاهد، معك فلان، مدير مكتب السيد وكيل الوزارة، كيف الحال، طبعًا ستشارك في الحفل الخاص بتكريم السيد وكيل الوزارة وستكون لك كلمة، وننتظر مشاركة الإدارة، ففاجأه برد عنيف:

"أنا أعتبر الأموال التي تجمع من الموظفين لهذا الخصوص حرام، جباية، سأحيط الزملاء علمًا، ومن شاء أن يشارك فليشارك، أما عنِّي فلن أشهد هذا الحفل، لو حضرت سأتكلم في موضوع قياس مستوى المهارة فعدم حضوري أفضل لي وله، فأنا لا أجمل حديثي ولن أقول غير الحق، فليرحل دون أن يُشاهدَ كلانا الآخر، ولا مانع عندي من تكريم شخص لم يكن ذا سلطان جبرًا للخاطر، دون أن يجبر أحدًا على المشاركة بالمال"

"يا عم الشيخ فلان، هذا عمل اعتاده الناس في سائر المديريات، فليس فيها شيءٌ أن نقوم بتكريم زميل في نهاية خدمته ونقدم له رمزيًا بعض الهدايا".. ثُمَّ عاد فاتصل:

"يا عم الشيخ مجاهد، عرف السيد وكيل الوزارة بِمَقالك وأنك لن تحضر الحفل فقال: هؤلاء هم المشايخ، أهكذا تكون طاعة ولي الأمر؛ وهل لو بقيت وكيلًا للوزارة هنا أكان موقفه يكون كذلك"

وَعَلِمَ من السائق الذي رافقه رحلة العودة؛ أن وكيل المديرية قاده إلى مطعم كباب ولحم مشوي فخم على المشاية، قرب الجامعة، وأنَّه حُمَّلَ بعربتين من الهدايا، إحداها سيارة المديرية الشاهين التي قادها السائق، والأخرى سيارة غمارتين جاءت من المديرية الذاهب إليها وكيلًا للوزارة. قطعوا أكثر من مئتي كيلو، حتى وصلوا بيته، فتوقع السائق أن يُكْرَمَ منه، وأن مبلغ الإكْرام لن يقل حال عن خمسين جنيه، يرجع بها إلى عيالة بعد هذا السفر الطويل الشاق، ولعامين مرافقة لسيادته خاصة بعد أن خاطر بالسفر بالسيارة، واحتمال ضبطه بالطريق

وتعرضه للمسائلة. وما أن تَمَّ حمل الهدايا ونقلها للبيت، وقبل أن تقوم السيارة الأخرى بتفريغ حمولتها بادر سيادته فقال للسائق يستحثه:

"أتعرف كيف تخرج من البلد يا أحمد؛ وتعود إلى الطريق السريع أم أرسل معك فلان، يخرجك- سائق المديرية الجديد- لولا إرادتي لكما الرجوع مُبَكْرًا ما تركتكما تعودان الآن. سنتواصل في المستقبل بالتأكيد، لن تكون هذه آخر زيارة." فردَّ السائق:

"أعرف الطريق جيدًا سيادتك"

"إذًا عَجِلْ والشمس طالعة والطريق لازال بَيِّنًا"، وأخذ يعبث في جيبه، ومال على وكيل المديرية يسأله: كَم أعطي أحمد؟"

"أنا أراضيه يا ريس."

فَأرجئ هذا العطاء حتى نهاية طريق العودة؛ أخرج وكيل المديرية من جيبه عشرين جنيهًا أعطاها السائق بشيء من التَّفَضل، بعد رحلة ذهاب عصرًا ورجوع في الثانية عشرة، منتصف الليل، أوْصَلَه فيها السائق إلى بيته على كفوف الراحة. وانقلب إلى بيته مَهْدُودًا حانقًا يسب أمَّ، مدير المديرية البخيل الذَّاهب ويسبُّ أُمَّ الأهوج الذي يخلفه بالإنابة.

* * *

لم يكن قد مرَّ على موضوع القتيل وقتًا طويلًا حين خرج مجاهد بسرعة من المسجد، فعبر الرصيف، ونزل إلى الشارع قبل أن يستوقفه أحد فيعيقه عن النَّوم، وكان عائدًا من العمل، وكان الوقْتُ وقتَ نومه، فإذا بصوت يأتيه، التفت؛ ولمّا لم ير شيئًا، رجع يسير، فأشارت له سيدة جالسة بالشارع إلى مصدر الصوت،

فاضْطِرَ إلى التوقف، واستدار، فرأى شخصًا غريبًا يسعى إليه، فَحَسِبَه أقبل لفتوى أو مصلحة فتوجه إليه هو، ليُشْعره أن هذا وقت لا يمكنه اسْتِضَافَة أحدٍ فيه، ورجع فوقف أمامه، فليسأل، ونظر إلى الشخص لعله قد سبقت له رؤيته. فقال الشخص:

"لم يسبق لك رؤيتي؛ فوافقه بإطراقة من رأسِهِ، فتابع الشخص، جِئتُ لأشكرك، أنا والد الشاب الذي أبلغت عنه. وَصَفُوكَ لي، وعلمت أنك من هذه القريـة، فتأكد لي، أنَّه لا بُدَ أن تكون مَنْ أخذته الشفقةُ بولدي ورفضت أن تتركه في الماء، أنا أعرفك من حين كنت تسير بالطريق تقرأ بالمصحف." فحرَّكَ شجونه للماضي، ولتلك الواقعة؛ ورؤية جثة إنسان طافيةً فوق الماء رَهِبَ الفلاحون الإبلاغ عنها، فتركوها في الماء قرابة عشرة أيامٍ، فنهض يُعَزيه:

"غفر الله له، وآجركم فيه خيرًا، وتَذَكَّر: أنه كان قد عزم الذهاب إلى أهله لِيُعَزِّيَهم، لولا خشية تردُّدُه عليهم، وليس لهم به سابق معرفة، فيُوقع نفسه في دائرة الشك، ما جعله يترك تلك الزيارة. وقال الأب:

"كان ابني طالبًا في كلية اللغة العربية فتعثر سنوات، فحوَّلتُ له إلى كلية أصول الدين، فنزلت به حالة نفسية، فكان يمشى في الطرقات، وأعاد، جئت لأشكرك، فأعاد عليه صيغة العزاء الكاملة:

"لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بمقدار، غفر الله له، وآجرك فيه خيرًا، وصمت، فاستأذن الأب فأذن له"

لم يرتح للنبرة الهادئة التي تحدث بها هذا الوالد عن ولده؛ كأنَّما جاءه الفرجُ بموته، ولم يطمئن أن هذه هي الحقيقة، لقد بدا حَفيًّا بي أكثر مما آسى على ولده، وتساءل، وكان قد تناقل الناس بعد دفنِ الجثة: أبوه أبٌ قاسٍ علي بنيه كافةً، وكان

كثيرَ الضرب لابنه هذا بسبب عدم توفيقه في الدراسة، وكان يضطره إلى ترك البيت والتغيب أسابيع فيدَعَه، وعلم أن الأمَّ متوفية فاشتد حزنه على مصير ذاك الشاب.

لقد هَرْوَلَ لينام لكن النوم تركه؛ كان الصراع في القرية بينه وبين فرد الإخوان على أَشُدِّه، استحوذ على إمام المسجد، وظل ينفث فيه من سَمِّه وحرضه ضِدَّه، فتحدّث: أن الإعلان عن الدرس، ثمَّ انتظار حتى يقضِ الناس الصلاة طريقة خاطئة، والأفضل العودُ لإلقاء الدروس عقب تسليمة الصلاة مباشرةً قبل انصراف الناس، وأنَّها الطريقة المجدية، وقد جَرَّبَ انتظار فراغ الناس من الصلاة، فلا يُشَوِّشُ على المصلين وهم يصلون كما حدَّثَه هو، فلم يجلس أحد، فعاد للحديث مباشرةً عقب التسليم، كمن يحمل على فريسته قبل هروبها، ورجع يستخدم مكبرات الصوت الخارجية في الدرس وفي الصلاة الجهرية، يُزعج صويحبات البيوت اللائي يصلين في بيوتهن والنائم، فقام مُنصرِفًا عنه ليعلَمَه غضبه، وأعرض عنه، وترك الحديث معه.

وكان موضوع تحديث شبكة مجاري القرية قد فشل؛ جاءت الدراسة الأمنية مُخيبة للآمال بعد زمن طويل، وانصراف المقاول نهائيًا عن تنفيذ المشروع خشية اعتداء الأهالي على مُعداته، بثَّ فرد الإخوان كُلَّ هذه المعلومات لإمام المسجد، وزاد بأن شخص مجاهد هو أُسُّ البلاء الذي تموج فيه القرية، فَظٌّ في طريقة دعوته. فارتأى خطيب الأوقاف أن يقوم بتناول الموضوع على المنبر في اجتماع الناس يوم الجمعة، وجعل هذه القرية الظالمِ أهْلُها عنوان الخطبة، وعاد وزاد، فذكر اسم مجاهد صَريحًا وقَرَّعَه، وأنَّب الجميع على ضياع ما يقرب من نصف مليون جنيه خسارة شبكة المجاري؛ بسبب تعنت شخص مجاهد، وعاب سلوكه الشائن المخالف للهدى، يدخل المسجد فلا يُكلِّمُ ولا يسلِّمُ، ويظل قائمًا يدعو حتى

يأخذ المؤذن في إقامة الصلاة، لأن الدعاء بين الآذان والاقامة لا يرد. فأثار نفـــرٌ من الكارهين إمام المسجد على هذا السلوك الغريب، والحديث الذي لم يشاهدوا أيًّا من أئمة الأوقاف يعمل به كذلك، وأن من الأدب مع الله إذا دخل المرء المسجد ألا يسلم، ولا يُكلِمُ حتى يُحَيي الرَّبَّ أولًا بصلاة ركعتين تحية المسجد، فإذا قدَّرَ أن الوقت لنْ يُسْعِفْه للركعتين أمسك عن التحية، واشتغل بالدعاء حتى تُقام الصلاة، فأخذت الحمية أمام المسجد وانطلق في تقريعه غافلًا، أو متغافلًا؛ إن كان لمجاهد بعض أعداءٍ، فلن يعدم مُحبين ولا أقارب.

وسمعت بناتُ إحدى أخواته اسم خالهم يُعَرَّضُ به على المنبر فانْطلقنّ للذّود عنه، هو عندهنَّ القُدْوة الحسنة، وأنَّ كل ما قيل عنه ليس سوى محض افتراء وكذب، ووصلن المسجد، وما أن سَلَّمَ الخطيب، والتفت يُواجه الناس حتى اشتعل المسجد بمن فيه، وقام نفرٌ ليس بقليل لينال من الخطيب لولا أن اقتيد إلى حجرةِ الإمامِ وأُغْلِقَ الباب عليه، بعد أن ناله من الإهانة بعض ما يستحق.

وانسل فرد الإخوان خارجًا من المسجدِ، يتلفتُ ويضحكُ، قبل أن يناله أذى من الذين يرونه أُسَّ البلاء جميعه، وترك المسجد يموج الناس فيه بعضهم في بعض، ووصل الأمر إلى التدافع بالأيـدي وكادوا أن يقتتلوا. وقال زوج ابنة أخت مجاهد الصغرى لنائب السائق الذي يصيح على ميكروباصه جديلة، جديلة، أنت رجل كبير وعايب، لولا أننا في المسجد لأريتك شُغلك جيدًا، فانسحب يُقسمُ ويُتأتئ: والله ما لي دعوه بالموضوع، الموضوع أثاره إمام المسجد. فرجع بنات أخته قريرات العين بما شاهدن من دفاع الناس عن خالهن وثورتهم من أجله.

و شَرَّق خطيب الأوقاف وغرب ومضى يشتم في الجميع: هذا الذي قد بلغ من العمر أرذله الذي على المعاش، الذي في قلبه مرض، ولم يأذن الله له أن يهتدي، يشكو من سماعه صوت الميكروفون والقرآن في الصلاة والدَّرس الذي ألقيه

يومين فقط من كل أسبوع، في الوقت الذي يُجالس التلفاز ليل نهار، يُشاهد مسلسلات الفسق والعُريّ والفجور ومباريات كرة القدم، فلا يمل ولا يضجر، بل يستبشر، فصدق قول الله فيه: "إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ"

والشباب الضال الذين يتركون سماع الدرس ويخرجون ليقفوا جماعات وفرادى يتحدثون في اللهو والهزر أمام المسجد، فقال مجاهد لمحدثيه:

"يعني؛ فاض وزاد، سآتيكم بعريضة أذكر فيها ما حدثَ، نرفعها لمدير الأوقاف تجمعون عليها التوقيعات لرحيله، ومحاسبته، فهناك فتوى المفتي بتحريم استخدام مكبرات الصوت الخارجية في غير الأذان والإقامة، وقرار وزير الأوقاف بالمنع، ونهوض هذا بالمخالفة وقد نصحت له، فقال: ليس في المفتي، ولا وزير الأوقاف من كبير يطاع، ليس لي فيهما قدوة"

في هذه الآونة، قبل الانتخابات التشريعية والانتخابات الرئاسية، ظهرت دعوى (معًا سنغير) التي أطلقتها الجمعية الوطنية للتغيير التي أسس لها د. البرادعي، طاف ربوع مصر في مأمن تام من الملاحقة الأمنية بسبب ما يتمتع به من حصانة دُولية، يَصْحَبُهُ شخصيات عامة وصحفيُّون ومُهتمون بالشأن السياسي يحرضون الناس ضد مبارك وضد التوريث، ويجمعون التوقيعات على ورقة.

(معًا سنغير) أوافق أنا:

وعنواني:

ورقم هويتي:

على بيان الدكتور البرادعي معًا سنغير الذي يؤكد على أن باب الجمعية الوطنية للتغيير مفتوح لجميع المصريين في الداخل والخارج الذين يتفقون على ضرورة التغيير، وذلك بتحقيق فرصة متكافئة في الانتخابات الرئاسية، وتوفير الضمانات الأساسية لانتخابات حرة ونزيهة، ويستلزم ذلك ضرورة تعديل المواد ٧٦، ٧٧، ٨٨ من الدستور في أقرب وقت ممكن.

التوقيـع أو البصمة (الإبهام الأيمن)

صورة البطاقة

* * *

وما نَيْلُ المطالِبِ بالتَّمَني ولكن تُؤْخَذُ الدُنْيًا غَلابًا، ففي نوفمبر ٢٠٠٨ في مؤتمر الحزب الوطني الخامس بدا أن المؤتمر لتلميع جمال مبارك، على حد قول أحد الكتاب بجريدةٍ معارضةٍ، وجاء بالمقال: فما حدث في فاعلية المؤتمر يؤكد أنه الحاكم القادم لا محالة وأن مصر عادت لعهد الملكية، وعلى طريقة عاش المَلِكُ يَحْيا المَلِكُ، قام أحد أعضاء الحزب الوطني عضو مجلس الشورى ليقول لجمال مبارك رأيتُ فِيكَ قوةَ ناصرٍ، وطُموحَ السادات، وحِكمةَ مبارك، وزاد هذا الاستفزاز وَصفُ "عز" أمين التنظيم بالحزب جمال مبارك، عند تقديمه بأنه مفجر ثورة التطوير، والأدهى والأمَرُ أن أمين عام الحزب أمر الحاضرين بالمؤتمر- وكأننا في مدرسة - أن يصفقوا للأستاذ الوريث وأن يوجهوا له التحية ولأمانة السياسات.

وقال المقال: وكذلك أراد القائمون على المؤتمر أن يُلْقوا إلى الشعب ببالونة اختبار تفيد أن الحزب الوطني الديمقراطي ذو شعبية جارفة، وأن عدد أعضائه

تعدى الملايين، وأن الحزب هو الذي يُقرر السياسات وما على الحكومة إلا التنفيذ.

وكان العمل على تحقيق برنامج مبارك الذي قطعه على نفسه عند تَقَدُّمه للترشح للرئاسة عام ٢٠٠٥ يهرول به المسئولون فلا كلال، وكانت المشكلات قد تراكمت عبر سنوات حكمه وحكم سابقيه فآلت عُضالًا، مشكلة التعليم، مشكلة البطالة، وانتشار العنوسة بين الفتيات وظهرت احصاءات غير رسمية تحذر من أرقام خطيرة، ملايين من الفتيات أصبحن عوانس، وتحدثت برامج تليفزيونية عن قنابل موقوتة سوف تنفجر فتأتي على الأخضر واليابس إن لمْ يُسرعْ في حلها، وكان إذا وقعت مشكلةٌ حَار فيها الجميع، لا يَروْن لها حلًا إلا أن يتدخل الرئيس، عندئذٍ تهرول كل الأجهزة وتُحَلُّ المُشْكلة سَريعًا، حتى لو كانت الحادثة موضوع تعبير تحدثت فيه طفلة في امتحانها في شهادة الابتدائية، فانتقضت مبارك، ومســت شخصه بالطريق المباشر، فانتفضت قيادات في وزارة التربية والتعليم، ففصلت الطفلة لإساءتها الأدب في حق الرئيس، وهرولت الأجهزة الأمنية تسلك السبل بحثًا في أصل عائلة الطفلة وانتماءاتهم، ولم يجرؤ أحدٌ على انقاذ الطفلة إلا التدخل الكريم لشخص مبارك، ناداه على الهواء المباشر من القناة الثانية المذيع الشهير، فأُرْجعت الطفلة إلى الصفوف الدراسية، وكانت الانتخابات البرلمانية تأتي في نوفمبر من هذا العام ٢٠١٠، وبعدها الانتخابات الرئاسية في أغسطس من العام التالي ٢٠١١، وبينما مجاهد خارج من الصلاة يعبر الطريق، ناداه أخٌ من أنصاره، فاستوقفه:

"تؤدي الصلاة وتخرج سريعًا حتى لا يستوقفك أحدٌ، وسأل الأخ ناصر، أغسلت يدك من القرية ومشاكلها، أعرف أنك غاضبٌ ممّا حدث يوم الجمعة؛ لكن هناك من رد غيبتك."

"البَرَكةُ فيكم، في الاعتزال راحة، أود أن أنْعَمَ بالسَّلامة لبعض الوقت، فقد أكون بالفعل سبب مشاكل القرية كما ذكر هذا، وأن سبيلي خاطئة، فأحاول مراجعة نفسي" فضحك الأخ:

"تعرف جيدًا أن سبيلك ليست خاطئة، وأنَّك سَبَبُ خيرٍ للجميع، وتعرف مكانتك في قلوبنا، أو على الأقل في قلبي أنا، فلك عندي محبة كبيرة، لو أوذي مِثْلُكَ فرفع يده من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن تَراه يكون لذلك، الشجرة المثمرة هي التي تقذف بالطّوب"

فخفض رأسه يخفي ما فاضت به عيناه من الدَّمْع تغسل أساه، وأنبأ الأخ: أن غدًا مقاول من الباطن يبدأ الحفر في الشارع الكبير لتمر مجاري مستقلة لعمارتي الإسكان الشعبي لمشروع مبارك- عمارتان أُقِيمتا في ناصية القرية إلى جوار المسجد على الطريق العام، فشبكة مجاري القرية المتهرئة لن تتحمل إدخال صرفًا جديدًا لشقق تلك العمارتين العملاقتين والبالغ ارتفاعهما اثنا عشر طابقًا عدد الشقق بهما ستة وتسعون شقةً، والغريب أن هاتين العمارتين قامتا في ستة أشهر، ولم يعرف أحدٌ مِنَ القريةِ متى أعلن عن التقدم بطلبات لتملك الشقق ولا شروط التقدم لدخول المسابقة الشعبية للفوز بإحداها. وعندما شاع الخبر وعلم به مجاهد، طلع إلى مديرية الإسكان الدور الخامس في مبنى المحافظة، الجهة المشرفة على تنفيذ المشروع يسأل فقِيلَ له: القرعة بين المتقدمين تمت منذ أسبوع، وأن هذه الشقق قد سُمِّيَ لها ملاكٌ بالفعل ينتظرون تَسَلُّمَ أوراق ملكية شققهم من الرئيس مبارك قبل أغسطس ٢٠١١م قبل الانتخابات الرئاسية، والتي لم يُعْرِبْ صراحةً الحزب الوطني حتى اللحظة هل يخوضها الرئيس بنفسه لنفسه أم أن الحزب عازم على ترشيح جمال مبارك أمين عام السياسات خلفا لوالده.

وذَكرَ الأخ ناصر أن فرد الإخوان سبق إلى المقاول القائم بتنفيذ شبكة المجاري لهاتين العمارتين، وأنه وَلّى نفسه على بيوت النصف الشرقي للقرية، وكان بيته بينهم، وأنه قاول المقاول على تجديد شبكة المجاري لهذه البيوت، وأخذ معه هاني صلاح كواجهة لجمع الأموال المطلوبة، واتفق مع المقاول على أن تكلفة تنفيذ المتر عشرون جنيها يتحملها الأهالي بخلاف المواسير والرمل والزلط، وأن كل ذلك قد تمَّ، بينما نحن لمْ نَتَّخذْ خطوة واحدة بخصوص نصف القرية الغربي الواقعة بُيُوتنا فيه:

"يعني، أخذ معه شارع كذا، وشارع كذا، وترك شارعنا، وشارع كذا، وشارع كذا"، مجاهد، "إذًا ندعو لاجتماع الناس، فَرْدًا فَعَّالًا من كل عائلة في شوارعنا الثلاثة، لاختيار لجنة تتولى جمع المبلغ المطلوب، ونتفق على طريقة توزيع التكلفة، أتُجْعل على كل بيت بصرف النظر عن عدد الشقق فيه، أم تُوزع على عدد الشقق لتحقيق أفضل عدالة"

ولناس زماننا آفة؛ يتحدثون عمّا أزْمعوا فعله كأنَّهم فعلوه، فتعامل مجاهد مع الخبر أنه كان، فأسرع بلقاء نقباء البيوت يُحرضهم:

"الآن جاءتكم فرصتكم فلا تضيعوها؛" وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ فوالذي لا إله غيره، لو أمْلكُ المبلغ المطلوب لإنقاذ البيوت من مياه الصرف التي تعوم فيها وهي مهددة بالسقوط، والله، لأخرجته طوعًا وأنا الرابح، لكن تعلموننا جميعًا مساكين. ولو انتظرنا الحكومة حتى تجدد لنا شبكة مجارينا، قَدْ تَفْعَلْ لأحفادنا. فانفجروا ضَحِكًا فأردف كالسَّيل، نريد قبل أن يفرغ المقاول من تنفيذ خط الصرف الصحي لإسكان مبارك أن نكون نحن قد فرغنا من تنفيذ الخط الجديد لبيوتنا؛ لندخل به فورًا على الخط الرئيسي الجديد، ويظل الخط القديم عاملًا، حتى إذا فرغ المقاول من التنفيذ ألغينا الخطَّ القديم وأطلقنا صرفنا على خط العمائر التي لم

تسكن بعد، فإنهم قد يمنعوننا من الدخول عليه مُستقبلًا إن انتظرنا، بدعوى أن الخط الجديد لن يتحمل صرف بيوت القرية الـ ٩٦ شقة للإسكان الشعبي، وقال، بما تعلمه من الدرس القديم:

"تعلمون أن شوارع القرية جميعها- بما فيها الشارع الكبير الذي سيمر منه صرف العمائر- تخضع للملكية الخاصة، فلا يجوز لهم إمرار هذا الخط دون موافقتنا، كما حدث في المشروع القديم الذي أضاعه علينا شخص واحد، لمّا لم يسمح بمرور خط المجاري في طريق له فيه ملكية خاصة، نفعل معهم كذلك إن منعونا، ومؤكدٌ سيتركوننا، فلن يجرؤا على تأخير مشروع وعد بتسليمه الرئيس، وللمقاول من الباطن مصلحة تولى تنفيذ خط شوارعنا الجانبية جنبًا إلى جنب مع خط العمائر، فهو بالدرجة الأولي باحث عن مصلحته، كـأكثر أهل زماننا" ثم تابع:

"وأخيرًا يجب فيما بيننا أن نحسن التعاون، كل بما يخصه ويُطْلَبُ منه، حتى ولو اضطررنا إلى بيع حلي نسائنا. والآن اختاروا من بينكم من تحبون، نكلفهم بالأمر، وأنا ملتزم معكم بتقديم المشورة فوقتي لا يسمح أن أكون من أعضاء اللجنة لمشاغل تعرفونها فاختاروا من بينكم من تشاءون" فعادوا ليقولوا في نفس واحد:

"أجمعتنا لتهرب، اختر أنت من تشاء لمعاونتك، وأنت المسئول أمامنا" وأحاط زوجته علمًا فثارت عليه:

"وأين أنا من كل هذا، إن شاء الله، ألا يكفيك جريك طول الأسبوع في الدروسٍ والخطبٍ"

واحتجت:

"وهل لا يوجد في العزبة غيرك! الناس كثير"

"نعم هناك غيري، من يتواجد مع المقاول نهارًا ليتابع، ومن يُدبر له الحاجات، دوري، فقط، جمع المال المطلوب من الناس وتحفيزهم، ولم يصرح أنه المسئول الأول والأخير.

قالت:

"أنا خلاص، حفظتك، أنت عاوز تلف في الشوارع"

"وهل شوارعنا من الجمال والنظافة، ما يسمح لنا بالتنزه فيها"

فأعربت:

"وهل هناك من يدرك قرارك، أنت وحدك من يجيب هذا السؤال، أنت عامل البيت لوكاندة، أنا لا أراك إلا وقت النوم" فابتسم يُعَرِّضُ للعلاقة الحميمة: "وهل نحن نُقصر؟"

"وهل هذا كُلُّ شيء عندك؟"

"أنا أجلس معك يوميًا ساعتين كاملتين من التاسعة حتى الحادية عشرة قبل منتصف الليل حسبما الاتفاق"

"يا فرحتي! وأين اليوم الذي التزمت تخرجني فيه كل أسبوع للفسحة؟ التزمت بهذا أمام الناس"

وذهب الجدال إلى الشقاق والغضب:

"أنت لا عهد لك، من اليوم فصاعدًا لن أدَعك تمسك كتابًا"

"ومتى أجهز لدروسي والخطب؟"

"كفانا دروس. وهل أنا لا حقٌ لي عندك؟ كَثُرَ الكلامُ وَقَلَ العَملُ"

"إذًا نترك الدعوة إلى الله ونقعد في البيت نُهدهِدُ زوجاتنا"

"ياليت، أقله تعمل حاجة مفيدة" وختمت بالمز:

"مَلَّ الناس كلامكم"

ما أبْأسَ زوجٌ يحيى تحت سيف هذا المثل" يا مْأمْنَة للرجال يا مْأَمْنه للمَيَّه في الغُرْبال" والكارثة أنَّه يَأخذ الكلام مأخذ الجِدّ، ولم يكن بالجليدِ المَتِينَ الأعْصاب، فظل دَوْمًا مُسْتفزًا، وليس بطبعه حليمًا، لو قذفته زوجته بكلمة لمْ تلق بها بالاً كسائر الزوجات اعتزلها أيامًا من الغَيْظِ الشديد، فإن حاولت الاقتراب دون اعتذارٍ صريح أو ابداء ندمٍ تَلَقَّت منه، أولا ردًا عنيفًا.

والنساء جميعهنَّ إذا أشرفن على سِنِ اليأس ولم يلدن يلحقهن ضرر بالغ، حتى لو أمست المرأة وزيرة، ولم يدرِ مجاهد على وجه الضبط متى أُخِذَتْ زوجه تلك الحالة؛ كانا دائمًا على ما يرام، بل وكان قُدْوةً لها، وتعتبره بين أترابه مثلا، ليس بزائغ العين، فلمّا عَمِلت مشرفةً حضانة ثُمَّ مديرة لها، والتقت بنساء الإخوان أصابها ما أصبها.

تركت الأخت فاطمة الحضانة، جاءها التعيين بالحكومة مدرسة ثانوي، وكانت بكالوريوس هندسة، فآلت إدارة الحضانة إلى زوجته، وسارت لها الكلمة على نساء الإخوان لأنها الوحيدة بينهن المؤهل العالي، وكنَّ كلهن مؤهلًا متوسطًا، وكذلك أعطى القانون الحق لزوجته في الإدارة، وكانت كشخصه لا تَخْنع، فأعلنَّ عليها الحرب، ونصرهنَّ عليها نفرٌ من أعضاء الجماعة أعضاء في مجلس إدارة جمعية تنمية المجتمع.

وسَمِعَتْ نساء الإخوان يلمزن بكلامٍ غير صريح مُؤدَّاه: أنها وزوجها عميلان لجهاز أمن الدولة، فكوفئت باختيارها مديرة للحضانة، ولأنها تعلم عن نفسها أن ليس لها أيّة صلة بهذا الجهاز، ولا تعرف أصلًا مكانه، ولم تجد مُبررًا لعداوة الإخوان اللَّدُود لزوجها، فأُشْرِبَتْ نفسها- من كثرة التلقيح - أنَّه على علاقة بهذا الجاهز، فما يعقل، أن يُرمى إنسان ظاهر التَّدين بالخطيئة كَذِبًا من غير وَرَعٍ أو دليل، لمْ تُصَدقُ ذلك، ولم يغضب هو عندما صارحته بما فكرت به، بل أعلمها أن هذه الأجهزة وأمثالُها لا تَجِدِ في العمل معها إلا الشخصيات الضعيفة المترددة، وينأون عن مثله ممن لهم شَخْصيَّة، واتجاهات مُعلنة، فضحكت: "يا ولد؛ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ! إذا كان ما قالوه ليس صحيحًا فما سر عداوتهم الشديدة لك، ولم يؤذونني، أجاب:

"الإخوان على مذهب من ليس في حِجْرِنا فهو عدونا، يزيحون من طريقهم كُلَّ شخص، ولو كان شخصًا صالحًا، ما تعارض مع أهدافهم، تركته الحكومة يدعو إلى الله بطريقة هادئة، هم لا يتورَّعون عن الرمْي في الأعراض؛ يجدون عندهم مُبَررًا أن مَصلحة الجماعة أولى، لأن الإسلام لن يعود له دولة إلا بحكمها"

"أتريد أن تقنعني أن ليس هناك سِرًا وراء عداوتهم لك، وإيذائي، لنْ أقتنعَ" وضحكت.

فيكظم غيظه لهذا التعريض، ويثور في نفسه، ويعتزلها أسبوعًا أو أسبوعين لترتدع.. وما أصبر النِّساء على العلاقة الحميمة، والرَّجلُ دائمًا هو المُضطر، ويشعر بالمهانة من الشكاسة، ولكن ما يصنع العفيف ليَعِفَ نفسه!.

وكلمَّا هَمَّ بالتطليق فيستريح، يشاء القدر، ويُحْدِثُ أشياءً يُشُدُّ بها بعضهما إلى بعض شَدًّا، كإنشاء الحضانة وما حققت من نجاحات في إدارتها، ورؤية الأطفال البهيجة، وهم يقبلون صباحًا في زيهم اللطيف المُوَحَّد إلى الدور الأرضي من

البيت حيث أُقيمت، ويكون ذاهبًا إلى العمل فيلوحون له.. كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ .. ، يستوي على سوقه بالرعاية والعلم، يُحبُّهم جدًا وهم يهتفون يُحَيُّون العَلَمَ في جِدٍ في طابور الصباح، تحيا جمهورية مصر العربية، ويتعلمون أشياءً لطيفة لم يكن لهم بها دراية، وكانوا يسرحون طوال النّهار شعثًا هُمْلًا يطلبون الجراد والحشرات، يَجِدُّونَ وراءها، فسَهَّلَ لهم وجود الحضانة، وقرب المكان، ونشاط الادارة نصيبًا من الرعاية، أيهدم هذا بتطليقها؟! هو لا يحب أن يبطل عمله، فليصبر، وليجِدُّ في اقناعها، واستخراج هذا الخاطر الخبيث من رأسها، فلا يدري كيف ألقى في روعها أن الشقة مراقبة، وأنَّ بها أجهزة تَصْوِير تُصَور:

"لا أعتقد أنَّي عندهم بالشخص المهم ولا بالخطير حتى يهتم بي جهار أمن الدولة هذا الاهتمام البالغ، ومراقبة الشقة، فما أعتقد أُحدِّثُ به في دروسي وخطبي عَلَنًا متى تراءت لي مناسبة. وعلى فرض أن الشقة بها أجهزة للتصوير تُصَوِّرُ، كما تقولين فتعال نَقْلِبُها، ظهرًا لبطن، نستخرج منها تلك الأجهزة"، فترد:

"يعني هم هـ يغلبوا."

"يا سِت أميرة، أمريكا التي بلغت من العلم أعظمه، لمَّا أرادت أن تتجسس على الأمين العام للأمم المتحدة لمْ تستطع إلا بأجهزة عُثِرَ عليها، واكْتُشِف خبرها، فكيف يَصْنَعُ جهاز أمن الدولة بنا دون أن يضع لنا في الشقة أجهزة، قد يكون التليفون مُراقبًا، ربما، لأن طرفه الآخر لديهم، أستطيع أن أجزم أن البشر لن يبلغوا أبدًا التصوير باختراق الحواجز عن بُعدٍ دون وضع أجهزه مهما جَدُّوا؛ لأن هنالك تكون الفضيحة الكبرى ونزع الستر عن الناس، وهذا صراط ربُّنا أبدًا، ولن يأذن به؛ لأنه تعالى الستير يحب الستر، لن يكون أحدٌ عند ذلك آمنًا، سيصير الناس في الشارع عراة بمجرد وضع أحدُهُم على عينيه نظارة يتبصَّصُ بها، هذا ما أقسم بالله أنه لن يستطيعه البشر أبدًا، فيذهب هباءً كُلُّ سبيل لإقناعها. وليت هذا

هو الأسوأ، بل نحت منحى لا يُحْتَمَلْ، يُذْهِب لُبَّ كُلَّ حكيم حليم؛ فلأن أطفال القرية كان أهلهم جميعًا من طائفة المساكين، كانوا إذا شاهدوه قادمًا بالسيارة أسرعوا إليه فرحًا، فيتوقف ويحملهم معه، حتى إذا بلغ موضع وقوف السيارة ـ أمام البيت ـ أنزلهم، فشاهدتهم ذات مرة وهم يهرعون إليه، فتوقف ففتح لهم الباب فركبوا، فتغير وَجْهُهُا، وزجرته بنظرة اتهام. ولما عادا إلى البيت قالت له بنبرة صارمة:

"السيارة لا توقف هنا بعد اليوم؛ لا تَنزلْ بها إلى الشارع"

"والسبب؟" سألها كاظمًا غيظه، وقد حَزَرَ ظَنّها، فسألته هي:

"كانت السيارة تقف خارج العزبة فما أتى بها إلى هنا؟!"

أجاب:

"المكان هنا آمن مِنْ وقُوفِوها على الطريق العام، أمام بيوت الخَلْقِ"

"أصبح وقوفوها على الطريق العام، قرب المرور الآن غير آمن، لا، جئت بها هنا لتلعب" فَتَغابىَ.

"تقصدين ماذا؟ فسكتت فواصل، تقصدين ركوب الأطفال، كنت صغيرًا فَخُيِّلَ إلىَّ أن من يركبون السيارات ليسوا بشرًا مثْلَنا، ثم ركبت السيارة، فاكتشفت غير ذلك، وكنتُ إذا استمهل لي أحدهم لأمُرَّ أولًا، كنت أشعر نحوه بوُدٍ شديد، لأنه ركب سيارة، ولا زال يؤمن بما أُومن به، أن الماشي والراكب في الكرامة سواء.. وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، ويفيض قلبي محبة له لأنه شاء إكرام سائر على قدميه وهو راكب، وأدعو الله له مُخلصًا من قلبي، فأنا أفعل مع هؤلاء الأطفال ما يُبْهِجُهم ويشعرهم أن لهم حق في هذه السيارة."

"يا ولد، تعجب، وهل هذا هو السبب؟ أتضحك على نفسك، أم تضحك عليَّ، وأنبأت في قطع، أنت تلعب" فكظم غيظه الشديد، وتمادى في غباوته:

"ماذا تقصدين بأني ألعب؟"

"أنت تعرف" فَاستدرجهاَ لُتُقرَّ:

"تقصدين أني ابتاع عيالا"

"نعم. اندفعت، فحاولت التخفيف، فجعلت سيماها باسمة، ونظرت في عينيه في تحدٍ لتفتَ عزمه.

"قاتلك الله؛ طالما أنّي ابتاع عيالًا لِمَ تُعاشرينني؟" فلم تجب وعلمت أنه قد استشاط غِضبًا:

"اتصلي بأهلك يأتون" فأخذتها العِزَّة:

"لا شأن لك بأهلي هذا شأننا"

استشعر أنه لم يعد يطيقها فقام ليخرج فحاولت منعه فضربها، قالت: بعد ما مددت يدك للمرة الثانية، لن أعاشرك، طلقني، لن تخرج، الأوَّلْ طلقني، فدفعها عن الباب.

"قاتلك الله، أسمَّعْتِ بنا الخَلْق، فأبت تركه، قال: سأطلقك أمام أهلك بعد أن تقولي لهم ما قلت."

قالت:

"اطلب لي أُمَّك، واطلب البنات، عاوزه أكلمهم في شيء مهم." فاتصل فأقبلن:

"هذه تريد أن تخبركم عن أمرٍ مهم، فانفطرت تبكي، أمامك أُمي والبنات، قال، تكلمي."

قالت:

"لن أتكلم، تكلم أنت، أنا لا أريد فضائحًا"

"قاتلك الله، أنت لا تستحْيي لا من الله ولا من الناس، أمامك أمي والبنات تكلمي"

"أنت تعرف كل شيء، قل لهم أنت" فنهض فجبذها بعنف:

"تكلمي، فمنعنهن البنات:

"من فضلك يا خال" فجلس.

"هذه قالت لي: آتني بأمك والبنات لتخبركم عن شيء مُهم، والآن تتحدث عن فضائح ولا تريد أن تتكلم، وأقول لها أخبري بكل ما عندك، فماذا عليَّ أن أفعل؟ فاستمرت تبكي فقالت إحدى البنات:

"تكلمي يا امرأة خال، لا تبكِ، فَشَرَعتْ ودموعها تسيل:

"عاوزة أحذركم، خافوا على أولادكم مِنُّه"

وخفضت وجهها، واستمرت تبكي. كان وقع الكلام على البنات ليس مُفجعًا لِمَا يعرفن من شكوكها، وإن لم يكن ما قالته مُتُوقعًا أبدًا. أمَّا أمُّهُ فبدا له من أول وهلة أنها لم تسمع أو سَمِعَتْ ولكن لم تدر بالشخص الذي يدور حوله الحديث، فحتمًا ليس ابنها، وغضبت له أحبهن إليه من البنات:

"ما هذا الكلام يا امرأة خال؟!" فلم تجب. فتابع:

"من قبل قالت هذه: أني ابِّتاع نسوان، واليوم تقول إني ابتاع عِيالا، وعندها البينة، تَكلَمي، قولي بكل ما عندك"

"ليس عندك حق فيما قلت يا امرأة خال" استدركت ابنة أخته في غضبٍ شفيق، وقالت أخرى بلهجة أرق:

"هذه أوهام وساوس من الشيطان يا امرأة خال، خالي ليس أهْلاً لذلك، خالي هذا ثقة، قدوة عندنا" هنا استفاقت أمُّهُ، وبدا أن أثر الصَّدمة قد ذهب:

"يا ابنتي ما أحدٌ في أولادنا عنده الصِّفة" قالت بلهجة تجهش إلى البكاء، فاندفعت زوجته كنَمِرةٍ:

"أنت تدافعين عنه لأنَّه ابنك، ولأنه خالكنَّ، وقد حذرتكن مِنّه." فعلق في نبرة عادلة:

"فَالْبينة، أعندك دليل، هل رأيْت؟"

قالت:

"وهل أنتظر لأرى، أنت تعرف ما تفعله، وكنت لا أريد الكلام ولا الشوشرة" وعادت للمز والإبهام وكان يتمنى منها الإفصاح، وأن يخرج بشيء:

"قاتلك الله. أنا لا أعرف شيئًا، قولي كُلَّ ما عندك" فلم تَتَكلمْ، وظلت تبكي. قال:

"إذًا كنتُ كما قُلتِ، فما يُجبرك على العيش معي، خذي من الشقة ما تحبي، واتركي لي فقط سريرًا من السريرين والمكتبة وكتبي، سأترك لك الحضانة ما حَيَيْتِ، وخذي حاجاتك وعودي إلى أهلك، وقولي عن سبب طلاقنا لأهلك وللناس، وليُهْلِكَ اللهُ أشقانا"

"لن أقول للناس شيئًا، الأوَّل طَلِّقْني" فنظر إلى أمِّه التي فَجَعتها الشَّناعة، فشاهدها تبكي في صمت، وقامت تمشي، فاستوقفتها البنات:

"انتظري يا حاجة، لا تمشِ" فأجهش الابن بالبكاء وارتعشت شفتاه فزَمَّهُما، وجالد نفسه، وناشد أمّه في رجاء:

"لا تَحْزَني يا حاجَّة، هذا من البلاء، وما علينا إلا الصَّبر، فماذا نفعل بها" وفجأة انطلقت زوجته تبكي في حرقة وتشتكي إليهن ما تجده من الوحدة ومن كثرة الانتظار مع الأفكار:

"هو مُتَلهٍّ عني حتى اقتربتُ من الانفجار، أنا لا أدر ما بي، ولِمَ أذهب مع هذه الأفكار"

فطلبت منها البنات الخروج معهن إلى بيوتهن، حتى تَرْتَاحُ أعصابُها قليلًا، وقصصن عليها من خبر خَالِهِنَّ ما تجهله، وكيف أن الناس جميعًا يثقون به، يعتبرنه مُعَلِماً ومثلاً ويغْبِطْنَّها عليه، وسألنها:

"لكنَّ الحاجة، يعنين جدتهنَّ، أوْجعها مَا قُلتِ، يجب تطييب خاطرها، وتعتذِرِي إليها لِما قلتِ في حق ابنها، فانقلبت تشكوه:

"ليس كل ما قلته مفترى عليه فيه، هو لا يغض بصره عن النساء العرايا في التليفزيون، ولا يُغَيِّر القناة إلا إذا أمرته، فضحكن:

"يا امرأة خال، وهل المفروض إذا جلس الواحد ليشاهد فيلمًا أن يجلس مغمض العينين"

لم تكن هي التُّهم الوحيدة الموجه إليه هذه الآونة، بل أخذ القائم بعمل مدير المديرية الحال هو الآخر فيه مأخذًا شططًا، فبعد أكثر من ثلاثة شهور على رحيل مدير المديرية السابق، جاء مندوب من الوزارة للتحقيق في توزيع أموال قياس مستوى المهارة، ومزاولة الحرفة وتجاوزات الصرف، وعندما وُوجِهَ القائم بعمل مدير المديرية بالمخالفة انطلق يشتم مدير المديرية الأسبق وَيلعَنُه؛ لأنه مَنْ جاء بمجاهدٍ مُديرَ إدارة، وكان هناك من هو أقدم منه، فردَّه في حدة:

"أنا أُخْتِرتُ مديرَ إدارة عن جدارة، اقرأ حيثيات قرار تعييني، وغيري، لا نعلم كيف طفى على السطح، يعنيه نَفْسَه، كنت أنا مدير إدارة عندما كنت تجلس إلى جوار معاون المديرية جنب الباب تُطالع في الداخل والخارج بلا عمل، ولا إدارة."

"ليس هكذا يا شيخ مجاهد، اهدأ" مندوب الوزارة عضو التحقيق.

"دول كلهم أصحاب الذقون ليس عندهم ضمير، زوَّر دفتر الحضور والانصراف، ووقع فيه للموظفين معه في الإدارة وهمّ نائمون في بيوتهم"، فَاسْتَفَزّهَ هذا الافتراء الكاذب:

"اتق الله ما قلته ليس صحيحًا"

فانقلب مدير المديرية الحال بالنيابة، ينوح لنفسه: أنا من أخطأت، عندما اقترحت أن يُعْطىَ الجميع في المديرية من هذه الأموال، وقبلها كنتم لا تذوقونها، فأقرَّهُ:

"أعترف أنك أول من فعل ذلك، وأنا نصحت لك قبل أن أتقدم بالشكوى ووعدت بالتعديل، ولم تكن أنت المقصود. فنهض مندوب الوزارة، فأخذ بيده إلى ركن وخَلُصَا نجيًا:

"يا شيخ، لقد حققنا المخالفة، وأَقَرَّ مدير المديرية ووقع على إقرارٍ بعدم تكرارها مستقبلا، وأن تُعْطىَ إدارتك من هذه الأموال كل شهر، وأعتقد أن ذلك كاف ويرضيك، وسَأله، نغلق المحضر ونكتفي أننا توصلنا إلى ذلك، فاضطَّر للإذعان، خاصة أن هذا لم يكن مقصودًا بل مدير المديرية السابق، أراد استرداد الأموال منه، وكَرِهَ جو الشقاق الخالي من المودة، وفكر في نفسه: مندوب الوزارة لن يذهب في التوصية إلى أكثر ذلك، ولم يتكلم عن استرداد الأموال واكتفى بتلافي الأمر مستقبلًا، ومسار التحقيق إلى درجة ما محايدًا، ولأن المديرية تنفع هؤلاء بالإقامة في فندق ثلاثة نجوم وتوفر لهم الإعاشة، وفي نهاية الزيارة تُحَملهم بطعام وبأشياء نافعة، تجنبًا لذكر مخالفات في التقارير التي يرفعونها عن المديرية إلى الوزارة، والمُحقِّقُ ضِمْنَ الفريق الذي قدم من الوزارة للتفتيش الدوري على أعمال المديرية للسنة المالية المنتهية في يوليو ٢٠١٠ م، فسكت خشية: إن تشددت قد يعمل مسار التحقيق في غير صالحك، ولكن ما آلمه جدًا هذه الفِرْية، أنه قام بتبديل دفتر الحضور والانصراف كي يوقع للزملاء بالإدارة بالحضور وهم غائبون، وكان خصْمُهُ قد عاد لهدوئه، وبينما هو جالس يكلم مندوب الوزارة في شأن المذكرات الإحدى عشرة التي أرسلها للوزيرة بشأن تطوير الاستخدام الخارجي، وعلاج مشكلات إلحاق العمالة المصرية بالخارج، وبلغت المذكرات المرسلة حتى تاريخه سبع عشرة مذكرة، ولم ترد الوزيرة على واحدة منها، فسأله عن إمكانية عرض المذكرات من قبلهم من جديد على الوزيرة، وَزَوَّدَه بصور منها، وطلب منه ذِكْرَ ذلك في تقريره الذي يرفعه بعد عودتهم للوزارة، فمر بهما خَصْمُهُ خارجًا من مكتبه وهما جالسان يتحدثان فتناول يده في رفق، فاستوقفه، وكان يعلمه يعود سريعًا، وناشده:

"بالله، أصحيح أني غَيْرتُ دفتر الحضور والانصراف فاستبدلته بغيره لكي أوقع للزملاء عندي بالإدارة؟" فضحك مدير المديرية الحال بالنيابة، ولم يمنعه شهود مندوب الوزارة من هذا التصريح:

"تريدُني ألا أدافع عن نفسي بشيء أُعَفر به ذقنك"

فتلقى مجاهد العبارة سعيدًا، وقال يُصحح له:

"هذه لحية، وليست ذقنًا، وتركه يَمُر، والتفت مُبتسمًا إلى مندوب الوزارة لتبرئة ساحته بتلك العبارة.

كان القائم بعمل مدير المديرية هذا حكاية؛ عَامِلٌ ضرب مُوظَّفًا ضربًا مُبَرِّحًا، فكتب فيه مذكرةً، وكان الموظف غِلِسًا، ولأن الجزاء قاسٍ؛ أدناه الوقف عن العمل، أو الفصل، فقال العامل في التحقيق: كان عاوز يغتصبني. فطفق هذا القائم بعمل مدير المديرية- كُلَّ يومٍ والتالي- يَجْمَعُ الإدارات يحكي الحكاية، أمام الحَريم. وكلما غضب على سائق استنفر لهم مدير الشئون الإدارية:

"يا فلان، اجمعْ لي السائقين"

وَيُؤتى بهم، فناشده السائق:

"يا ريس، الطريق كان مُزدحمًا، وجئت بالسيارة لِحَدِّ البيت، لكن سيادتك استعجلت وركبت تاكسي"

"يا فلان، يُؤْمَرُ الأفندية بالتواجد بديوان المديرية الساعة السابعة صباحًا، ومن يتأخر تُتَقَّلْ عليه"

"عُلِمَ يا ريس" مدير الشئون الإدارية، "وفلانٌ بأية حالٍ من الأحوال لا يأتي ديوان المديرية قبل الثامنة والنصف صباحًا"، فسأله سائق كذلك:

"أكل المديريات تصنع بسائقيها كذلك، أم هذه مديرية السائقين!؟"

وإذا جاءه مُجَاهدُ يطلب سيارة لحملات يقوم بها على شركات لإلحاق العمالة يَرْفُضُ:

"اركب مواصلات"

"هذا النظام نسير عليه لسنوات عَديدة"

"أنت ليست على راسك رِيشَةٌ"

"ليس على رأسي ريشة؛ ولكن هذه حملات مشتركة، ونحن مجموعة زملاء من أماكن متفرقة، فكيف نجتمع في مكان التفتيش في نفس اللحظة؟ مجاهد. ثم إنَّ مصلحة العمل تقتضي أن نذهب في سيارة المديرية، فأصحاب الشركات لديهم سيارات ولن يتركونا أن نرجع مواصلات، ومتى عُدْنا للتفتيش عليهم لن نكون جادين"

"كل الذقون ليس عندهم ضمير، أنت تأخذ سيارة الدولة تلعب بها في الطرقات"

"إذا كان أصحاب اللِّحَيّ ليس لديهم ضمير فما بال غيرهم"، مجاهد مُعَرَّضَا به، "تَعَلُّمُ الدين وقاية من الزلل، ولو كان المسلمون على علمٍ بدينهم لاسترحنا كثيرًا"

وكان أحد السائقين قد قص عليه من شأن القائم بعمل مدير المديرية هذا أمرين مُشينين، ففي سفرة اصطحبه، وكانا ذاهبين لشهود جنازة أحد العاملين تُوفي أثناء الخدمة، وأثناء سيرهما بالطريق قال للسائق:

"على مَهْلِكْ، نريد أن نَّصِلَ وقد صلوا الجَنازة"

فسارا على مَهَلٍ، فشاء العليُّ القدير أن يَصِلا قبل صلاة الجنازة، فدخلا المسجد ووقفا في الصَّف، فلما كبر الإمام التكبيرة الثانية ركع مدير المديرية بالنيابة، فرفع سريعًا تاركًا الركوع ليستوي قائمًا في الصف، ورآه السائق ينظر حواليه، ورآه هو يترك الركوع سريعًا ليقف، ومعلوم للعامة شرعًا أن صلاة الجنازة في الإسلام، ليس بها ركوع ولا سجود، أربع تكبيرات تؤتى جميعًا من قيام.

الأمر الثاني، والمشين جدًا، أنَّه استوقفه ذات مرة، ونزل فَبالَ على قارعة الطريق ولمْ يستتر، ولمْ يستبرئ من بوله، أبصره السائق لم يلتقط مجرد حجرًا يستبرئ به، وَرَدَّ عليه ثيابه وركب. وقال الآن لمدير الشئون الإدارية، على مرأى ومَسْمَعٍ منه:

"إذا جاءك، وأومأ إلى مجاهد اصَرفْهُ من عندك ولا يأتي إليّ، فاستُفِزَّ مجاهد جدًا فقال من الغيظ يُسْمِعُهُ: ومَنْ ذا الذي يحب أن يصعد إلى هنا."

وسأل السائقين، وكانوا لا يزالون صفًا ينتظرون الأوامر:

"مَنْ يريد أن يذهب معه؟. فأسرع أحدهم:

"أنا يا ريس أذهب مع الشيخ"

"خاب سعيك، هـا تلاقيها ناشفة"، مدير المديرية يبكت السائق، "لأن مجاهد لا يتعامل بالرشى ولا يَنْقُدُ السائقين شيئًا"، فابتسم السائق ابتسامة الخلاص إذ كان مُقررًا له أن يلزمه طوال النهار ليعودَ به إلى بيته، وخرج يمشي خلف مجاهد مسرورًا يضحك. قال:

"كنت عارفاً أنَّه في النهاية سيخضع لك"

قال آسِفًا:

"يا أخي، في كل مرة يصنع معي نفس الشيء، والله لقد مَلَلْتُ ذلك."

وفي القرية- أيضًا - كان تجديد شبكة المجاري قد تم، فجاء مقاول الأنفار يترازل، ويطلب مالًا إضافيًا، فقال له:

"علمت أنك اتفقت مع فلان- فرد الإخوان- على تكلفة المتر، وأنه عشرون جنيهًا فقط" فاستفز مقاول الأنفار هذا التصريح فصاح كذلك: "لم أتفق مع أَحَدٍ، ولمْ نتكلم في شيء، ولم نبدأهم الحفر بعد، أنا اتفقت معك أن سعر المتر ٢٥ جنيهًا، ولن أقبل بأقل من ذلك مليمًا واحدًا"

قال:

"لكن الاتفاق على أن الحفر عمقه مترًا، فلما مشيتم بأعالي القرية لم ينزل الحفر إلا نصف المتر، فقلت لك بكم تكون صناعة المتر هنا قلت لن نختلف، وبدأت العمل قبل أن نتفق، والعدل أن خمسة عشر جنيهًا للمتر هناك مُناسبًا، فصاح:

"لن يحصلَ، ما نأخذه منكم لا يكفي أجرة للعمال، طلبت للحفر في ذيل القرية ٣٠ جنيهًا للمتر، وأنت من اقترحت خمسة وعشرين جنيهًا" فناوشه:

"فلتكن تكلفة المتر عشرين جنيهًا هنا وهناك جميعًا، وصلك مني دفعة أولى كذا، ودفعة ثانية كذا، وبلغت المساحة الكلية مائة وأربعون مترًا × عشرون جنيها، إذًا إجمالي المبلغ المستحق ألفان وثمانمائة جنيهًا، أخذت مني مناولةً ألفين وخمسمائة، وهذه هي الثلاثمائة جنيهًا بقية الحساب" فزَعقَ وأساء الأدب أيضًا:

"أنتم أصحاب الذقون، تأكلون مال النَّبي"

"كن مُؤدبًا، هذا مشروع خيري وأنا أمين على أموال الناس وقد أُعطِيتَ حَقُكَ، وإذا كنا لم نتفق، فما عليك أنت، سألتقى المقاول فأقطع معه الحساب، فصاح كذلك:

"أعطني حقي، أنت لا تدفع من جيبك، بل هي أموال الناس"

"لا ترفع صوتك، ما عندي قد سَمِعْته"

قال يهدد:

" انزل المنصورة بالسيارة، ستجد هناك من ينتظرك، ليأخذها مِنَّك"

كان قد أسلم مقاول الأنفار الثلاثمائة جنيهًا الباقية فتركة يهدر بشيء لا قيمة له ومضى، إلا أنه آلمه كثيرًا ما تَقَوَّل به ، فراح يلوم لنفسه، لو أعطيت هذا ما طلب ما تعرضت للإهانة، وبدا له مقاول الأنفار بمعطفه الطويل المتغضن، كهيئة مُخْبِري الدولة، بدا له أنه ينفذ تهديده فرجع يُحَدِّث، يُقوِّي فؤاده: إنك لم تظلمه والسعر مناسب، كان المتر لا يستغرق من العامل حفرًا أكثر من ربع الساعة، وأنا أمينٌ على أموال الناس، ويتوجب عليَّ أن أنزل نفسي منها منزلة وَالِي اليتيم يقوم فيه بما يصلحه، فعلها عمر رضي الله عنه لما ولِيِ أمر المسلمين كان يقول: إني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة وَالِي اليتيم إن استغنيت استعففت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت، يحرض نفسه على الصبر، لكن يتوجب عليك أن تكون يقظًا بخصوص السيارة، حاضرًا بما استعدَّدت به.

فلمَّا رجعت زوجه من عند البنات، لم ترجع عن رأيها فيه وإن حدث بعض التغيير، وَعَلَمَ أنهنَّ ذكرن لها فيه ثناءً، وتاريخًا حسنًا، فأجابتهنَّ: لو كان ما بي وساوس فهو المُتسبب فيها. إنه لا يتحدث معي، فهو كقطار يجري على شريط

واحد لا يحيد عنه، يمضي فيما يهمه، كأنه يَحْيا وحده، وإن قلت له تكلم معي قال: ليس عندي ما أقوله إن كان عندك شيئًا قوليه، وإن تكلمنا معًا تشاجرنا.

"يا امرأة خال، خالي ليس شَخْصًا عاديًا، خالي يُجَاهِدُ للإصلاح، وأنت أيضًا تباشرين الدعوة إلى الله، وعندكِ الحضانة تُعلِّمين فيها الأطفال، ونحن نغبطكم على ذلك ونعتبركم قدوة لنا، ويجب التضحية، من أجل استمرار دوركما، قالت:

"كل ذلك لا يغن، فأين حقي أنا؟ خَيْرُكُم خيركم لأهْلِه أنا الأولى بالعناية فوعدْنها:

"سنكلم خالنا، ولكن يجب الاعتذار للحاجة، فقد خرجت مَفْطورة"

فعادت، وبدلًا من الاعتذار، عادت تلومه:

"أنت من أوصلني إلى هذه الحالة، لا تهتم إلا نفسك، ولا تتَكلم معي، وتتركني للأفكـــار والوساوِس، ولم تعتذر عمَّا وصفته به اعتذارًا صريحًا، فعزم في نفسه على أمر، فسارت بهما الأقدار سيرًا آخر؛ ففي إحدى ليالي رمضان بعد الإفطار حدث اتصالا تليفونيًّا، شبه استغاثة، طالبتها أمها بالحضور:

"البسي حالًا، وتعالي شوفي أباكِ"

فقالت له:

"قم الْبِسْ وتعالَ معي"

"انتظري، نصلي القيام ونذهب معًا"

فهددت:

"إذا لم تجئ الآن، وحدث له مكروه، فلا تجئ، ولن أغفر لك"

كان أبوها قد أصابته جلطةً شُفِيَ منها وبقيت لها آثارٌ خفيفة، فحزَرَ: أنه - على أقصى تقدير- ارتدت عليه الجلطة فأظهرت آثارًا ثقيلة، ولأنهم لن يجدوا أطباء متخصصين في عياداتهم الآن، وأخوها أخصائي حميات، وحتمًا سيفعل له ما ينبغي فعله حتى يذهبوا به إلى الأخصائي، ولو ذهب الآن سيضيع القيام، وكانت أمُّه وأخواته وبناتهن يجئنه عقب صلاة العِشَاء ليصلين القيام معه فوق سطح البيت، فأبت الانتظار فتركها تذهب. ولم تكن قد وصلت، على قدر تقديره، ولا أذنت العِشاء بَعْدُ عندما وقع اتصالًا آخر فقام ليرد، فوجدها أُمَّها:

" أميرة، لم تنزل، ما زالت عندك؟"

"لا يا حاجة، جاءتكم" فأردفت عجلة:

"أبوك فلان مات، قالتها دفعةً واحدةً"

وكان أبوها ابن خالة أبيه، ومن هول المفاجأة فتح باب الشقة، ولم يصعد السلم ووقف ينادي أخاه يطلبه للمؤازرة:

"يا فلان، يا فلان، فسمع باب الشقة يُفتح، وأَطَلَّ أخوه فأخبره الخبر غير المتوقع، فقابله تلكؤ في الإجابة وبرودًا، فغضب، فترك أخاه على السلم أمام باب شقته يفكر، وذهب عنه وهو في غاية الغضب، وبينه وبين نفسه أكد: من الآن فصاعدًا سأعتبرك غريبًا، لن أُعْلِمَكَ عني يومًا بمصيبة، ولعن النساء اللائي يكبلن أزواجهن فلا يستطيعون الإجابة.

وبعد موت الأب بشهرين رحل أخوها وهو دون الخمسين عامًا فأحيط بهما، كان يعانى من فيروس س، طيلة عشر سنوات خلت، وكان هذا الفيروس قد انتشر في مصر وأخذ يحصد حصدًا كُلَّ الأعمار، وعزا البعض انتشاره إلى فساد البيئة التي يعيشها المصريون في تلك الحقبة من تاريخ مصر حيث اختلاط مياه الشرب

في معظم البلاد بمياه المجاري، هذا إن وجد الماءان، والصفقات المشبوهة التي قام بها وزير الزراعة الأسبق، نائب رئيس مجلس الوزراء، الأمين العام للحزب الوطني سابقًا، أدخل إلى البلاد مبيدات حشرية مُسرطنة، فقيل أن ذلك سبب انتشار هذا المرض الملعون انتشارًا سريعًا، ولم يدر مجاهد على وجه الضبط السبب وإن تُحِدِّثَ بذلك كثيرًا في وسائل الإعلان، فأخرج وزير الزراعة من الخدمة بعد قرابة خمسة وعشرين عامًا قضاها في السلطة وفي أمانة هذا الحزب دون محاسبة أو مجرد اللوم، فقط لاحقته لعنات المصريين ودعاؤهم عليه، وطلبهم القصاص دون جدوى، لم يتحرك النائب العام، ولا رئيس الوزراء، ولا رئيس الجمهورية، فقط، اكتفى بإخراج الوزير المخضرم من السلطة.

ومكث أخو الزوجة أربعة أيام كاملة في سكرات الموت ينادي أباه المُتَوفَّى ليلَ نَهار، دون توقف، وكان أبوه قد مات على صدره، إذ استغاثت به أمه وجرى أخوه الأكبر ساعة الإفطار يبحث عن صيدلية فاتحة في مثل هذا الوقت فيأتيه بدواء ناجع إذ شاهده يَتَفَصَّدُ عرقًا ويتقيأ سريعًا فعلم أنها ذبحة، وقال الأب لابنه المريض الذي تلقى رأسه فوق صدره: يا ابني، باين لِي أني أموت.

فقال الابن:

"يا أبي وهل مَنْ يموت، يقول إنه يموت"

ونزل ليبدل العباءة التي كانت عليه لِمَا أصابها من القيء وطلع فوجده قد مات. يبدو أن هذا المشهد لم يغب أبدًا عن ذاكرة الابن المُبْتلى إذ مكث كل هذه المدة في سكرات الموت ينادي أباه الذي مات، طوال أربعة أيام بلياليهنَّ، وأخيرًا عدل عن هذا النداء فجأة، وطفق في نداء آخر:

"مِيـرة. مِيرة."

فسألته أخته أميرة الكبيرة:

"يا فلان أتريد أميرة الكبيرة، أم الصغيرة"

"غِيره" يعني الصغيرة، أجاب في ضيق، فحاولت التخفيف عنه فرحة أنه عاد لوعْيِهِ:

"يا نذل، تبكته ليضحك، غِيره، تعني الصغِيرة، وليست أنا"

وألحّوا على البُنَيَّة إلحاحًا شديدًا لتدخل فيراها، فارتعبت وتقهقرت تبكي، وكانت في "الاعدادية" ولم يسأل عن الصبي ذي العشر سنوات، وكان الصبي أربط جأشًا، ومن شدة إشفاقه كان بين الفينة والفينة يقومُ فيسقيه شيئًا يبلل به ريقه، لعله يُخفف عنه من ألم هذا النداء المتواصل ومناشدته لأبيه، وفي إحدى المرات عاد إلى وعيه فشاهده من فتحة الباب ساهرًا يصلي إلى جواره، وهو يحرسه، فناداه:

"الله يفتح عليك يا شيخ مجاهد، وكانت نوبته في الحراسة من الحادية عشرة حتى مطلع الفجر، وينام أول الليل، ويعود بزوجته صباحًا، عند طلوع الفجر، ويوقظ زوجة المريض لتخلفه في الحراسة تعاونها أمُّه، وينام بعد صلاة الفجر، ويستيقظ صباحًا، فيذهب إلى العمل. فكف نداء الابن لأبيه المُتَوَفى، كان الفجر وشيكًا فخَشِيَ عليه فسلم سريعًا من الصلاة خوفًا، وفَرِحًا أن النداء الطويل الذي لم يهدأ طيلة أربعة أيام بلياليهن توقف، فأخذ شيئًا من الشراب ليسقيه فصك المريضُ أسنانه صكًا شديدًا، وذهب بفمه بعيدًا نَافَرًا، فتركه حتى لا يضُيق عليه، فلم يلاحقه بالشراب، ووقف يلحظ إليه.

كان المريض المُسجّى قد أخذ يدور بعينه فوق صدره وحواليه، كأنما هنا شيءٌ ما خفيٌّ يحاوره، فتذكر في نفسه هذه الآية التي تصف الموت" تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي

يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ..." فاقشعر جِلْدهُ، وحَزَرَها النهاية، ولم يكن قد رأى إنسانًا يحتضر، فصعد إلى الزوجة، فجاء بها:

"أخوك يحتضر"

كانت تنام في شقة والديها إبّان نوبته. ورأت أمُّها أنهما يهرعان في صمت إلى حجرة المريض، وكانت لا تزال من أول النهار إلى آخر الليل تجلس على كرسي بالصالة، تأبى أن تنام، فهرعت إليهما فاستوقفتها ابنتها:

"سأدخلك عليه، لكن لا نريد صُواتًا، ولا قولًا مُنكرًا"

فتحدثت الأم في رَجاءٍ أليم:

"لن أُحْدِثُ شيئًا، فقط دعوني أراه" وانخرطت تبكي وكانت لا تزال ثَكْلى في زوجها، فبكت زوجته في صمت، فانفَتَّ عزمه فبكى لبكائهما، انخرطوا جميعًا في بكاءٍ مكتومٍ. ثُمَّ ملك نفسه، فقدر أن الاحتضار هذا قد يطول فاستأذنهما:

"الفجر أذن، سأذهب للصلاة، وإن حدث شيء- لا قدر الله- اتصلا بي"

فاستغاثت به زوجته:

"لا تتركنا وتذهبْ، صَلِ هنا"

قال:

"هذا الشيء قد يطول، أيْقِظي أخاه ينزل يراه، فقد يفعل له شَيئًا نافعًا، سَأذهب إلى البيت لأرتاح قليلا"

فجاء الأمر سَريعًا جدًا، فما أن صلى الفجر بالناس بمسجد القرية وعاد إلى البيت حتى استقبله جرس التليفون، وقالت زوجه وهي تبكي:

"فلان مات، تعني أخاها"

"لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا حاضر إليكم الآنً"

وعلم أنه يتعين عليه الرفق بها، وقد أضحت وحيدة، مبتلاة، مع أم ثكلى في ابنها وزوجها، وكان قد عزم الطلاق، لكن الله شاء.

* * *

الفصل الثاني عشر

ما أن تمَّ تشغيل خط الصرف الصحي الجديد حتى تفجرت ينابيع من الأرض لا يُعْرَفُ من أين جاءت؟ فامتلأت أسافل البيوت والجراشات والزرائب ماءً (جاءت الحزينة تفرح لم تجد لها مَطرح)، قال ابن عُمْران وأردف مُستغيثًا:

"انهض يا شيخ مجاهد، الأدوار السفلى من البيوت غَرْقانة بالمياه، والناس لا تعرف أهي ماء صرف صحي، أم ماسورة مياه الشرب انكسرت تحت الأرض تنضح علينا الماء. ولأن بيوت القرية قسمين، قسم عوالي، وهي البيوت المجاورة لحرم الطريق العام المار بالقرية، المقابلة لعمائر مبارك الجديدة، ظلت تلك البيوت في أمان، وكان أهلها سعداء، أمنوا دائمًا طفح المجاري، وأمنوا هذه الينابيع التي تفجرت حديثًا بعد تشغيل خط الصرف الجديد، أمَّا البيوت المنخفضة أسافل القرية، فبيوت شُيِّدَت قديمًا، وأصبح جزءًا من الطابق الأرضي تحت سطح الأرض، خلاف البنايات الحديثة التي حرص أهلها أن ينأوا بالطابق الأرضي عن سطح الأرض مسافة ثلاثة أمتار، فمَهْمَا تفجرت من الأرض ينابيع فلن تطولهم أبدًا، فالشقاء الشقاء لأصحاب البيوت القديمة، رشحت المياه في الطابق الأرضي فعلت فيه مترًا أو أكثر، فما ارتاح هؤلاء المساكين غير أسبوعين، عقب تشغيل خط الصرف الجديد، وتفجرت تلك الينابيع فجأة فأغرقتهم.

المشكلة لم تظهر بهذه الفجاجة مع خط الصرف القديم لأنه تحت الأرض لبضع أمتار لعلو سطح الأرض بتراكم التراب المستمر باستمرار الزمن، فلم تكن

المياه لتخرج من تحت الأرض لتطفو على السطح لأن الصرف القديم غوْر مُتهرئًا من كثرة تسليكه بأسياخ الحديد لكثرة انسداده، فاهترئ لأنه فَخَّار، ووجد الماء الراشح مسارات له تحت سطح الأرض يسير فيها في حالة انسداد المجاري. فلما أُنْشئ خط الصرف الجديد مُحكمًا وقريبًا من السطح، نصف متر تقريبًا، وقيام الأهالي بردم الخط القديم، ليجبروا المتأخرين الانتهاء عن استخدامه، والدخول بصرف جديد على خط الصرف المُنشأ، فكان هذا الردم خطأً كبيرًا، إذ لم تجد المياه المتسربة من صرف المنازل مسارًا لتسير به، فخرجت إلى السطح لمَّا فاض تجمعها تحته، فالصرف الذي أُنشئ قديمًا أنشأه الأهالي أنفسهم أو أنشأه لهم أناس غير أكفاء، فلم ينشأ بإحكام، فأخذت المياه المُتسربة من الحمامات تتجمع تحت البيوت، ثُمَّ فاضت، فاسْتَصْرَخَ لها ابن عُمْرانٍ:

"يا شيخ، أنقذ البيوت من السقوط، البيت بنيناه بطلوع الروح، الله يكرمك" ورغم أن منزل ابن عُمْران كان من المنازل الجديدة العَوالي لن يطوله الماء إلا أنَّه كان يخشى عليه من النسمة، سافر الكويت في الثمانينيات، وهناك ضل القصْد؛ بهرته هناك حياة البزخ، وانقطعت صلته بأهله سنينًا، ووصلت عنه أنباء أنه يشرب، ولا أمل في رجوعه، فكل ما يقع تحت يده يصرفه على الشرْبِ. فلمَّا وقع الغزو العراقي للكويت، وعاد إلى مصر جميع المصريين، عاد مُفلسًا، ثم فتحت له طاقة القدر لمّا تحررت الكويت من غزوة صدام، ووقوع الغزو الأمريكي للعراق، وسقط نظام صدام، ووضعت أمريكا يدها على نِفط العراق، واسْتَصْدَرَت من الأمم المتحدة قرارًا للمتضررين بالغزو فتقدم ابن عُمْرانٍ بجواز سفره ضمن المتضررين إلى وزارة القوى العاملة وأوراق، يُثْبِتُ، أن كان له شقة مؤثثة كالقَصْر وأموال فقدها بالغزو الصدّامي، فجاءت الإجابة بصرف مبلغ تعويض له، كبير، بادر ذووه بأخذه من يده قبل تبديده، وتم تشييد البيت ذا الطابق واحد بالطوب اللبن، تَمَّ تشييده أربعة أدوار، وكان حتى اللحظة الوحيد في القرية الذي

لم يتم إحلاله وتجديده بسفر الناس للسعودية والكويت وليبيا، والسواد الأعظم للأردن والعراق قبل الغزو الأمريكي، فقال مجاهد لابن عمران:

"أنا الآن ذاهب إلى العمل، لكن خذ عيِّنة من الماء واذهب به إلى معمل هيئة المياه والصرف الصحي، نعرف أهي مياه صرف، أم مياه شرب، وائتني بالنتيجة حين أعود، فصاحت زوجته لمَّا أعلمها الحكاية:

"لو تغير الخَلْقُ كُلهم ما تغيرت أنت؛ ألا يوجد في القرية غيرك، كل واحد يعمل اختبار لبيته بنفسه، أنت يعجبك اللف في الشوارع، هذه طريقتك، أنا خابزاك وعاجناك، وأنت ها تقول لي. وأردفت:

"قلنا خلصنا من مشروع المجاري، فرحت تفتش أنت عن شيء جديد، لن نرتاح أبدًا." وكانت نتيجة الفحص قد أظهرت أن المياه المتسربة مياه صرف صحي، فقال ابن عمران:

"يا شيخ فلان، نعمل اختبار للصرف لجميع البيوت، نكتشف البيوت التي تتسرب منها المياه، فتطالب أصحابها بالإصلاح، واستنصره:

"جدار بيتي مبلول، تعال دقق، ضع يدك هنا. المياه ترشح عليَّ من جاري الصعيدي، واشتبكت معه كثيرًا، ويرفض أن يقوم بالإصلاح، ويدعي أن الرشح ليس من عنده"، وقال:

"شوف بنفسك، بُصّ واحكم، وكلمه، الناس تسمع لسيادتك"

قال:

"اهدأ يا فلان، سنعمل اختبارًا للصرف الخارج من البيوت بالترتيب، واهدأ حتى لا يركب جارك رأسه، فردّت زوجته تعجب:

"هل أنت وكيلًا عن الناس، الناس تَعْرِفُ مَصْلَحتها" قال:

"الناس باتت بليدة؛ لا تقوم لشيء، طالما المركب يسير، ولن يحدث تغييرًا إلا ما دمتِ عليهم قائمةً، هؤلاء مساكين ويعلمون أنهم يحتاجون لمئات الجنيهات لإنشاء صرف جديد لبيوتهم، فهم يؤكدون لَكِ أن المياه لا تتسرب من بيوتهم، ويجب حثهم على الإصلاح بعد ثبوت الدليل، وتظلي قائمة على رءوسهم حتى يفعلوا، ظلوا يتغوطون في الحقول سنينًا، وما عرفوا الحمامات إلا حديثًا، ومن ثَمَّ، فالأعرج عندهم أفضل من الأعمى، وإن ظلت كلها عاهات"

وكلما قاموا بقفل خط الصرف الخارج من البيت بالجبس، وانتظروا الجبس حتى يجف، وقاموا بفتح الماء ليمتلئ به الحمام ليعلم إن كان هناك تسريب أم لا، يظل الماء يتسرب خارجًا من الصرف تحت الأرض ليملأ أسفل البيت، فإذا شبعت الأرض تحته خرج الماء يتهادى إلى عين الحمام، ثم يعود فيتناقص، يملأ الطوابق السفلى المنخفضة تحت سطح الأرض، ومنهم من ظل الماء لا يتوقف عنده ذاهبًا تحت سطح الأرض جميعه، لا يرتفع إلى عين الحمام أبدًا، فقال مُضاحكًا صاحب الدار المعترض على الإصلاح:

"حالك كحال الذي يبول في ثوبه، ويشتكي بالبلل جاره"

فيقف الرجل كاسف البال حزينًا لثبوت الدليل، وعليه يتوجَّبُ تغير الصرف، وهذا يتطلب مالًا كثيرًا. ومنهم من كان ماء الحمام ينقص عنده بالتدريج ثم عند حد معين يثبت زمنًا، والزبون هذا يصعب إقناعه، يسرع في درئ التُهمة عن نفسه ويصيح فرحًا:

هيه يا شيخ فلان، صرفي سليم لا إحلال ولا تجديد، الماء ثبت، ولا يثبت إلا إذا كان الصرف سليم، فيجيبه:

"وأين ذهب الماء الذي ظل يجري زمنا تحت الأرض حتى ثبت الماء في عين الحمام؟ غرفة التفتيش التي بنيتها في المسقط، فمهما حاولت منع الماء الهارب منها لن يظل الماء إلا هاربًا مُتسربًا من الجدران تحت الأرض، والقليل مع القليل كثيرٌ"

وتابع في حَسمٍ:

"لا علاج لغرف التفتيش إلا الإلغاء، لقد رأيت بعينيك عندما أجرينا الاختبار لبيتي لم تتسرب قطرة واحدة من عين الحمام، رغم أننا تَرْكنا الماء محبوسًا عدة ساعات، لأن هناك لا وجود لغرف تفتيش"

ويظل صاحب البيت يتملص، فيظل يجادله:

يا عم فلان، فتحنا الماء فترة، فتناقص في عين الحمام والصرف الخارجي مغلق فأين ذهب هذا الماء؟ بالتأكيد تحت جدران بيتك وأنت أول المتضررين، لو وقع بيتك-لا قدر الله- هل تستطيع إعادة تشييده؟"

"لا، ولا جدارًا واحدًا فيه"

"إذًا اسْرِعْ في تجديد الصرف وإلا اضطررت ليس إلى إصلاح الصرف وحده، بل إلى إعادة إنشاء البيت من جديد إذا سقط، لا قدّر الله، وقد تحدث شروخ خطيرة، فصاح ابن عُمْران في حمية مندفًعا:

"وهل أنت تتحايل عليه حتى يقوم بالتغيير، أعرف أنه ينضح كل يوم عربية مياه كبيرة من زريبة البهائم" قال:

"انتظر أنت يا فلان، عمك فلان ليس لديه مانعًا، فقط نمهله يدبر حاله ثم نعود إليه للاختبار، يكفيك شهر يا عم فلان؟"

كان دومًا موفقًا في إصلاح ذات البين مسموعًا، غير أنه لم يستطع أبدًا أن يصلح ذات بينه وبين زوجته، وكلما تحدث ازدادت بينهما حدة الخلاف، فتحدث يخبرها:

"سأتزوج؛ وقد يحسن بالرجال في هذا الزمان الزواج بالأخرى مساهمة في حل عنوسة الفتيات، فتلقته بلسانها:

"يا ليت، لـتأتـيَ بما تشبهك"

وتابعت:

"جَرّب غيري، وهل هناك من تطيقك؟" فأكَّدَ عليها:

" لن تغضب إذا تزوجت" فأسرعت:

"بشرط؛ أن تُعَرِّفُني قبلها، ويجعلك هذا تتقي الله، ويرجعك عن الحرام"

"والله، ما أشتهي حرامًا، ولا يخطر لي ببال"، أنبأ في نبرة حزينة، "والله، أحافظ على نساء الناس وأغار لهن كأنهن أهلي"، فسخرت منه:

"أنت ه تقولي، قله لغيري" قال:

"فهل بلغك عني سوءً"

"بكره تظهر بلاويك المتلْتلِة"

"اسألي عني زملائي وزميلاتي في العمل، وكيف أنا معهم" قالت:

"وهل هناك من يعرفك مثلي، أنت عينك تِنْدب فيها رصاصة، أنت لا تحبُّ إلا قعدة النسوان، ما تقدر تستغني عنهم، طول النهار قاعد معهم"

"وماذا أفعل؛ وأغلب الجهاز الحكومي اليوم نساء، ابعثي إلى سوزان مبارك واطلبي منها أن توافق على مقترح جلوس المرأة في بيتها مقابل أخذ نصف الراتب، وتترك المرأة الفرصة لزوجها أو لابنها أو لأخيها يأخذ مكانها، حلا لمشكلة البطالة وعنوسة الفتيات"

"كان غَيْرُكَ أشْطر"

"إذًا، عامليني بما يبدو مني، لحين ظهور بلاويَّ المتلتلة"

قالت:

"أتسخر؛ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون"

"حتى يُعْلَمَ، أعطيني أنت المودة وإلا سأتزوج" قالت:

"يا ليت حتى تؤدبك غيري، وما أخذته القرعة تأخده أمُّ شعر"

دوام الشقاق جعله يحترق لرؤية مدام أمنية، يدفعه الشوق إليها دفعًا، وقد يأتي الذهاب إلى الوزارة بالمراد أو يعود مستوحشاً وحشة شديدة إن لم يُقَدَّر له اللقاء، وأشرف على الحجرة، فوقع بصره من الحجرة أول ما وقع على مكتبها وكرسيها الخاليين، فخسف قلبه، وعَلِمَ أنها غائبة إلا أنه انعطف يدخل الحجرة رُوَيْدًا رُوَيْدًا، فاستقبلته إحداهن بابتسامه حانية وابتدرته بهذه الإجابة قبل أن يسأل:

"مدام أمنية عندكم، في المنصورة"

"خيرًا"

"سافرت من أول الأسبوع مع زوجها لإصلاح شقتهم بها" فجالد ألا يبدو متأثرًا، وأن غيابها شيءٌ مُتوقع:

"لمّا ترجع، سَلِمُوا عَلَيْها"

وأعرض عن قولة: قولوا لها، جاء فلان، وأنت في الإجازة فسأل عنك. لِيُشعِرَ بعدم ضرورة معرفتها السائل؛ وأنها زيارة عابر سبيل، زميل سابق، لزميلة كانت تعمل معه.

لم تكن أبدًا زيارة عابرةً، ولا مرورًا سريعًا على زميلة كانت تعمل معه إذ انقلب مهمومًا يجادلُ نفسه لنفسه: ما لي أراك كاسف البال حزينًا، إذ لم ترها، وازددت شوقًا واستوحشت وحشة شديدة، إن بقاء مدام أمنية في الوزارة لن يدوم، ذات يوم ستخرج معاشًا وقد لا تراها أبدًا، فَلِمَ كل هذا الحزن، وتأوّهَ، شيء شاقٌ أن تعيش مع زوجَة في تكذيب مُتهمًا عندها أبدًا، تخْرج من البيت وأنت ثائرٌ، وتعود مُرغمًا وأنت نافر، المشكلة أنَّك لست شَخْصًا لا يأبه للكلمة، ولست حليمًا، مَوْزوع النفس، تهوى حبيبًا.

وهذه لا تكف عن اتهامك بأمرٍ قَذر، وتَقَزَّزَ من خطر الشيء وأخيرًا فتر عُزْمُك، أُرْهِقْتَ، أتخبر مدام أمنية عند أول لقاءٍ قادم للوزارة، فيخفف عن قلبه ويخيب، أم يجدُّ في صبره. لم يقف عند المقترح الأول، ففي نفسه أجاب:

أستحْيي أن أبوح لامرأة فأنغص عليها عيشها وأفسدها على زوجها، هذا ما لا أطيق ولن أفعله أبدًا. وعاد يجادل لنفسه، وهل تحتمل عدم رؤيتها؛ هل تصبر؟ هذا صبرٌ قاتل.

وخطر له من شأن ابنتها عالية ما جعله يقول لنفسه: أشعر - وإن كنت إن قابلتها منفردة قد لا أتيقن أنها هي- أشعر أن في قلبي لها حُبًّا، وأنِّي سأكون سعيدًا في عشرتها، سأجتهد في إسعادها وقال يدلل للسعادة، ليست البنت إلا بِضْعَةً من أمها، ومن الفطرة أن تؤثر الأم ابنتها على نفسها بالشيء، فعله الأنصار مع المهاجرين،

فما بالك بالأم مع ابنتها، تنزل لها عن طيب خاطرُ عمّا تحب، لن يغضبها طلبي الزواج من ابنتها، وكذا يستحيل مَيلي لها ميلا لا حرج فيه، فشرعا أمَّ الزوجين أمًا لكليهمـا، وميلي لمدام أمنية لن يخرج عن كونه ميلًا لأم زوجةٍ أُحِبُها، سأكرمها فيـها، هذه البنية تأخرت عن الزواج وأراني مهمومًا بها.

ورفْرَفَ قلبه للسعادة القادمة وقال في نفسه حييًّا: عندها سنضحك من الحديث عن الشيء الذي ظللَّت تكتمه، وقد استحال حُبًا لأمٍّ زوجة تُحِبُّها، وتضع عن قلبك هذا الحمل الثقيل الذي ظَللت تحْمِلُه، وَتَحُلُّ سعادة هادئة، وقال في نفسه: مدام أمنية عندها زوجها الذي تستمتع به ويَسْتَمْتعُ بها، ولقد دعا لهما يومًا بالسعادة وأحسَّ في قلبه حُبًا صَافيًا لزوجها في ذات اللحظة التي هتف قلبه لها، لحظة أن استوقفته، فترك السيارة وأقبل عليه في سماحة مُحَيَّيًا، ولم يكن قد رآه من قبل، فلاحت منه نظرة للسيارة التي توقفت فجأة، فشاهدها تجلس إلى جوار مقعد السائق الخال تنظر مُبتسمةً، فغض بصره سريعًا وألْهَجَ لسانه حفاوة به ولهج قلبه له وبها، وتذكر مقالته التي فاض بها" والله أنت وأهلك ناس طيبون، وأنا أدعو لكما دائمًا والأولاد، فانسل العقيد، سيد فريد، فتركهما، فطلبهما للغداء فاعتذر لأنهما تركا البنات وحدهن، وذكر أنهما أقبلا في إجراءات نقل الزوجة، فضرع قلبه، لو صارا صديقين لهان هذا الشوق، وكان خيرًا لهما، وقال في صفاء نفسٍ، هي زوجه وهو أولى بها، ورجى أن يكون مقبولًا عنده، فيضع عن قلبه هذا الشوق الشديد، والترحال الدائم دُفعةً واحدة، وظل إذا اشتد به الشوق يتحيَّن الفرصةـ يذهب للوزارة، ومرة يجدُها، ومرة لا يجِدها فيرجع حزينًا، ولا يتلبث أن يَجِدَّ في ذهابه مرة ثانية، ومرات جاهد حياءه واتصل بها في البيت يسأل عن شأن ما في الوزارة، يوحي، قبل الزيارة، أن قدومه إلى الوزارة عاجلًا، لتحرص من جانبها أن تكون حاضرة.

ومرة ذهب فوجدها رجعت من أجازة أخذتها بالداخل فعلم أن إحدى ابنتيها تزوجت، ووضعت مولودها الأول، أمَّا الكبرى فعلم أنها تركت خطيبها، وكانوا قد أعدوا لزواج البنتين معًا إلا أن عالية رفضت الزواج بشكل مفاجئ، وطلبت ألا يجبروها على هذا الشيء، واستدركت بكلمة فَخِيمة، هذا الجيل يحتاج إلى التربية، وعللت رفضها للزواج، أرغب في من يستطيع أن يحتوِيَنِي، فعَلَّقَتْ له مدام أمنية:

"البنت هذه ردودها عنيفة، أختها الأصغر منها تعرف كيف تُمَشِّي حالها، هنالك هَبَّ يَدْفعُ عنها في صدقٍ، وقد خبر نفسها، فنبَّه: تجدين خلف هذا العنف رقة شديدةً، وقال: أكثر الناس يعيش، وأراد أن يقول إمَّعَة، فأمسك لمَّا أحسَّ أن الكلمة تسئ إلى بنية هي أُمُّها، فَعَدَلَ إلى قول: كغيره، مُقلدًا، مضاجعهم آمنة، مرتاحون لأنهم لا يطمحون إلا أن يكونوا كغيرهم، يجدون السعادة في ذلك، وقليل من هم ذووا الهِمّة، لا يستطيعون أن يكونوا إلا أنْفُسَهم، يَحْيَوْنَ يَأْلَمُون، لا يكفون عن الترحال، لا يهدأ لهم بال إلا أن يكونوا ما يحبون، ولا سعادة لهم إلا في ذلك فاتصلت مدام أمنية بابنتها تُخْبِرُها أنَّهُ عندها وضحكت تجيبها بالتساؤل:

"لِمَ؟. في عمل في الوزارة، فاستنبط أن السُّؤال كان عن سبب الزيارة واستنبط أنَّها كانت تأمل أن تكون الزيارة من أجلها، فأعطته الموبايل فكلمها:

"كيف الحال، وابتسم، أدْعو لكِ دائمًا في كل صلاة"

"مبروكٌ على الحضانة"

"جازاك الله خيرًا" فعلِمَ أن أخباره تهُمُّها، وقال وهو يود استمرار الحديث:

"لا أريد أن أطيل عليك، أدعو الله لك دائمًا" وتذكر حضورها إلى المديرية، وخفض جناحه لها، ينتقي الكلمة الجيدة، يحدثها عن سورة النَّحل وابتسمت مدام

أمنية في النهاية تلمح لمرأى مُحيا ابنتها السعيد والحديث المستفيض منه هي إلى جواره ناعمة:

"هيه يا عالية، درس خصوصي هذا، يومها كان على أبواب الخامسة والثلاثين وكانت هي في السادسة عشرة من عمرها، واستشعرها سعيدةً بجواره، وأكد له سؤال أمها، والآن تبينَ له، كيف أن الأم تنزل عن طيب خاطر عمَّن تحب لِبِنْتها، وعاد يفكر في شأن ما أحدثه ذاك الخطيب مما حملها أن تعافَه، فتأكد له أنه همَّ بها قبل أن يُعْلنَ الزفاف، فنفرت منه نفسها الفاضلة، وترك لديها هذا الانطباع السيئ عن الجيل الجديد: جيل يحتاج إلى إعادة تربية، فارتفع عنده قَدْرُها، وتذكر رؤياها في منامة، قاصرة الطرف تنظر إليه في إعجاب بَيِّنٍ بينما عينها الأخرى تركت مقلتها طافية، وفجأة انبرت تدافعُ عن نفسها، أنا لا أخطف زوجًا من زوجه، فعلم أنها خطرت في شأنه كما خَطرَ في شأنها، استرجع تلك الرؤيا مِرارًا، يسأل نفسه كثيرًا، لِمَ تركت إحدى العينين النظر إليه وخرجت من مكنتها طافية، بينما العين السليمة، هي من مضت تنظر إليه في إعجاب، وجَهَدَ عقله كثيرًا، وفي كُل مرة بدا له، في تأويل رؤياه، وجهًا واحدًا فعـزم على زواجها.

* * *

الفصل الثالث عشر

الباشا الكبير، هذا ما أَسْمَى به نفسه مدير المديرية الجديد، وكان شاكر قد ذهب، وذهبت أيامه، وقبل خروجه معاشًا انبرى يعلن دون أن يَطْلُبَ منه أحدٌ: بالمناسبة، لن أسمح باحتفالٍ يُقامُ لي، فضحك البعض، ووافقتهم فئة: يعلم أنه لا أسف عليه، وهل يمكن أن يجد أحدُنا كلامًا يقوله له في مناسبة كهذه، فعارضتهم فئة: كان أبيض القلبِ، مهما غضب يعود سريعـًا، وفي عبارة أخرى: إسفوا على رحيله لأنه كان يؤمن جانبه، فـالباشا الكبير مرَّ على قدومه أكثر من شهرين ولم يُفَكرْ في مُجرد استدعاء مُدراء المكاتب والإدارات، والمناطق، للتعارف، ومن جانبهم كعادة كُل المرؤوسين من أول يوم نفروا جماعات وفرادى يرحبون به، ولما فَتَرَ عن اللقاء معهم نَشَطَ تداول تلك الشائعة: جيء به هنا مغْضوبًا عليه، أرسل مفتشي السلامة والصحة المهنية للتفتيش على معامل جامعية، قِيلَ، لم يكن له التفتيش عليها، فقام المفتشون بتحرير محاضر لها، فثار رئيس الجامعة واتصل بشخصية عُليا فنقل من محافظته إلى هنا، وقيل: بل رفض إعطاء موافقة بالسلامة والصحة المهنية لإحدى المعاهد الخاصة وكان الموقع الإنشائي معامل جديدة غير مطابقة للمواصفات، ولأن المحافظ رئيسه المبشر، له شَوْقٌ في صدور الموافقة استدعاه، فأجابه إجابة غير لائقة، سيادتك، أنا بالفعل كَتَبتُ تقريرًا رفضت فيه اعطاء موافقة لأن الموقع الإنشائي غير مطابق للمواصفات، فغضب المحافظ غضبة عارمة: هذا لا يَدْخُلْ عليَّ مكتبي مرة ثانية.

وعُرِفَ سَبَبَ تصريح شاكر بعدم رغبته في إقامة احتفال له، أنه تلقى اتصالًا تليفونيًّا من نعمت سعيد، مساعد أول الوزيرة: أنت أول من يخرج لدينا معاشًا من وكلاء الوزارة، معالي الوزيرة قد تعرض عليك الذهاب إلى محافظة الشرقية، مكان فلان، تعني، الباشا الكبير، آمل أن تبيض وجهي عندها، وأردفت موكدة:

"قضاء شهرين خارج محافظتك ليس بالأمر الشاق وطلبٌ ليس كثيرًا علينا، فلم يَتَنَفّسْ، وكانت هي من رشحته قبل عامين لهذا المنصب الرفيع فلما أبطأ عن الإجابة استطردت تنبِّهه:

"وَصلَتْ الوزارة بخصوصك شكايات، نرجو أن تكون كيدية فنقوم بحفظها"

فانطلق غاضبًا في تصريح المفاجئ بعدم سماحه باحتفالٍ يُقامُ له، وكان نقله من مسقط رأسه مُفاجئًا للجميع، غير مبرر، وكان قد بقي على خروجه من المعاش فترة شهرين.

أمّا الباشا الكبير، فلم يشف صدره إلا ما جهر به في حوارٍ له مع جريدة محلية: معالي الوزير المحافظ، دون ذنبٍ جنيت، تقريبًا، طردني من مكتبه، وأجاب على سؤال للجريدة: أنا لا أضع عراقيل أمام الاستثمار، فقط أُطبق القانون وأتحيز للحق وأتعامل مع الناس سواسية. وفي لقائه المرتقب بمدراء المكاتب والإدارات والمناطق انطلق في حمية يعلن سياسته المستقبلية:

"أحب العدل وأكره الظلم، العدل من أسماء الله، كلكم عندي سواء، أنا أكره البِطانات، فلا يتزلفْ أحَدٌ فيكلمني عن زميل له، سياستي أن أقوم بإحضار الشخصين أمامي الشاكي والمشكو منه للمواجهة. من كانت له مظلمة سابقة فليتقدم بها إليّ، فإن كان له حقٌ أعطيناه." وتابع:

"وأحب التفويض في السلطات وأكره جمعها في يد واحدة، فأنا وإن كنت على رأس الهرم الوظيفي للمديرية لا أشغل نفسي بسفاسف الأمور، جميع العمل الفني يعرض على وكيل المديرية، ويعرض على الباشا الكبير الأمر الهام ذا الشأن العام. وأحب روح القانون، وأكره الأمور الشكْلية، كالحضور والانصراف. ما يهمي هو تطوير العمل والانجاز والنهوض بالشأن، وليست هذه دعوة إلى عدم الانضباط لكني أقصد في المقام الأول التيسير على الناس، لكن عندما أطلب بيانًا أجده، فالقيادات العليا لا تصبر علينا، تطلب الشيء وتريده معًا، فلا تعرضونا للحرج معهم. وأحب الشورى، وأكره الانفراد بالرأي، فنحن جميعًا معنيون بتحقيق سياسة المديرية. وأحب الحلال وأكره الحرام، لن أنل مليمًا واحدًا ليس من حقي، فأنا والحمد لله مرتاح ماديًا، من عائلة غنية، لها في منطقة كذا، من الصحراء الشرقية، أرضًا وأموالا، ونادى أحد الحضور:

"يا فلان، قلت إنك خدمت هناك عندما كنت مُجندًا، وسمعت هناك بهذه العائلة الكبيرة الغنية"، فأسرع الشخص بهز رأسه في ارتباك علامة الايجاب، ولم يسعفه لسانه من المفاجأة، "ليطمئن الجميع، فكلكم سيصل إليه نفس الحق مهما كان المبلغ المطلوب توزيعه قليلا. وأحبُّ الصدق وأكْرهُ الكذب، فلا يسقطن أحدكم عندي بأن تكذب أحْوالُهُ أقْوالَه. وأحب الصفح، فالصَّفوحُ كريم، وهنا شارك مجاهد وقد أعجبه الحديث:

(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(نزلت في أبي بكر ومولاه مِسْطَح، وكان ينفق عليه أبو بكر فآذاه في ابنته العفيفة عائشة باشتراكه في حديث الإفك، فَحَلِفَ ألا يناله منه فضل، وتصف أُمُّ المؤمنين عائشة أباها في حديث، كان رضي الله عنه، صَفُوحٌ عن الجاهلين، فجزاك الله خيرًا، لقد كفيتنا كل ما أردنا قوله، وأخفى في نفسه ولم يبدها له قال: كان كل مسئول يجيئ

يعاملنا كأننا عمال في عزبة أبيه، وكان الظهر قد أُذِّنَ له، وانتظر لعل وكيل الوزارة يرجئ الحديث، فيشهدوا الجماعة أو يطلب منه أحد الحضور ذلك، وطاف ببصره على الوجوه عَجِبِا، لِما عرفه عنهم من حرصهم السابق على حضور الجماعة، فأبصرهم خاضعين في إطراقة، كأن الصلاة لم تعد يعنيهم أبدًا، فاستفزه المشهد فرفع ذراعه واستأذن:

"أصلي الظهر"

ولم ينتظر الإذن ونهض، لقد تحين كل فرصة وزحف في مقعده حتى جلس على حافة الكرسي، ثم رفع يده يستأذن. وقام بينما مدير المديرية مُستمرًا في حديثه، وكانت الصلاة قد أقيمت من فترة، فضاعت عليه الجماعة.

ولمّا رجع إلى الحجرة وجد الحديث قد انقطع، وراح القاعدون يثرثرون، الشخص إلى الشخص، والشخص إلى الجماعة تتداخل أصواتهم، وأحاط بعض المدراء بـوكيل الوزارة، ولم يعد أحد يلتفت إلى أحد فانقلب خارجًا وهو لا يزال غاضبًا يلوم نفسه على تردده في النهوض حين الأذان حتى ضاعت عليه الجماعة.

بعدها تجنب الصعود إليه إلا أن يُرْسِلَ في طلبه، فصعد إليه، وكان يجلس عنده زميل مدير إدارة:

"أهلا يا شيخ مجاهد"، وكيل الوزارة مرحبًا به، فجلس مُنتظرًا نهاية الحديث. فسأله وكيل الوزارة:

"أتعرف مدير شركة بدر، وأردف، اتصل بي وكيل وزارة الخارجية بخصوص سفر ابنه، وناوله قصاصة ورق عليها اسم، فلان، العنوان، مبنى وزارة الخارجية، الدور التاسع، بجوار مبنى الاذاعة والتليفزيون، ماسبيرو القاهرة.

جواز سفر الابن كان مفقودًا في السفارة، فبحث عنه والده حتى وجده واستلمه من السفارة، والشركة تطالبه بالجواز، والرجل كلمني: أن سفر ابنه تعطل مرتين بسبب ضياع الجواز، فحجز له وسافر الولد، والرجل ليس لديه مانع من دفع الرسوم للشركة، فقط يمر عليه مندوب الشركة في العنوان، يتسلم الرسوم، فعقب للخبر:

"لكن ينبغي عمل عقد عمل للابن وإلا اعتبرت الشركة مخالفة للقانون" فتناول وكيل الوزارة فتَّاحَةَ الأظرف من أمامه وشرعها تلقاء مجاهد في دعابة:

"أقول لك الولد سافر، تقول نعمل له عقد" وابتسم إلى جليسه يحرضه مشاركته الرأي، ورجع إليه يُنَبهه:

"الرجل كلمني وأنا وعدتُّه"

فاستكان مهمومًا بالأمر:

"سأطلب مدير الشركة، وأحاول التيسير"

فاغتنمها مدير شركة بدر السعودية فرصة، وتحدث باعتبار الواقعة شاهد عن صعوبة الالتزام الكامل من قبل شركات إلحاق العمالة بالقانون، فهذه تأشيرة قد ذهبت دون عقد، وهذه من الموانع التي تمنع الالتزام، وتسجيل كل ما يرد للشركة من طلبيات بالدفاتر، الذي تطالبنا به سيادتك. فصعد غضْبانًا إلى وكيل الوزارة، يُعْلِمُهُ حقيقة الأمر:

"الموضوع سيادتك، أن وكيل وزارة الخارجية ذهب إلى السفارة السعودية وأخذ جواز سفر ابنه رَغْمَ أنف الشركة، فقال له مدير شركة إلحاق العمالة سيادتك

ستعرض الشركة لمشكلة مع مديرية القوى العاملة إدارة الاستخدام الخارجي ما لم نرسل جواز السفر للاطلاع واعتماد عقد عمل لابن سعادتك لديهم:

"ابني حاجز اليوم للسفر"

"سيحرر لنا مدير القوى العاملة – يعنيه - محضر بـعشرين ألف جنيه إذا سافر ابن سعادتك دون أن يحرر له العقد، والجواز لازم عند المراجعة للاطلاع، قال:

"أنا دفعت خمسين جنيه بقشيشًا في السفارة السعودية حتى أحصل على الجواز، لا تقلق، أنا أعرف الناس كلها، أنا من يراجع العقود لوزارة القوى العاملة بالكامل، أكلم لكم الناس في وزارة القوى العاملة، وقال لمندوب الشركة عندما ذهب لاستلام الجواز من القنصل:

"اطمئن، أنا كلمت وكيل وزارة القوى العاملة عندكم وعنايته قال:

"يسافر ابن سعادتك بالسلامة، نحن لن نكون سببًا في ضياع فرصة عمل تنظره" وأردف غَضْبانَ:

"وكيل وزارة بالخارجية المفروض أن يكون أول الملتزمين بالقانون يذهب إلى السفارة السعودية ويستخدم سلطاته، فيأخذ جواز سفر ابنه دون إذن الشركة، وعندما كلمه مدير الشركة بضرورة إرسال الجواز لمراجعة القوى العاملة وتحرير العقد قال:

" أنا أعرف الناس جميعًا، أنا من يراجع العقود للوزارة، أنا كلمت الناس في الوزارة، وكلمت وكيل الوزارة لديكم وعنايته سمح. بهذه الطريقة سيادتك لن نستطيع السيطرة على هذه الشركات، ولا أن نطالبها بالالتزام بالقانون طالما أننا لم نساوي بينهم في التعامل، والشركات تقول لبعضها، فاتصِلْ به، يتصل بابنه،

يرسل إلينا صورة الجواز فاكسًا. ومن جانبي سأعتمد المراجعة بصورة الجواز، وسترسل إليه الشركة بالعقد ليرسله إلى ابنه" فغضب وكيل الوزارة:

"لن أتصل"

فأستدرك عليه في رفق:

"ليس عندي موبايل، لأتصل عليه"

"لن أتصل. أنتم هنا مديرية لكَّاكة"

فصمت وبدا أنه يتخذ ردًا عنيفًا. وكان أحد مديري الإدارات جالسًا، فطالع نذير الغضب على وجهه وأردف وكيل الوزارة، كأنه يعتذر:

"هذا الموبايل، اتصل به"

أنا لا أعرف كيف استخدم الموبايل" قال ولم يُطالِعْ، يُخْفِ انفجارًا وشيكًا. فنهض الزميل، مدير التخطيط والمتابعة فأخذ يده برفق:

"تعال معي يا شيخ، ومال يساره، سأتصل لك به من على موبايلي الخاص وما تريده سيتحقق"

فأطاعه وخرج معه وهو لم يزل غضبانَ:

"أسمعت ما قاله، لن أترك حقي، سأشكوه إلى المحافظ وإلى الوزيرة ولهيئة الرقابة الإدارية، المخالفة ثابتة، يخالف القانون، فالمواطن سافر بدون عقد، ولما راجعته في ذلك شتمني، قال: أنتم هنا مديرية لكَّاكة، سأستشهد بك، فأعرب مدير إدارة التخطيط والمتابعة:

"وأنا أشهد أنَّه حصل، أنا لا أكتم الشهادةً"

وما أسرع ما انقلب على عقبيه يمهد للتخاذل:

"يا شيخ مجاهد، وهل هذا الذي قيل لك يُعَدُ شيئًا بالنسبة لما يُقال لنا؛ طايح سيادته كل يوم في الكبير والصغير، يعلن فينا:

"أنا الباشا الكبير، أنتم هنا مجموعة من المعوقين، مجموعة عجزة، هذا الكرسي صغير عليّ، أنا أقدم وكيل وزارة، أنا عملت مستشارًا عُماليًا لمصر بدولة كذا، لمدة كذا، أنا الباشا الكبير"

قال:

"يُدْفَعُ فيها في الوزارة خمسين ألفًا رَشْوَةً، حتى يذهب أحدهم مستشارًا، ويأتي هذا ليفخر علينا بها، هذه مُصيبة"

قال:

"هدئ نفسك يا شيخ مجاهد، هذا هو الرقم طَلَبْتُهُ لك، كلم الرجل واطلب منه كُل ما تريد وأعطاه الموبايل فكلمه:

"مع سيادتك، مدير إدارة الاستخدام الخارجي بمديرية عمل الدقهلية، فلان. برجاء ارسال صورة جواز سفر نجلكم بعد حصوله على تأشيرة الدخول، كي يتم تحرير عقد عمل له، وإلا وقعت شركة إلحاق العمالة في مخالفة لقانون العمل، ومن جانبي سأعتمد، على مسئوليتي الخاصة في المراجعة صورة الجواز، سيادتك، فقط اخْتمْها أنها صورة طبق الأصل، فأطاع فورًا:

"نشكر لكم صنيعكم يا عناية الاستاذ مجاهد، قد احتط للأمر وصَوَّرْتُ الجواز بعد الحصول على التأشيرة، عنايتكم، اذكر لي رقم الفاكس خاصتكم وفي خلال ربع

ساعة ستكون عندكم صورة الجواز مَكْتُوبٌ عليها: عناية الأستاذ مجاهد منصور ورفعه درجة، مدير عام إدارة الاستخدام الخارجي، مع خالص التحيات والشكر"

فاستلم صورة الجواز، وعاد إلى الزميل ليؤكد عليه:

هذه هي صورة الجواز، وصلت فاكسًا وعليها تأشيرة الدخول، كذا تكون المخالفة تأكدت، سأطلبك للشاهدة.

"وأنا أشهد، أقول بالذي حَدَثَ" وانقلب إلى التخاذل.

"لكن أيًّا كانت النتيجة إن اعتذر إليك وكيل الوزارة أترجع عن الشكاية، ففي النهاية سنضطر إلى التعامل مع الرجل بحكم وظيفته، ويكون الأمر صعبًا علينا، ولن تصير العلاقة بيننا وبينه إلا فاسدة، واستطرد يرجوه، لن نخسر شيئًا يا شيخ، فقط، أمهلني يومًا أكلمه، وأرجع لسيادتك.

فخضع لإمهاله، يعتقد، أن من أسمى نفسه الباشا الكبير لن يكون من خُلقه الاعتذار. وكان معشر السائقين قد أعجزوا كل من جاء من هذه القيادات حتى الآن؛ فأجمعوا أن لن يذهبوا إلى محطة القطار ليأتوا بالمدير العام- وكيل المديرية - لأن هذا مخالف للقانون، فلو كان هذا من حقه لأثبتت هذه المُهِمَة في خط سير السيارة، وهذا ما أوصى به بعضهم بعضًا. وانتظر وكيل المديرية على المحطة حتى مَلَّ، فاتصل بالمديرية فأُخْبِرَ أن السائقين مُضْرِبُون عن الإتيان إلى المحطة لحمله بسيارة المديرية، فركب تاكسي وجاء فعرض الأمر على الباشا الكبير فنبّهَ سيادته:

"غدًا، من جاء منهم متأخرًا تقَفَلْ عليه"

فأجاب السائقون في تصميم كذلك:

"تُقَفلُون أو لا تقفلون، لن نذهب إلى المحطة لنأتيَ بأحد أبدًا" وأخذ بَعْضُهُم بَعْضًا وراحوا إلى بيوتهم. وفي اليوم التالي لمَّا قدموا، بعد تقفيل الأمس، إلى الديوان مبكرًا، ودخلوا يستلمون خطوط السير قيل لهم:

"الباشا الكبير يطلبكم جميعًا" فلما دخلوا عليه صاح بهم:

"لا تقعدوا"

"لا أحد يقعد على كرسي، اصطفوا واقفين أمامي، ودخل فيهم شِمالاً: "أنا الباشا الكبير، الباشا الكبير لمَّا يقول تِطْلَعْ مِصْر، تِطْلَعْ مِصْر، الباشا الكبير لمَّا يقول تطلع شَرْمَ تطلع شرم، أبعد الأماكن، الباشا الكبير لما يقول تِطْلَعْ المحطة تأتِ بالبيه الوكيل، تطلع المحطة تأتِ بالبيه الوكيل، أنت سَوّاق، الباشا الكبير لما يقول أنت تنفذْ"

فنظر أحد السائقين فرأى المَوْجَ عاليًا، فنزل به مغص مفاجئ. وضع يده على بطنه وشرع الأخرى مُلتمسًا الجلوس على ساقيه من الألم، فأخذت العزة ديك البرار كامل:

"لأجل ماذا نصبر على ما تقول! سأل السائق مُعتدًا، كيف نكلف بمهمة لا تثبت لنا في خط سير السيارة، أحسن لنا أن نقدم استقالة على أننا نصبر على هذه الإهانة." فتلقَّفه مدير المديرية:

"قوي قوي، الباشا الكبير يجلسك على الكرسي ويقدم إليك الورقة والقلم، لتكتب هذه الاستقالة"

وضرب الجرس، فهرع العامل صاغرًا:

"واحد شايٌ ثقيلٌ، سكرٌ ثَقيلٌ"

وعاد إلى السائق مُتابعًا:

"الباشا الكبير أحضر لك شايًا ثقيلًا سكر ثَقيل، لتضبط دماغك لتكتب براحتك الاستقالة" وَجَرَّ كرسيًّا للسائق وشَدَّه ليجلس عليه فتقهقر السائق: "لا أنا قاعد، ولا أنا كاتب استقالة"

"ألم تقل إنك ستكتب استقالة، ولن تصبر على ما نريد؟"

"أقول ما أنا عاوز، وأعمل ما أنا عاوز" وهوى ديك البرابر، فالتفت مدير المديرية إلى الوكيل وخاطبه في تنبيه صارم:

"يأتون إلى المحطة ليأخذوك وآخر النهار يعيدونك، وأنت تقعد رجل على رجلٍ وتقول له: سوق يا سَوَّاق، لا أحد هنا يقدر يقول لي، لا، أنا الباشا الكبير، آمُرْ فأطاع"

وعمَّ السائقون الصمتَ إقرارًا، ومكث السائق الذي ألم به المغص جالسًا على ساقيه يده على بطنه يتلوى من الألم يترقب حتى أُذِنَ لهم بالانصراف.

فلمَّا جاء كامل بسيارته إلى المحطة من الغد ابتدره الوكيل مُعتذرًا يكسب وُدَّهُ قبل أن يجلس إلى جواره:

"لا، أنا لا أقدر أن أركبُ معك وأنت زعلانٌ منّي" فردَّ السائق:

"لِمَ، الباشا الكبير قال: تقعد رجل على رجل وتقول: سُوقْ يا سَوّاق"

فأسرع الوكيل:

"الباشا الكبير يقول ما يريد أما أنا فلاحٌ ورجلٌ منكم يعرف بعضنا بعضًا قبل مجيئه، ولن أرضَى أن يفعل بَعْضُنا في بعضٍ كذلك"، وسأل السائق:

"لكني أستغرب، ألم نكن سَمْنٌ على عسلٍ، فما قلبكم عليَّ يا كامل؟"

فابتسم السائق وأنبأ:

"الباشا الكبير، يقول إنه جعلك على خزائن الأرض، وَعَدَّدَ له، الحوافز، أموال الغرامات، وقياس مستوى المهارة والحرفَة، وقال:

نحن نعملُ من أول النهار إلى آخره، لا نتأخر عن حمل الصغير والكبير منكم، ونروح حيث تطلبون، وسيادتك دائمًا تنسانا من العطايا، وإن أعْطَيْتَنا أعطيتَنا الفتات" تحدث السائق كذلك، وسكت هنيهة، ثم التفت إلى وكيل المديرية مُبْتَسمًا؛ وأتبع في خباثة يهزر ويَجِدُّ معًا:

"نسمع عن هُبَر" فقهق الوكيل يضحك من شغاف قلبه، وانبسطت أسارير وجهه، وانبرى على الفور مُنْشِدًا:

"الآن حَصْحصَ الحقَّ، سُوقْ أيها الحبيب، حسبت الأمر خطيرًا"، وأكّد:

"أيها الحبيب لا تحْزنْ، لابد أنْ يُنظر إليكم مستقبلًا"

فابتسم السائق وأشرقت أساريره وفي نفسه قال كذلك: أنتم آكلوها نارًا، بالعين الحمراء وحدها تأتونَ."

* * *

ليس السامِعُ كالرَّائي، قال الشاعر: صَاحِ هلْ رأيْتَ أو سَمِعْتَ براعٍ.. رَدَّ في الضِرعِ ما قَرَىَ في الحِلاَبِ.

لمّا سَمِعَ مجاهد من مدام أمنية أن ابنتها شاهدت وزيرة القوى العاملة تُقبل يد سوزان مبارك لم ينتبه، فلما عاينَه أُخِذَ أَخذًا شديدًا. ففي المؤتمر السادس للحزب

الوطني ديسمبر ٢٠٠٩ لمَّا أطلت حرم الرئيس مقبلةً تحرك لفيف من الوزراء وقيادات الحزب على الفور يستوون، وسعى أفراد الأمن يحيطون بسيادتها للحماية، وتلبثت وزيرة القوى العاملة لحظةً، ثُمَّ اعترضت الموكب تسلم، وسارعت تسعى حَفية، ممسكة بكَف حرم الرئيس، ثم مالت تساررها في شأن وحرم الرئيس ماضية لا تلتفت، فلم تترك الوزيرة راحة اليد العزيزة ولاحقتها تُحدث، بينما حرم الرئيس في سيرها القاصد والناس تجرى خلفهما، فجأة رفعت الوزيرة اليد العزيزة وانحنت تقبلها، فجرت سكرتيرة حرم الرئيس خلف الوزيرة وأمسكت بعضدها، وكفعل خادم بصبي كاره سيده سحبت السكرتيرة الوزيرة للخلف، ولأن القُبْلة مضت سريعة وضاعت وَسَطِ زحام القوم قال مجاهد للزميلة التي تجلس إلى جهاز الكمبيوتر:

"ثاني، أُريدُ أن أتأكد، فأعربت الزميلة عن خوفها تضحك:

"أنت عَاوِز تحاكمني يا شيخ مجاهد، ليست هذه المرة الأولى ولا الثانية التي طالبت فيها إرجاع المشهد"، وكان موظفو الإدارات المجاورة قد كُبكبوا في الحجرة جميعًا وأخذت التعليقات: هؤلاء هم رجالات حرم الرئيس التي تعينهم في الحكومة. وأشار آخر إلى خَباثة: إذا كان من يريد أن يظل في الحكومة يُقبل الأيادي، فما بال من لم يكن فيها فطمع أن يَجئ.

واستمَرَّ مجاهد غير مُصدِّقٍ، يرجع إلى النت، يرى إلى المشهد الذي لولا أن رآه بعينه لمرَّات، لم يكن ليصدَّق به أبدًا، واستشعر لحظة رأى المشهد أن الخلق أمسوا مواتًا، وأن من يأخذ بالأسباب لن تصل به الأسباب أبدًا إلى نتيجة، وذهبت عنه كل رغبة في مواصلة الكتابة إلى الوزيرة، وتمنَّى ألا يأتيه منها رد، وكانت حتى هذه اللحظة لم ترد على أي مقترح بَعَثَ به للعرض، وكان محمد صاحب شركة بدر السعودية كلما جاء إلى الإدارة انبرى يبكته:

"هِي يا شيخ مجاهد، ردت عليك الوزيرة؟"

"حتى الآن، لا"

"ولن ترد" صاحب شركة بدر.

فأيقن أنَّه لا شَيء يُرتجى من تلك القيادات المزعومة، فليعتمد للإصلاح على جهده وجهدِ الزميلات والزملاء بالإدارة، وكان مدير التخطيط والمتابعة بالمديرية، الشاهد الوحيد على وكيل الوزارة قد تراجع عن شهادته تمامًا:

"لا تنسَ يا شيخ فلان، أنك كلمت الرجل بأسلوب غير لائق، قال لي مدير المديرية لمَّا راجعته: بل أنا منْ له الحق عليه، أيأمرني، وأردف مُبررًا، المفروض يا شيخ أن تقول له لو سمحت أو سيادتك."

"لكن الحديث له سياق، لم تكن هناك مناسبة لقولة سيادتك أو لو سمحت" فأعلن في بجاحة: أنا لوْ شهدت أشهد بالشيئين معًا، فكل ذلك حصل أمامي، وعمومًا، الرجل قال لي: أنا لم أعد آخذ على خاطري منه وسامحته، وأجاب على استنكاره:

"يا سيدي، لا تدقق، نحن نَسْمَعُ ياما، وإن كنت أعتقد أن الرجل هنا صاحب حق فَعَلِمَ أن مصير شِكايته لو مضى فيها ستمضي إلى لا شيء فسكتَ غَمًّا. والمرء ساعٍ إلى قتل نفسه إن يَئِسَ، فعندما عاد من العمل مر بـابن عُمران أمام مَحَل السّايْبَرَ على هيئته المعتادة، رِجْلٌ على رِجْلٍ يُدخن، في إحدى يديه كوب الشاي وفي الأخرى السيجارة، فالتفت يطالع فيه أسِفًا، ومَرَّ ولم يقرأه السلام، فاسْتُفِزَّ فصاحَ:

"ماذا، وهل هنا حَاوٍ!"

فنهضت امرأة تجلس على صخرة أمام بيتها تُدافِعُ عنه:

"مالك يا أبو فلان، هو الاستاذ قال لك حاجة" فرجع فكلمه:

"يَعِزُّ عليّ المرور فلا أَقْرئك السلام"

"السلام لله؛ تقوله أو لا تقوله، هذه حُرية شخصية" وكان كلما مَرَّ به لا يراه إلا والسيجارة في يده، فنهاه مُبتسمًا:

"التدخين حرام"

"وهل السيجارة شيء يا شيخ مجاهد، غيرنا يشرب كذا وكذا، ويضحك" فإذا طلب منه الحضور للصلاة، قال:

"أنا أكره الصلاة وَرَاء فلان يعني، أبا سريع"

"صَلِّ وراء البار والفاجر، لا عليك فالصلاة صحيحة" فيعرب:

"أهل قريتك منافقون لا تنفعهم صلاة، يظل فلان يلحن والكل يسْمعه ولم يقف له أحدٌ يومًا فنهاه، وإذا رأيته يصلى وحده رأيته ينَقَرها نقرًا" صارحه بذلك، وهذه هي المرة الأولى التي يراه غضبان إلى هذا الحَدِّ، ولم يعهد منه هذه الحِدَّة ولا تلك النبرة الخشنة معه في الخطاب، فتريَّثَ فانقلب عنه.. الغريب أنه عندما عاد فخرج للصلاة شاهده على نفس الهيئة، يقف أمام السايبر السيجارة في يد، وفي الأخرى كوب الشاي، كأنه ينتظر قدومه، يتعمد إثارته، بل راح ينظر تجاهه في وقاحة، فمَرَّ ماضيًا إلى المسجد دون سلام أو كلامٍ كأنَّه مُنشغلُ عنه لم يلحظه، وقَدَّر في نفسه: هذا يستدرجك إلى الغضب، وعقب صلاة العصر يتوجب عليك أن تنام، فاليوم درس النِّساء، التجربة الرائعة التي يحرص عليها حرصًا شديدًا؛ نَسْوَةٌ كُنَّ قد توقفت عقولهن عن العمل تمامًا إلا ما اعتدنا عليه، كبندول ساعة عتيق يدور في بُرْجٍ عارٍ أثقلته العوارض فأوشك أن يتوقف، أسيرات لمفردات بعينها، فقدت

ألسنتهن القدرة على إخراج مُعظم الأحرف العربية من مخارجها والنطق بها صحيحًة، يتَعْتَعْنَ في الكلمة، وكأن اللغة العربية ليست لغتهنَّ، لا يستطعن جمع الكلمة إلى الكلمة والنُّطق بهما صحيحة، والتعليم في الكبر كالنقش على الحجر. وبعد جهدٍ جهيد، والمحاولة بعد المحاولة أصبحت أشدَّهُنَّ أعجمية قادرة على النطق بالآية القصيرة مُشَكَّلةً، وبالمرابطة مضين يجمعنَّ الآية مع الآية وأخرجن الكثير من الأحرف من مخارجها الصحيحة، بعد إحدى وعشرين سنة من الدأب والحضور المتواصل لدرس الأربعاء، فاستطاعت أدناهن حفيظةً أن تقرأ من القرآن عن ظهر قلب ستة أجزاء كاملة. ومن ناحيته طوال تلك الفترة حرص على ألا يدع أي صارف - مهما كان- أن يصرفه عنهن، تُبْهِجُهُ إشراقة وُجُوُهِهنَّ، لصلاح النُّفوس للمجهود الذي يبذلنه طوال الأسبوع في القراءة والحفظ والتَعْتَعة

وعقب صلاة المغرب وُجِدَ في الشارع خيمة منصوبة لفرح، وأنشأ مكبر الصوت يتصاعد، فتوجس في نفسه خيفة، فالخيمة بعرض الشارع أمام منزل الوالدة حيث يُعقدُ الدَّرس، فتوجه مباشرة إلى الشخص الواقف على خشبة المسرح يُعالج (الدي جي) يضبط الصوت، فناشده في أَسى:

"يا أخي عندنا الآن درس، وهذا الصوت يشوْشِرْ علينا، وجلوس العروس يكون بعد صلاة العشاء، برجاء إيقاف التشغيل حتى نفرغ من الدَّرس، وحضور العروس؟"

استجاب الشاب، وأغلق الصوت، فاستأنف هو سيره. وقبل أن يدخل بيت الوالدة ويجتاز العتبة عاد التشغيل فجأة، فارتد إلى الشاب الذي قدّره يستهزئ به ليزجره، فرأى ابن عُمْران فوق المسرح في ثَوْرِة عارمة يؤنب الشاب صاحب الدي جي كذلك:

"لا تطع أحدًا، لا توقف الجهاز، نحن هنا في عُرس، وهذا شارع، لا يملك أحدٌ أن يمنعنا"

ووقف تلقاء السلم الصاعد إلى المسرح وخاطب ابن عمران يُصَوبه: "فرحك هذا مكانه بيتك، وألا تؤذي به، أو تغلق له شارعًا"

"فرحي هذا أقيمه في أي مكان شئت، هذا شارع، والشارع مِلكٌ للجميع، ولا يملك كائنًا من كان أن يمنعني من أن أقيم فرحي فيه" وانقلب إلى الشاب الذي خفض الصوت فنهره:

"أنا هُنا منْ يأمر، أقول لك شغل الجهاز تُشغل الجهاز، لا أن تخفضه" ودفع باسطوانة الصوت إلى آخرها. فأقبلت أُمُّه، أرملة ومضت تربط ظهره راجية:

"فرح بنت أخيك، ما عليك مِنه يا حبيبي، كلها ساعة زمن والفرح ينفض"

"يا حاجة، العروس لن تجلس إلا بعد صلاة العشاء، والآن عندنا درس، وأنا أقول لهم فقط اخفضوا الصوت حتى لا يُشَوْشَرْ علينا."

فأنشأت تردد ضارعة كأنها لم تسمع أو تعقل:

"بنت أخيك يا حبيبي، كلها ساعة زمن وينفض السامر، ساعة زمن يا حبيبي" فتدخل ابنها فصاح:

"هذا الشارع سأغلقه تمامًا، لن يمر به أحد بعد الآن"

فجعل يصوبه:

"ياد افهم، ليس من حقك أن تغلق شارعًا، ولا أن تزعج الآخرين"

"لا تقول ولد، أنت رجل كبير، ولا أريد أن أغلط فيك"

"تغلط فيمن، أنت لا تفهم"

"أنا أفهم أكثر مِنَّك، وأغرب ابن عُمران، فسَبَّ أباه ولم يكن ذلك أبدًا مُتوقعا، وأحاط به ولداه يمنعانه النزول، وأراد هو أن يصعد إليه فأقبلت أمه فزعة فتعلقت بعضده ضارعة:

"تعال!"

"من تعاتب، تعال، وهل هؤلاء يُعاتبون، ليس لزامًا درس اليوم، تعال يا ضنايا" وأحاطت به تمنعه. وأقبل صهرٌ له من الذين يجلسون يوم الجمعة يتدارسون معه القرآن فناشده:

"رَوَّحِ أنت يا مولانا، سنأخذ بحقك منه، فأطاعه.

في الأيام التالية لم ينته ابن عُمْرانَ، بل مكث يَعْرِضُ له كلما خرج إلى الصلاة يتحرش به، يتعمد الجلوس أمام السايبر يطالع فيه في وقاحة وتقول هيئته، ها أنا ذا أريد المشاجرة، مما دفع مجاهد جديًا إلى التفكير في اصطحاب عصا خيرزان، ليبادءه بها، فينهال عليه ضربًا حتى يفر هربًا، وباتت تلك قناعته، ليخزه، ويذهب غيظ قلبه ويشف صدره منه. وقبل أن يهمَّ بذلك سأل صهره عمّا حدث يوم ذهابه وماذا فعلوا بابن عُمران؟ فكانت الإجابة مُخزية:

"يا شيخنا، هذا شخص مريض مُخْتلٌ لا يُوقَفُ أمامه، فقط، سَلَّطنا عليه النساء فعرضن لتاريخه، ونشرن له غسيله القذر، ونلن منه حتى فر منهن داخل البيت، هاربًا" وابتسم يضحك.

فأطرق حزينًا للنكوص عن نصرته، إلا من النساء، هُنَّ من دافعن عنه: الآن عَلِمتُ ما أطمع هذا فيك وجَرَّأَهُ عليك، مجاهد في نفسه، وتأكد له أن العلاج الناجع

ليس سوى الذي عقد عليه عزمه، وبينما هو يفكر في إمضاء العزم عليه، سمع صوتًا يقرأه:

"السلام عليكم" فشرع وجهه يتأكد من صاحب الصوت، وكان قد تسرع في الإجابة فوجده هُو، ابن عمران. كان خلف السيارة عاكفًا على حبل الغطاء يَشُدّه ويحاول إحكام ربطه، فترك غطاء السيارة فورًا وترك الحبل ونهض فجبذ ابن عمران جبذة شديدة، ونهره في صرامة:

"كيف تسلم علي وأنت سبّبت أبي؟"

"والله يا شيخ، كنت ضائقًا، في غير وَعْي، والله زلة لسان يا شيخ"

قال غريمه خاضعًا، في صوت نادم، وابتسم في هدوء مفاجئ، مُرْدِفًا:

"أبي وأبوك كانا صاحبين، طول عمرهم كانا يقعدان أمام البيت في الشارع يشربان الدخان" وضحك مُسالمًا.

فنهضت أمُّه وكانت قريبًا منهما تقعد أمام الدار كعهدها كأنها تنظر عودة الزوج الراحل فناشدته:

"حقك علينا يا شيخ مجاهد، حقك فوق رأسنا. أنت وفلان، أخان لن تفترقا" ناشدته كذلك تطيب خاطره فترك خناق ولدها، وظل آسفًا أن تأخر كل هذا الوقت كي يقتص لأبيه، وألم يبكت نفسه: أجبان أنت، تنتظر كل هذا الوقت كي يجيئك هذا فيبدأك السلام. وأسف على عدم تعلمه فنًا قويًا من فنون القتال، فيكون على أهبة الاستعداد، لا يبطئ في القصاص أبدًا.

* * *

لما عزم على الزواج من ابنة مدام أمنية وحضر وقت المُضيِّ أخذ يفكر في أناس يَحْفَوْنَ به، يُحِبُّهم ويُحِبُّونه، وكطائر سَعيدٍ يرفرف بجناحيه قَدَّر سأسعى في إسعادها، سأصلح بالها، والخطة أن أسعى في معرفة، أحزانها، أفراحها، آمالها وانكساراتها فتشارِكُها فيها، وقال يَعْهَدُ إلى نفسه، لتكن أنت لها كتابًا مفتوحا تقرأ فيه من خِبرة الدنيا وخبر الآخرة ما حَصَّلْتَ، وأردف في عزم، سأُقْرِئها القرآن جميعه، أُعِينُها على حفظه وأستخرج لها معانيه، ليكن لها زادًا وشفاءً تأْمَنُ به إن جاء أجلي قبل أجلها، وفكر، فالنساء، غالبًا، ما يُعمرنَّ بعد الرجال كثيرًا. ليتدرب كلانا على انتقاء الكلمة التي تُطَبِّبُ الرُّوح، ولا تعكر الصفْو، وقال يُقَدِّر، بالطّبع ستجد لها مفردات تعكس حياة الرَّفاهة التي كانت تعيشها. وقال، سأعطيها شَطْرَ الراتب، إن قبلت الزوجة أن تستمر، وسأقْسِمُ بينهما رغم كل شيء، وحدَّثَ: من هذه الناحية ليست لك أيَّةُ مطالب، سأسافر بالقطار اقتصادًا للمصاريف، فأمكث يومي الجمعة والسبت عندها وأُلْحِقُ بهما، الأحد آخذه أجازة في أسبوعها. سأستعينْ على مشقة السفر بكتابٍ أقرأه أثناء الطريق، ولن أدعْ وِرْدي أبدًا، سأجِدُ في السفر – عهدي- من أقرأ عليه. قال، درس النساء لن أقطعه، ومُقْتَرِحًا للحفاظ عليه، أجعله أسبوعًا بعد أسبوعٍ، هكذا يكون الاستمرار فيه ممكنًا، وقال: كل شيء يمكن احتماله إلا شقاء الروح، واسْتَحْيَا من كلمة، وفراق الأحبة، فأخفاها، ولم يَسغْ له النطق بها، كما لم يَسِغْ لنفسه حتى هذه اللحظة أن يحدث بها مدام أمنية، وتأوه، هذه معضلة، قلبٌ يهفو دومًا يريدها، وبالٌ مشغول يفيض وُدًّا لابنتها، وتأجج الشوق فجأة، وعصفت به عاصفة الآلام المتراكمة، فَانفتَ عزمه فقرر الموائمة، وقال في نفسه:

هي خِطْوةٌ، يهدأ بها قلبك وتُذْهِبُ عنه تلك المشاعر المتباينة، فتخيَّر زميلة راسِيَةٌ فأَسَرَ لها:

"مشكلتي مع زوجتي لا تنتهي، نحن في شقاق دائم، ولم أعد أطيق، وأنا أكره الفشل، فأخبرتها أني سأتزوج، فقالت، يا ليت، حتى تؤدبك غيري، فقلت لها حالي لا يخفى عليكِ، ظاهري كباطني، فاستنكرت:

"أنت، أنت مصيبة، أنت داهية، بكره تظهر بلاويك المتلتلة. فقلت: لن تغضبي إن تزوجت، قالت: لا، لكن عرّفني قبلها." وأسرَّ للزميلة بِسِرَّه:

" أريد أن أكلفك بمهمة، فلا يطَّلع عليها غَيرنُا، ونبَّهَها، لا زوجك، ولا أحد غيرنا، ثمَّ قال:

"تعرفي مدام أُمنية، زميلاتنا في مكتب الخبرة السابقة، أنا ما زلت على اتصال بها، وعَلِمتُ منها أن ابنتها الكبرى عالية، لم توفق مع خطيبها، وحتى الآن، ترفض من يتقدم لها. اتصلي، قولي لها فلان، يريد خطبة فلانة. وقال يُشَجّعها وأيمَّا كانت النتيجة أخبريني ولا تخافي، أيمَّا كان الردُ، فالخِطْبَةُ عرض بين طرفين لكل منهما كامل الحق في القبول والرفض. فاتصلت الزميلة:

"كيف الحال يا مدام أمنية؟ أنا فلانة أكلمك من المنصورة، مفاجأة. وضحكت، كيف حال البنات، وهل مايْسة، تعني البنت الصغرى رجعت من الخارج، كنَّا نعرف أنها سافرت بَعْدَ الجامعة تدرس في انجلترا.

"نعم. رجعت من مدة"

قالت:

"وكيف حال الكابتن؟ تعني زوجها"

"هل تزوجت عالية؟"

"ربنا يبعث"

قالت:

"فيه عريس عاوز يخطبها"

"مَنْ" سألت كذلك.

"الشيخ مجاهد"

فَفُجِعَتْ:

"تقولين مَنْ؟ تقولين مَنْ؟!"

فما زالت تردد حتى أكدت عليها الزميلة الرسول:

"الشيخ مجاهد"

قالت:

"طلبٌ في غير محله، وغير متوقع بالمرة"

وسألت كذلك:

"وما السبب الذي جعله يفكر هكذا؟"

"أنا لا أدري، أنا مكلفة فقط بإبلاغ المهمة"

قالت:

"معقولة يفكر كذلك"

فسألتها الزميلة:

"وما أقول له إذا سألني؛ أقول له قالت، نُفَكِرُ، أو نحتاج لبعض الوقت"

فردت بِلَهْجةٍ صارمة:

"لا، الأمر منتهٍ، وطلب في غير مَحِلَه إطلاقًا، وأنا لا أدري، كيف يُفَكرُ هَكذا.

* * *

السيرة الذاتية

** الكاتب: وجدي عبد الهادي

* بكالوريوس كلية التجارة جامعة المنصورة ١٩٧٩

* ليسانس كلية أصول للدين جامعة الأزهر فرع المنصورة ١٩٩٨

* عضو اتحاد كتاب مصر

** صدر للكاتب:

* الشقاء – رواية – سلسلة أدب الجماهير – ١٩٨٦

* كبد – رواية – سلسلة أدب الجماهير– ١٩٨٧

* هانم والحرب – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٩

* أصل الحكاية (ثلاثية روائية) وتضم:

- انتباه (الجزء الأول) - دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة

- صفا (الجزء الثاني) - دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة

- كما كنت (الجزء الثالث) - دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة

تم بحمد الله

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة